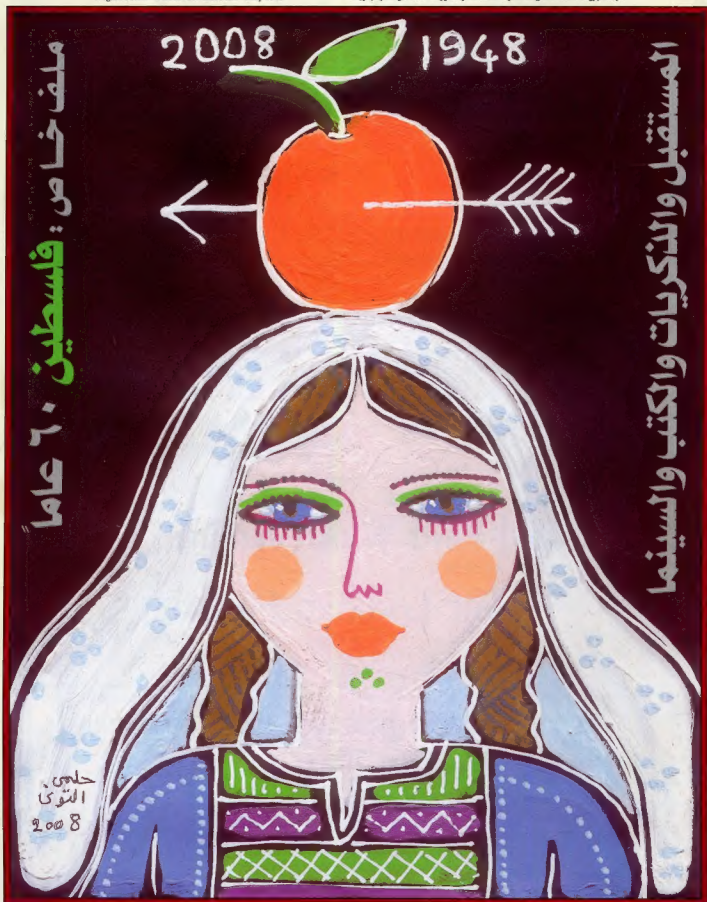


# الكتيبات وجهاً لنظر

Weghot Nazar - Volume 10 - Issue 112 - May 2008

مجلة شهرية، العدد المائة والثمانون، السنة العاشرة، مايو ٢٠٠٨، الثمن عشرة جنيهات



# SAVE TIME & MONEY

LET YOUR FINGERS DO THE WALKING... 



**YellowPages.com.eg**

EGYPT'S OFFICIAL **LOCAL SEARCH** SITE

Search Egypt

Enter Business Name/Keyword/Category/Brand ?

e.g : Radio Shack, Marble, Restaurants, Nike..

Region

All



Find



#### Other Search Options

- by Business Name
- by Keyword
- by Category
- by Brand
- by Phone Number
- by Address

AND FIND WHATEVER YOU  
ARE LOOKING FOR



TM

EGYPT'S OFFICIAL **LOCAL SEARCH** COMPANY

**YellowPages.com.eg**

Print • Online • Mobile



تصدر عن:

الشركة المصرية

للنشر

العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم الحليم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة



### كتاب العدد :

- إبراهيم العريس... كاتب لبناني.
- أفيش مارجاليت... أستاذ الفلسفة بالجامعة البرية.
- حسام صام... باحث مصري.
- سامي كمال الدين... صحفي مصري.
- عزت إبراهيم... صحفي.
- عزت عزت... مدرس الصحافة بجامعة القاهرة.
- عزى بشارة... كاتب عربي.
- فوزي القاولي... ضابط سوري راحل، قاد جيش الإنقاذ في حرب فلسطين ١٩٤٨.
- فيصل فراج... ناقد أدبي أردني.
- قدرى حنفي... أستاذ علم النفس بمعهد الدراسات العليا للطبقة - جامعة عين شمس.
- محمد المهدي... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.

رسوم العدد للفران

محمد حجي



يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو غير الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغیر لأن كتابی مسبق من الناشر.



### المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي  
٣ ميدان طلعت حرب، القاهرة، جمهورية مصر العربية  
ت : ٢٣٩٢٠٤٩٠ / ٢٣٩٢٠٤٩٢ / ٢٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٢٠٤٩٨ / ٢٣٩٢٠٤٩٢ (٢٠٢)  
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

### الاشتراكات :

السنة الواحدة (أشرا تبدأ بدءاً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر : ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد برید عربی : ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا : ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا : ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم : ١٠٠ دولار أمريكي.  
إدارة الاشتراكات : أ. شارع صهيبة المصري، ص. ب : ٢٣ - البازنوازا - مدينة نصر  
هاتف : ٢٣٣٢٩٩ - فاكس : ٢٣٠٤٨٥٦٦ - subscription@weghatnazar.com

### ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١٠٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١٠٥ قطر - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان ١٠٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة سورية ١٥٠٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهماً - تونس ١٠ دينار - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولارات.  
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA \$ 5.

طبع بمطابع الشرق بالقاهرة

### محتويات العدد :

- ٤ - عزى بشارة
- ١٠ - إسرائيل إلى أين
- ١٠ - أفيش مارجاليت
- ١٠ - «الأمم المتحدة»
- ١٦ - تأليف: ديفيد هولان
- ١٦ - عزت إبراهيم
- ١٦ - «الوعد الرابع»
- ١٦ - THE MUCH TOO PROMISED LAND America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace
- ١٨ - فوزي القاولي
- ٢٤ - «يوميات عربية»
- ٢٤ - «ذاكرة الكاميرا»
- ٣٠ - «فلسطين التي كانت»
- ٣٠ - «شاهدات إسرائيلية وبريطانية»
- ٣٠ - «مشوار الموت»
- ٣٤ - فيصل فراج
- ٤٠ - «ستون عاماً من الحكم» من حكاية الأمل إلى رواية الفجعة
- ٤٠ - إبراهيم العريس
- ٤٧ - «من مدرس الجليل» إلى «يد إلهية» السينما الفلسطينية
- ٤٧ - «المكتبة»
- ٥٠ - قدرى حنفي
- ٥٤ - «نحن المسنون» إطلالة نفسية
- ٥٤ - حسام صام
- ٥٧ - «الإخوان والصوفية» البعد الغائب
- ٥٧ - محمد المهدي
- ٦٠ - «دراما الأطراف العربية»
- ٦٠ - سامي كمال الدين
- ٦٦ - «المسند» بقلم السعدني
- ٦٦ - «عسرة عزت»
- ٧٠ - «العقلية المصرية» محاولة للفهم
- ٧٠ - «إصدارات جديدة»



المجتمع الدولي هو مجتمع افتراضي، وهو تعبير يُعَدُّ خصيصاً ويُفَصِّلُ للغة المناشدة. ولا يعنى فى الممارسة الفعلية شيئاً سوى موازين القوى القائمة لصالح الولايات المتحدة الأمريكية.

خيار الدولتين كحل ناجم عن تفاوض، أو يفترض أن تتوصل إليه المفاوضات، هو نتاج هذا السياق، سياق البحث عن حلول لمعضلة، ولكن سخرية التاريخ أن نفس السياق الذى أوصل النظام الرسمى العربى ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى التنازل والافتتاع بفكرة «حل الدولتين»، الذى يعرض ممارسة حق العودة للخطر بحكم تعريفه، هو نفس سياق القبول العربى بموازين القوى حكماً، والرهان الحصرى على الاستراتيجية الأمريكية. وهذا ما مكّن إسرائيل من تفريغ الحل من مضمونه

كيفية إزالة الاحتلال. ويتحول التفاوض إلى عملية سياسية جارية، تفصل فيها «حلول» و«مخارج»، بموجب موازين القوى السائدة فى ظل ابتزاز تتعرض له النخبة السياسية للشعب الواقع تحت الاحتلال لدفع ثمن بقائها قيادة مقبولة على الساحة الدولية والمجتمع الدولى.



فى ظل هذا النموذج نشأ التحويل العربى على مستوى الخطاب السياسى والإعلامى على مصطلحات مثل «الشرعية الدولية»، والمجتمع الدولى، وهى عوالم افتراضية بديلة لعالم حقيقى تم التخلي عنه وهو معركة التحرر العربى والفلسطينى ضد إسرائيل والصهيونية والمجتمع العربى.

بأن تترك «القضية» للسلطة والمنظمة تحت عناوين شتى من نوع «وحدانية التمثيل»، واستقلالية القرار، وغيرها. تتحول فلسطين من قضية بلد عربى محتل، إلى نزاع فلسطينى إسرائيلى على حدود دولة فلسطينية افتراضية، ومن «القضية الفلسطينية»، إلى قضية الفلسطينيين، ثم إلى قضية الفلسطينيين القاطنين فى الضفة وغزة دون غيرهم، ومن حلقة ضرورية من حلقات التحرر والوحدة العربية إلى مسألة كيان سياسى آخر، ومن صراع مع الصهيونية وما تمثله فى هذه المنطقة إلى نزاع حدودى. وتتحوّل المقاومة من التحرر إلى البحث عن حلول لقضية فلسطين. ويتحوّل البحث عن حل إلى تفاوض بين محتل وواقع تحت الاحتلال، قبل أن يقتنع المحتل بموضوع التفاوض الوحيد الممكن فى مثل هذه الحالة وهو:

العربى بين متضامن معهم ولائم لهم يحملهم المسؤولية لأنهم يمرضون أنفسهم لغضب إسرائيل. وقد وصلت الحاجة لتأسيس وترويج موقف غير شعبى كهذا شعبياً درجة تأليب المشاعر الوطنية المصرية ليس مع فلسطينيين وضد إسرائيل، كما هى فى سجيتهما، بل ضد «غزة» فلسطينية». ترك القضية للفلسطينيين هو نتاج لقاء بين نوعين من المواقف والتصورات، أولاً، مصالح أنظمة عربية أخرجت نفسها ودولها من تعريف العرب كذات سياسية فاعلة ذات أمن قومى ومصالح ومواقف مشتركة من جهة، وثانياً، مع تضال قيادة حركة التحرر الفلسطينى لكى تصبح نظاماً عربياً هى أيضاً من جهة أخرى. ترحب الدول العربية بالسلطة الفلسطينية تحت عنوان (م ت ف) كنظام عربى لأنه يلبى حاجة الأنظمة



AP Photo/Eyal Warshawsky



## إسرائيل إلى أين؟؟

يرفضها الانسحاب من القدس المحتلة، ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، والإصرار على الاحتفاظ بكتل استيطانية في الضفة الغربية.

ودخل الدولتين، الذي اقرهته إسرائيل من المضمون هو الحل الوحيد الذي يمكن أن ينتج عن مفاوضات في هذه الظروف، فلا يبدو أن «حل الدولة الواحدة» يمكن أن ينتج برضا «الطرفين» أو يتمخض عن مفاوضات بينهما في هذه المرحلة.

رفض «حل الدولتين» هو رفض لحل كان يمكن أن يشكل أساسا لتعايش في المنطقة العربية، مع أنه لا يوجد عدل، ولكنه يتضمن الحد الأدنى من الإجماع العربي إذا تضمن استعادة القدس وعودة إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ واعتراها بحق العودة.

ولكن إسرائيل كما قلنا رفضت هذا الخيار. رفضت خيار الدولتين بشكله ومبركاته التي كان يمكن أن تقبل عربيا، وسياسات إسرائيل تجعله غير ممكن التحقيق في المستقبل. فما هو الخيار الآخر؟

لقد تم تعزيز التفاوض على «حل الدولتين» وتزويجه من أي مضمون. إذ فشلت حركة التحرير الوطني الفلسطيني بمصادر قوة حركة التحرير، بما فيها التفاوض على المجتمع العربي بدل «المجتمع العربي». فقدتها، وتخلت عنها دون أن تصبح دولة، وقيل أن تضمن السيادة، وأصبح كيان السلطة الذي أقامته مرتبطا كلياً بالتفاوض ويحسن النية الأمريكي الإسرائيلي، وبموافق الرأي العام الإسرائيلي وغير ذلك. وتحول التفاوض على الدولة الفلسطينية إلى عملية ابتزاز، يتم فيها تقديم تنازلات ومقايضتها بفضايا متلفة بالحقائق الشابتة.

ومن رحم اعتبار التفاوض بديلا عن المقاومة، وليس نتيجة لها نشأ قيادة فلسطينية جديدة. وهي قيادة محتواة في العملية السياسية التفاوضية إلى درجة إرباطها وجوديا بهذه العملية. وإسرائيل تعرف ذلك، كما نعرفه. وهي تستبدل التفاوض السياسي الجوهري بمكررات ومبادرات حسن نية إسرائيلية تحتها جها هذه القيادة في مقابل محاصرة ومحاربة وغتيل القوى الفلسطينية التي تتبنى خيار المقاومة ورفض التخلي عنه.

هكذا يصبح ما كان مفروغا منه تحت الاحتلال ذاته محل الكهراء والماء وحرية التنقل والعمل والغذاء والدواء موضوعا للتفاوض والمساومة... ويضو عن خيار المقاومة، فهذا الخيار يمنع عنها هذه «الإنجازات» العظيمة (التي كانت قائمة في ظل الاحتلال).

في مرحلة التحرير الوطني كان الطرف الفلسطيني الذي يطرح نفسه كوسيط مع الاحتلال لأن الاحتلال يوفر بمراسمته تصاريح السفر والعمل والكهرباء والوقود وغيرها، كان يعتبر صعبا. وكانت هذه الاستراتيجية تعتبر محاولة لخلق قيادة بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي اعتبرت قيادة وطنية لأنها لا تقبل بالخدمات في ظل الاحتلال حالا، بل تصر على التخلص من الاحتلال ذاته.



في مرحلة التفاوض على الدولة أصبحت هذه أدوات إسرائيلية-فلسطينية للضغط ولتمييز بين قيادة معتدلة تستحق أن تدعم بواسطة هذه الخدمات، وإليات أخرى متطرفة يجب أن تدفع الثمن شعبيا بالضغط على المجتمع الفلسطيني ليتخلى عنها لأنها تتمسك بخيار المقاومة.

ولكن في الوقت الذي يجري فيه تفريع برنامج الدولة الفلسطينية كجزء من «حل الدولتين» من أي مضمون، لا يبدو أن التيار الفلسطيني المقاوم، الذي

يتشكل بغالبية حالها من قوى تتبنى أيديولوجية دينية، متمثلة بحركتي حماس والجهاد، يميل إلى طرح ديمقراطي بديل يتضمن خيارا للإسرائيليين مثل «حل الدولة الواحدة». لم يطرح خيار الدولة الواحدة لكافة المواطنين العرب واليهود بشكل فعلي وحقيقي في تاريخ الصراع. فقد نظرت العرب بحق إلى الصهيونية كحركة استعمارية وإلى الصهاينة من غير المقيمين أصلا في فلسطين كمستعمرين يحركهم هدف إقامة دولة في بلد يقيم فيه شعب آخر. لم يكن وعد بلفور سرا، وقد كانت مشاريع الصهيونية بإقامة دولة يهودية في فلسطين معروفة معلنة تخفى على الجبهة فقط.

ولأن الصهيونية كانت وما زالت تعنى في الممارسة العمل على جلب عدد شير محصور من «السادسين»، المستوطنين إلى فلسطين، فلم تكن حدود المواطنة واضحة المعالم. والمواطنة المتساوية هي أساس وجوه فكرة العيش في دولة واحدة دون هيمنة صهيونية. وهي أيضا الرسالة العربية المطلوب أن تقدم شيئا لمجتمع اليهودي لإبعاده عن فكرة الدولة اليهودية، والقصد شرعية الوجود في فلسطين بواسطة المواطنة. هذه رسالة عيش مشترك، وهي نقية للإبادة التي الطرد أو «رمي اليهود في البحر» التي تتفنى بها وتختبرها إلى حد بعيد الدعاية الصهيونية في حين ترى إسرائيل الفلسطينيين في البحر (والصحراء). ولكن هذا أن كل تحديد يقوم به العرب لتاريخ لا يعتبر بعده المهاجرون مقيمين شرعيين من



**تحت الدولة الصليبية طيلة ١٩٠ عاماً، بواسطة الجمع بين الحصون والقلاع والتسويات والمعاهدات مع أمراء وسلطانين وماليك، وفي الرهان على خلافاتهم في تحالفات مع بعضهم ضد بعضهم الآخر**



أجل توضيح حدود المواطنة هو تحديد غير واقعي ومثير للفسرية والتضيق.

ومن الناحية الأخرى، وهي الأهم، أصرت الحركة الصهيونية على إطار الدولة اليهودية في فلسطين كحل للمسألة اليهودية. هذا هو مبرر وجود الصهيونية التاريخي بنظر ذاتها. وقد كانت الدولة اليهودية موضوع وعنوان الصراع الذي خاضته حتى داخل المجتمعات اليهودية في الشتات، ناهيك عن الدول العظمى، وتحصيل وعد بلفور، وناهيك ومشروع الاستيطان نفسه، وهو مشروع قام على انقاص عرب فلسطين. ولم يهدف إلى الحياة مع العرب في كيان سياسي واحد.

هذا صحيح من الناحية التاريخية، ما عدا في استثناء صغير واحد هو طرح «هشومير» مستشعر، فكرة الدولة الثنائية القومية في الثلاثينيات، ولكن هذا الطرح جاء في خضم نشاطها الاستيطاني في تناقض مع السكان الأصليين.

من السخف الاعتقاد أن الصهيونية، وأى تيار من تياراتها، وإسرائيل أو أي مركب من مركباتها السياسية، أو حتى الاجتماعية الرئيسية، يمكن أن يستقبل الآن إلا «الدولة الواحدة، الديمقراطية» كأطار لحل.

ليس هذا النموذج حلا لتفاوضيا إطار موازين القوى الحالية وبالعنى الذي ينهم في أيامها هذه من كلمة «حل». وعندما طرح لفترة قصيرة من قبل حركة فتح مثلا في السبعينيات اعتبر إسرائيليا على أنه رديف لمباراة «حل إسرائيل». كما طرحت فكرة الدولة الواحدة من قبل (م د ف) كبرناس «الدولة الديمقراطية العلمانية» بحيث تضمن المساواة الكاملة بالحق بين سكان البلاد، مسلمين ومسيحيين ويهود. أو أنها تعاملت مع الديانات تحييدا، وذلك دون أن تعين طابعا قوميا للدولة. ولكن لم تطرح أدوات تحول الفكرة إلى برنامج سياسي يعمل يهودي عربي مشترك مثلا، بل من خلال تحرير فلسطين كبلد عربي. وعلى كل حال لم تدم الفكرة طويلا في التداول.

وقد اختلف هذا البرنامج الديمقراطي عن فكرة الدولة الثنائية



## فلسطين، ٦٠ عاماً

يحد بذاته مقومات نجاح حل «الدولة الواحدة».

لا يمكن استنتاج «حل الدولة الواحدة» فوراً من فشل «حل الدولتين». وإذا قبلنا الحديث بلغة الحلول فإن «حل الدولة الواحدة» برأينا أيضاً هو الحل الأفضل والأكثر استيعاباً لمركبات الحقوق الفلسطينية ويتضمن رسالة ديمقراطية للمجتمع الإسرائيلي.

على كل حال أهم أسباب عدم نجاح هذا النموذج المطروح حالياً هو رفض إسرائيل مجرد التفكير بالفترة، وغياب أية قوة جدية قادرة على طرح الموضوع بجدية على جدول أعمال الرأي العام الإسرائيلي من الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على الفلسطينيين. تطرح فكرة الدولة الواحدة في إسرائيل حتى الآن سلبياً، أي للتخويف بها، وإلحاق المجتمع بضرورة التخلي عن مساحات مكتظة بالسكان الفلسطينية مثل قطاع غزة.

والمشكلة أن إسرائيل باتت تجأ إلى خيار «حل الدولتين» خوفاً من تطور هكذا واقع يدفع به باتجاه «الدولة الواحدة».

وما تقدمه إسرائيل حالياً كـ «رؤية» بوش، أو كـ «رؤية شارون»، هو ليس خيار «حل الدولتين» فعلاً بل هو إثبات لفشل هذا الحل. ومع ذلك فإن النخبة السياسية الفلسطينية المتولدة عن «عملية السلام»، ومنها أنظمة عربية تريد أن تتخلص من هذا الهم تتساعد إسرائيل في تخريجات وصناعة خطاب لئلي يبدو ما يسطرح وكأنه دولة فلسطينية في إطار «حل الدولتين»... والذلل، باليات مثل «تبادل أراضٍ» بدون «الاعتراف بحق العودة» دون «ممارسته»، وبكيان دون سيادة كاملة يسمى دولة وغيرها من التخريجات والتسميات التي لا ينضب لها معين. ولكن ليست هذه التسمية سلاماً حتى لو لم يكن هناك «حول هذا الموضوع في الحلقة القادمة».

قد تؤدي المفاوضات المتعثرة بين السلطة الفلسطينية (تحت عنوان «م ف») وحكومة إسرائيل إلى اتفاق تقوم على أساسه دولة فلسطينية. وربما تجري بينهما حالياً مفاوضات سرية مكثفة موازية غير متألزة برود فعل السياسة

الموقف أبداً. ولم تنشأ قوى إسرائيلية تطرحه أو تتحزب له. وهذا هو العائق الرئيسي أمام تبنيه من قبل نخبة سياسية فلسطينية ترى بالتفاوض خيارها الوحيد. أما القوى الفلسطينية القائمة فتبدو شعاراتها وإستراتيجيتها النضالية مخالفة تماماً لمفهوم «روح الدولة الواحدة» وفكرة المواطنة الديمقراطية في دولة علمانية.

ومن الواضح أنه ليس من جدوى في انتظار فئات اجتماعية إسرائيلية كبرى لتتضمن كمثل هذا الطرح. لأن الفئات الاجتماعية الكبرى لا تتنازل عن امتيازات من طيب خاطر. إن «حل الدولة الواحدة» هو تنازل عن امتيازات اليهود، وذلك بدرجة أكبر في حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على المواطنة، وبدرجة أقل في حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على الاعتراف بقوميتين على شكل اتحاد فيدرالي.

لا يبدو في الأفق القريب تيار سياسي اجتماعي إسرائيلي يدفع بهذا الاتجاه، في تناقض مع فكرة الدولة اليهودية. وأقصى ما نسمعه من اليسار الصهيوني هو فصل الضفة والقطاع عن إسرائيل في دولة، ورفض حق العودة في كافة الحالات.

المشكلة أن من تبني خيار «حل الدولة الواحدة» مؤخراً تبناه نتيجة ثقافة بفشل «حل الدولتين» على أساس حدود الرابع من حزيران، وليس نتيجة تبني فرص نجاح «حل الدولة الواحدة» وإيضاً لأنه بات واضحاً أن «حل الدولتين» لا يستوعب تطبيق حق العودة... لا يفرض فشل «حل الدولتين».

حركة التحرير الوطني الفلسطيني تاريخياً اتجهت نحو فكرة الدولة الوطنية في نهاية السبعينيات.

وهكذا وجهت الانتفاضة الأولى والثانية في الضفة الغربية وقطاع غزة باتجاه الفصالي وليس توحيداً مع بقية فلسطين. ولا توجد قوى فلسطينية سياسية حزبية جدية تبنتها، أو تطرح إستراتيجية نضالية سعيها إليه، ناهيك عن أنه ليس خياراً تفاوضياً مع إسرائيل، في حين تتبني النخبة السياسية الفلسطينية طرق التفاوض حصرياً.

ولقد انقسمت الخارطة السياسية الفلسطينية والقوى المنظمة الفاعلة فلسطينياً بين قوى تدفع جميعاً باتجاه الدولة، الدولة الوطنية الفلسطينية، وتختلف على أمور أخرى. وحقيقة تبني هذا الخيار مؤخراً من قبل متشككين فلسطينيين ديمقراطيين لا يغير من جديته وجدية مناقشته، بل يؤكد ضرورة ذلك.



ونحن نعتقد أنه لا توجد عوائق كبرى أيديولوجية أو بنوية فلسطينية ضد مثل هذا الحل كما أن مصلحة الشعب الفلسطيني بطرح برنامج ديمقراطي يضمن حق العودة ولا يفرط بالحقوق ويعطي إجابة للمواظن اليهودي تجد لها إجابة معقولة لها في تبني مثل هذا الحل. وإذا تم تبنيه فلسطينياً فلن يكون هناك عائق عرسي جدى.

المشكلة أن إسرائيل لم تقبل بهذا

القومية. وهي فكرة تطرح حالياً من قبل متشككين عرب ويهود. ولقد طرحت بداية من قبل يسمار الحركة الصهيونية «هشومير هتسيفيم» في ثلاثينيات القرن الماضي ولفترة قصيرة فقط. وتتضمن الفكرة الثلاثية القومية اعترافاً بوجود جماعتين قوميتين في فلسطين، تشكل كل منهما كياناً داخل دولة واحدة. وتلبي بالتالي فكرة الوطن القومي، أو الوطن لكل قومية من القوميتين في نفس الدولة، في إطار دولة واحدة تعترف بقوميتين. طمحا أسقطت «هشومير هتسيفيم» هذا الطرح سريعاً ولم تتابعه. فقد رفض فلسطينياً وصهيونياً... وقيمت فذرات منه تطرح من قبل اساتذة في الجامعة العبرية ومتشككين يهود بارزين ولكن معدودين قبل النخبة في إطار حركة «بريت شالوم».

يسلم نموذج «الثلاثية القومية» بوجود قوميتين واحدة أصيلة وأخرى مشكلة، ولكنها في العائتين أقرب إلى واقع فلسطين من جنوب أفريقيا. ففي جنوب أفريقيا الجديدة التي يعاد بناؤها بعد انهيار النظام العنصري التي تجاهل فكرة القوميات (التي اعتبرت غير مشكلة كمفكرة سياسية) لصالح فكرة تعدد الثقافات واللغات والديانات والإثنيات في إطار الأمة الواحدة. أي أن عملية بناء الأمة الجنوب أفريقية الواحدة (وخلالها للأمة الفرنسية مثلاً) لا تتجاهل الإثنيات والقبائل واللغات والجماعات والثقافات. وهي تعترف بها في إطارها. في جنوب أفريقيا إذاً ليس المقصود نموذجاً مستعداً القوميات، بل متعدد اللغات والثقافات والإثنيات.

ومع أن «الحل الثلاثي القومية» أقرب إلى واقع فلسطين لأنه يتعامل مع قوميات مشكلة فعلاً خلافاً لنماذج أخرى مهاجرة (الولايات المتحدة، أستراليا، نيوزيلندا) تبني فيها الأمة على أساس المواطنة وحدها دون ذكر القومية، فإنه ليس أكثر واقعية من الناحية السياسية في موازين القوى الحالية في فلسطين.

إضافة إلى ذلك ففي جنوب أفريقيا تبنت حركة التحرير الوطني متمثلة بالأمم المتحدة الأفريقي هذا الخيار. خيار التحرر عبر المواطنة المتساوية في إطار الدولة متعددة الثقافات. ولكن

العدد المائة والثا عشر - مايو ٢٠٠٨ م



### يجري تمرير التسوية دون أي

تأخير على نفور الشارع العربي من عملية

التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل

بالسلام العادل، ورفضه للاتفاقيات

التي تحظى بها دولياً





## إسرائيل إلى أين؟

الأمريكي مع إسرائيل، ولازواجية المعايير دولياً. لا التسوية ولا العملية التي قادت إليها شرعية بنظرهم. ولا شك أن حالة الاستباحة الإسرائيلية للشعب الفلسطيني لشئيه عن خيار المقاومة وقبول الشروط الإسرائيلية قد روت بذور الفسقة وأججت مشاعر الغضب والميل إلى لصاق تهم العمالة لإسرائيل وأمريكا بالضالعين في التسوية.

صحيح أن العربي مغلوب على امره في ظل الأنظمة ولكنه لا يتنظر برضى إلى مشهد استمرار التآمر من أطراف عربية مع إسرائيل ضد نتائج الانتخابات الفلسطينية، وهو لا يتنظر بغير الرضا إلى استمرار التفاوض مع إسرائيل وهي تحاصر وتقتصف وتقتل المدنيين في وسط العالم العربي، وهو لا يقبل موقف الاستيطان عتية في طريق السلام، ولا يعتبره أكثر من رفع للعبث من أجل الاستمرار بالتفاوض رغم الاستيطان، واستهانة بالراي العام العربي من قبل دول عربية فاعادة على فعل أكثر من ذلك بكثير.

من هنا فإنه بعد رفض إسرائيل ما تعبره أوساط فلسطينية وفلسطينية واسعة حلولا شرعية، فإن التوصل أو عدم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل خارج إطار الحلول العادلة لا يعني إلا تبنى إسرائيل لنموذج الصراع المستديم، الذي يستتمر رغم التسويات والتحالقات.

في الواقع سوف يستمر الصراع بعد هذا النوع من التسوية. فهو لا يمثل خيارا عرفته المنطقة العربية في الماضي، هو نموذج الدول الصليبية. لقد رفضت إسرائيل خيار، حل الدولة، وخيار، حل الدولتين. وإن نجحت أو لم تنجح في فرض تسوية كالتى يجرى التفاوض عليها سرا وعلمانا، فهي اختارت بالنظر التاريخي العيش في صراع مستديم دون شرعية من محيطها.

ونحن فن ندكر أوجه الشبه ولن نقوم بمقارنة بين سياق الصراع الحالي المعاصر وسياق الصراع الصليبي، فليس هذا هو المقصود. وطبعاً السياق التاريخي مختلف تماماً. يمكننا أن ندكر أن التسويات كثرت في ظل الدولة الصليبية مع محيطها، بما في ذلك تحالفات مع أمراء ضد آخرين في مصر وبلاد الشام، ولن يكون صعباً أن

وسوف يبقى تناقض إسرائيل مع الديمقراطية عربياً لأنها تحشى الأكثرية ورايها العام وتقلباته. إذا كان هنالك سؤال عن المشروعية فإن الشعب الفلسطيني هو القادر أن يمنح المشروعية للتسوية إقليمياً، ولكن التسوية المطروحة تتم من خلال تحالف مع طرف فلسطيني ضد أطراف أخرى، أحدها روح الانتخابات المحلية عندما خاضها. أما في التشتات الفلسطيني فهذا النوع من التسوية، بحكم تعريفه كإقصاء لقضية اللاجئين، لا يحظى بمشروعية. هذه التسوية ليست فقط غير شرعية فلسطينياً، بل إنها أكثر من ذلك سبب احتشاد داخلي، وحتى إنضاجها قبل أن يتم التوصل إليها يجرى عبر تجويع وقصف جزء من الشعب الفلسطيني واستنزافه إلى درجة لا يقوى فيها على الرفض. هذه ليست مؤشرات على شرعية.



والإقليمياً يجرى تمرير هذا النوع من التسوية من خلال هيمنة أمريكية وصراع محاور إقليمي، وسوف يحول أحد المحاور عدم عدالة التسوية إلى راية في معاركه.

يجرى تمرير التسوية دون أي تأثير على تصور الشارع العربي من عملية التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل بالسلام العادل، ورفضه للتلميحات التي تحظى بها دولياً. وإن صحت أو لم تصح افتراضات الشارع العربي، يحمل العرب مسؤولية جزء كبير مما فيه لهذه الحالة التي أنتجت هذه التسوية، وللتحالف

الشرعية، رغم أنها ترضى قيادات عربية. فهذه تتذرع بقول ما تقبل به القيادة الفلسطينية لأنها ترغب بالتخلص من عبء قضية فلسطين. إن الكيان الناجم من المفاوضات والذي يمرض وكأنه، حل الدولتين، لا يحظى بشرعية عربية على مستوى الشعوب والراي العام والمجتمع العربي كتنوية للحساب المفتوح وكتموضع عن الظلم اللاحق بالشعب الفلسطيني. فيقال إن هذا كلام عام، ولكن الحقيقة أنه يترك قضايا لموسسة خارج الحل مثل قضية اللاجئين، وفي الأصل، وذات الوزن النوعي والمعنوي الكبير، وتتضمن معاناة فعلية للاجئين البشر. كل ما تعرضه هذه التسوية على اللاجئين هو تغيير اسمهم من لاجئين إلى رعايا سفارات في الخارج، أو مغتربين. كما أن إسرائيل لن تبقى بعد هذا الحل ساكنة في القدس، بل سوف تنكح الجراح يومياً بالتهويد المستمر للقدس وأراضيها ومقدساتها، وسوف تتكثف يهودية إسرائيل وتزداد تزمناً وصلفاً في العلاقة مع العرب المواطنين فيها والذين سوف يخبرون بعد مثل هذه التسوية بين الألفة الكامل لإسرائيل إلى درجة الخيانة العسكرية وبين الحقوق المنقوصة قانونياً. أما من يصير على هويته القومية والوطنية من العرب في إسرائيل فقد وجدت هذه من وجهة النظر الإسرائيلية تعبيراً كافياً عنها في هذا الكيان الفلسطيني. ووفق كل هذا سوف يبقى التناقض قائماً بين تطوير الدولة العربية وتحديثها وتحديث جيشها، وبين إسرائيل كدولة معادية من محيطها على خشيته وزرعها من أي تطور فيه.



## إن تمت التسوية أم لم تتم،

سوف يجرى كل هذا في ظل رفض

عربي لقبول إسرائيل، جزئياً على المستوى

الرسمي وكلياً على مستوى

الراي العام العربي



اليمنيين في إسرائيل أو يجرى في الشارع العربي. ولا بد أن أبحاث هذه المفاوضات أكثر عمقا مما يظهر في الإعلام.

ويعتقد صناع القرار في أمريكا وإسرائيل أنه ذلك سوف يبدو إنجازاً كافياً لتحقيق السلام في المنطقة، بعد أن يتم التوصل إلى اتفاق على شروط قيام هذه الدولة التي لا تصل حدودها إلى حدود ١٩٤٧ ولا تشمل القدس الشرقية عاصمة وتُشمل حتى العودة. لقد جهدت إسرائيل والإدارة الأمريكية لتحويل مطلب الدولة الفلسطينية إلى رزمة تحترل وتصفى كل الحقوق الوطنية للفلسطينيين.

ويجدر هنا التفكير بمعنى رفض ياس عرفات من هذا العرض في كامب ديفيد، فهو يحمل دلالات ليس لجهة تسكك بالثوابت بالضرورة، بل لجهة فهمه لعدم مشروعية الحل عربياً وفلسطينياً، فهو الذي رغم مسهره الشخصي والسياسي بالمفاوضات، وذلك بعد حرب الكوت، وبعد الحسم (م) في كجهاز في تونس إلى الخروج من بيروت، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وبعد وصول الانتفاضة إلى طريق مسدود، وهو لم يقبل هذا العرض بعد أن بات رهينة الإسرائيليين في المقاطعة، ووقع ثمن رفضه، وبدا أن تشييع النظام الرسمي العربي وجزء كبير من القيادة التي أحاطت به شمل أيضاً تنفس الصعداء للتخلص منه كإتلاف على عجلات نفس العملية التي بدأها والتي عادت تدور بعد وفاته. وقد لا يتم التوصل إلى تسوية. ولكن يجب عدم استبعاد إمكانية التوصل لورقة مبادئ حول الحل الدائم بروح ما رفضه عرفات، بحيث تصلح برنامجاً انتخابياً عند أقررت وموضوعاً للاستفتاء عند محمود عباس.

وإذا لم يتم التوصل إلى تسوية يبدو لي أن التناكح على الساحة العربية والفلسطينية سوف تكون واضحة من ناحية تقوية المحور الرافض للتسوية والمؤهل على استمرار المقاومة، رغم أن الجيش سوف يواصل «عملية السلام» لسنتين طويلة. ولكن إذا تم التوصل إلى تسوية من هذا النوع فإنه لا يعني أن الصراع قد وجد نهايته الحتمية. فهذه التسوية ليست، حل الدولتين، الذي يحظى ببعض



# كتاب الزاوية



محمود درويش

يوميات الحزن العادي

هذه مقتطفات من عمل ميكال للشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش الذي أصبح علامة على القضية الفلسطينية. نشر درويش للمرة الأولى هذا العمل بعنوان: «يوميات الحزن العادي» عام ١٩٧٣، وصدر عن مركز الأبحاث الفلسطيني، ثم صدرت الطبعة الرابعة «جديدة ومنقحة» من العمل عن دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، عام ٢٠٠٧.

• • •

أوقفتني جنديّة صغيرة، وسألتني عن قبيلتي وصلاتي.

قلتُ للجنديّة الصغيرة: أنا لا أحارب، ولا أصلي.

قالت الجنديّة الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلية والصلاة.

على ذراعَي اليميني آثار حرب.

وعلى ذراعَي اليسرى آثار رب.

لكنني لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجنديّة: وماذا تكون؟

قلت: ورقة بأنصبي بين القنبلية والصلاة.

قالت: ماذا تفعل لو ربحنا؟

قلت: أشتري لؤلؤاً لعيني حبيبتي.

حسبتي الجنديّة شاعراً، فأخّلت سبيلي.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس الآن؟



فلسطين: ٦٠ عاماً

التجيش الديني والتجيش المضاد إلا كدليل على (الفرية).

وهذا يعني أنه في غياب حل شرعي اختارت إسرائيل أن تبقى قلعة حصينة خلف جدار حديدي، تعيش على قوة الردع من جهة، وعلى الخلافات العربية العربية من جهة أخرى... وتتضمن هذه الخلافات تسويات إسرائيلية عربية طبعاً، فطريق الصراع المستديم الذي اختارته الدولة الصليبية كان مرصوفاً بالتسويات.

هذا ظرف مستديم. ويصح حتى الآن أنه خيار عميق الجنور في الرأي العام الإسرائيلي، وأنه يستند إلى عناصر قوة راحته توفرها علاقة مشوهة وغير صحيحة مع الولايات المتحدة ليس لها مثيل بين الدول. ولا يبدو في الأفق قبول إسرائيل لأحد الحلين: «حل الدولة الواحدة» أو «حل الدولتين». ويفترض أن يتوقع الشعب الفلسطيني والضموب العربية وضماً لا يمكن فيه تحقيق الحقوق، ومع ذلك لا يجوز التنازل عنها، ويتوجب فيه رفض التسويات غير العادلة، ولكن إلى جانب رفض التسويات وإغلاق باب التسوية غير العادلة يجب أن يطرح برنامج ديمقراطي ثابت للحل للبهود والعرب في إطار تصور للمنطقة العربية كلها. وهذا يعني الحياة والتطور والحفاظة على سبل العيش فلسطينياً ومقاومة الحقائق الإسرائيلية الجاهزة على الأرض. وهي مقاومة تنجز مكاسب جزئية وهامة، وتمنع تحول الحالة الكولونيالية إلى حالة طبيعية. ولكن التراكم على المدى البعيد هو في التحدي الإقليمي العربي ومن ضمنه الفلسطيني لإسرائيل، وتحديث الدول والمجتمعات والاقتصادات العربية، واستكمال عوامل الصمود والبناء بما فيها مهام التنمية والديموقراطية وقوة الردع.

إن تمت التسوية أم لم تمت، سوف يجري كل هذا في ظل رفض عربي لقبول إسرائيل، جزئياً على المستوى الرسمي وكلياً على مستوى الرأي العام العربي. هذا صراع طويل يجب أن يدار بالإيقاع الصحيح. وليس الزمن فيه لصالح إسرائيل بل لصالح من يحسن استغلاله. هذا هو أحد أهم المغازي من الستين عاماً الفائتة. ■

نجد أمثلة شبيهة راحنة. ويمكننا أن نذكر حتى حرق كنيسة القيامة أيام جنون الحاكم بأمر الله، في باب تقديم الذرائع للحملات، ولأن يكون ذكر زعامات غير متزنة شبيهة معاصرة متعسراً. ولو ذكرنا دور الإمارات الشمالية في تسهيل العبور وفتح الطريق أمام جيش الصليبيين من أنطاكية وحتى القدس، ولو ذكرنا تسخير الدين في التهيئة والتجيش وحتى في الفهم الذاتي لمنطقتي الحملات ومقاومها... حتى لو قمنا بكل هذا ووجدنا الأمثلة المماثلة في عصرنا، فسوف نجد دائماً ما يجيب بحق أن النظام الدولي الحالي يختلف عن تلك الإمارات العربية والصليبية، وثبات واستقرار الدولة الحديثة العربية واليهودية يختلف جذرياً، ودور الدين مختلف، وعلاقة إسرائيل مع الغرب أوثق وأسرع وأكثر كثافة من علاقة الدولة الصليبية التي لم يصل خبر سقوط القدس بعد الصليبيين منها إلى الباب إلا بعد وفاته، مع أنها سقطت قبل وفاته بمسيرة أيام...

كما يمكن لإحباطات أية مقارنة الإشارة إلى الفجوة التكنولوجية والعلمية بين إسرائيل والعرب، وفي فجوة لم تكن قائمة بين الدول الصليبية الأربع ومحيطها الإسلامي العربي والتركى والفارسى. ويمكن الرد على الرد بالقول أن من يراجع تلك الفترة يدرك أيضاً أن العرب ليسوا نفس العرب من حيث الوعي الوطني والقوى والهموم المشتركة وفهمهم للاستعمار والقضية الوطنية، ولذلك نسنا من السداجة لإجراء مقارنات.



ما يهمنا من هذا النموذج هو: دولة عربية عن المنطقة أنشئت حملات عسكرية استيطانية، ثم استقرت دون أن تتدمج بالسكان بل من خلال بناء القلاع الحصينة والاعتماد على الفروسية، والرهان على وجود تناقض وصراع بين الكيانات السياسية القائمة على النفوذ أو على المصالح أو غيره. (ولا يهمنا هنا ما يعتبره البعض هو الجوراءى

العبد الملة وإثا عشر- مايو ٢٠٠٨ م

قدسية الأرض المزعومة وحق اليهود القصور عليهم لهذه الأرض. يتحدث شولان عن «الأربعين عاما الماضية»، لقد مر أربعون عاما على النصر الإسرائيلي في عام ١٩٤٧ والذي أدى إلى وقوع الضفة الغربية تحت الاحتلال. وكان شولان قد هاجر إلى إسرائيل في نفس العام من الولايات الأمريكية المتحدة، بمجرد تخرجه من المدرسة الثانوية هناك. وأثناء خدمته في الجيش الإسرائيلي تم تدريبه ليكون مسعفا طبييا، وكان ذلك مصدر قوة له

إن إسرائيل مثلها مثل أي مجتمع يوجد بها عناصر أمراض اجتماعية عنيفة. ولكن ما هو غير طبيعي بالنسبة للأربعين عاما الماضية في إسرائيل هو أن أفرادا مخرجة عديدة قد وجدت في نظام المستوطنات ملاذا مهينا بشرعية أيديولوجية. هنا في أماكن مثل شافات ماعون، إيتامار، طاباوش والخليل لديهم الحرية المطلقة لترويع الشعب الفلسطيني المقيم؛ يهاجمون ويطلقون النار، يصيبون وأحيانا يقتلون. كل هذا باسم

مشتركة.. تأسست المجموعة في أكتوبر ٢٠٠٠ فور بدء الانتفاضة الفلسطينية الثانية. ويقول شولان إن الكتاب يهدف إلى التعريف ببعض ما تقوم به حركة السلام الإسرائيلية على خلفية تجربة فردية محدودة جدا.... أريد أن أمدكم ببعض المعاني (المشاعر) التي نشعر بها ونحن جزء من هذا الصراع ولماذا نقوم بهذا الدور. الصراع مع من؟ ويشرح شولان قائلا:

«أنا إسرائيلي أفطن القدس. لدى قصة أريد أن أقصها عليكم ولكنها لم تنته بعد.. بهذه الكلمات بدأ دافيد شولان كتابه القوى والبارز الأمل الأسود، وهو يوميات أربع سنوات قضائها في النشاط السياسي في إسرائيل والأراضي الفلسطينية. والكتاب تسجيل للانهماك العميق للكتاب في مؤسسة طوعية مكونة من فلسطينيين إسرائيليين ويهود إسرائيليين تدعى «تعايش»، وهي كلمة عربية تعني «العيش معا، أو «حياة



## أفيشاي مارجاليت

لشعار، وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

مند الانتفاضة الثانية، أصبح العيسوف الفلسطيني ساري نسبية المؤيد الرئيسي للممارسات السلمية الفاندنية في صفوف الفلسطينيين على أساس الشقين الأخلاقي والعمل، إن نسبية رافض لشكره أنه لا أمل للممارسات السلمية بالنسبة للفلسطينيين بسبب الثقافة الدكورية، إنه يؤمن بأن التضال السلمي، في شكل المظاهرات والاحتجاجات الأخرى، كان يمارس كثيرا من قبل الفلسطينيين أثناء الحكم العثماني لفلسطين، وبعد ذلك ضد البريطانيين والمستوطنات اليهودية في فلسطين قبل قيام الدولة الإسرائيلية.

هل الإسرائيليون أكثر استعدادا في تقديم تنازلات للفلسطينيين عندما يكونون عنيفين أم عندما يكونون سلميين؟

يبدو أن لدينا ردا على هذا السؤال من مصدر مثير للدهشة. عندما جاء أرييل شارون إلى الحكم، كلف المحلل السياسي كلمان جابر أن يفوض استطلاعاً خاصاً، سأل جابر الإسرائيليون فيما لو كانوا على استعداد أن يتقبلوا حلا للصراع يتطلب منهم أن يتخلوا عن ٩٤ بالمائة من الأراضي الفلسطينية في مقابل السلام بالإضافة إلى تبادل ٢ بالمائة من سالي الأرض في عملية مقايضة. سوف يوطن اللاجئين الفلسطينيين بين فلسطين والقدس الشرقية. (هذه المصطلحات هي قريبة جدا من اقتراحات كلينتون في ديسمبر ٢٠٠١).

استطاع رافيف دروكر، وهو صحفي في التلفزيون الإسرائيلي، الوصول إلى استطلاعات شارون التي لم ينشرها أبدا. وهي تظهر أن في مارس ٢٠٠٢ حيث كانت تشتمل الانتفاضة الثانية، ٧٠ بالمائة من الإجابات كانت تيسر الاستعداد بقبول هذه التسوية. ولكن عندما أعاد الاستطلاع للمرة الثانية في مايو ٢٠٠٥، وكانت فترة هادئة، (قبل الانسحاب من غزة مباشرة) ٤٤ بالمائة فقط كانوا على استعداد بقبول نفس التسوية.

هل هذه النتائج تشير إلى أن الإسرائيليين لا يهتمون سوى لمة القوة، وهل يجب أن ننتظر إليهم كحجة حاسمة ضد

الحكومة الإسرائيلية بأن الممارسات السلمية من الممكن لها إخراج إسرائيل وصممت على إيقافه. في الحقيقة، لم يكن هناك أي سبب للخوف خاصة أن عوص لم يكن له نفوذ قوى بين الفلسطينيين. وسألت يوما صديقا فلسطينيا، لماذا في رأيه فشل عوص في إقناع الفلسطينيين في شرعية (صحة) الممارسات السلمية، وكان جوابه مقنعا للغاية: الفلسطينيون ينظرون إلى التضال السلمي على أنه ليس من أعمال الرجولة، إنهم يميلون



### الأكثر أهمية من أن نتساءل، كيف يؤثر العنف الفلسطيني على الرأي العام الإسرائيلي؟ هو السؤال، كيف يؤثر هذا العنف على القادة الإسرائيليين؟

كان يحاول هو ورفاقه مساعدتهم. ويرز شولان كحالهم قدير في الشعر التأملي والتفويجي والستسكريتي، وفي اللغويات المرافيقية، الموسيقى الكاماتية والإسلام التاميلي، كانت اهتماماته اللغوية والثقافية مركزة أساسا على الهند الجنوبية. وفي عام ١٩٨٧ عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره، حاز على زمالة ماك آرثر. لقد قام بنشر العديد من الشعر الهندي المترجم. إن لغة شولان في يومياته لغة متعمقة وغير ملوثة بالكليشيات المكررة التي تستخدم في وصف الصراع بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب. ويعتبر شولان بتكوينه ومهنته عالما وليس سياسيا، وإذا استعنا بكلمات أودين عن بيتس، فستطيع القول بأن إسرائيل المجنونة قبل أدته ودفعته لتسياسة.

ويمكننا التساؤل عن نوع تلك المياسة. إن دراسة شولان للهند وثقافتها تتم عن أن ميسته - إذا كان هناك مصطلح لذلك - مأخوذة من غاندي. لقد كتب قائلا، نحن نتبع العرف التقليدي للعصيان المدني على خطي غاندي، ثورو ومارتن لوتر كينج. هذا يقللنا لسؤال أكبر: هل كان ذلك أفضل لطرفي الصراع لو تم تنفيذ التضال الفلسطيني بروح غاندي للمقاومة السلمية؟ يمكننا أن نناقش هذا الموضوع من منطلق أخلاقي، ولكننا أيضا يمكن أن نناقشه على أساس عملي وتكتيكي.

إن ذلك ليس بالجديد. في بداية الانتفاضة الأولى، في عام ١٩٨٨ قامت إسرائيل بطرد مبارك عوض طبيب علم نفس الأطفال الفلسطيني الأمريكي الذي دافع ومطالب بتكتيكات غاندي في مقاومة الاحتلال. وبعث في الحال

Dark Hope: Working for Peace in Israel and Palestine  
(الأمل الأسود: العمل من أجل السلام في إسرائيل وفلسطين)  
by: David Shulman  
University of Chicago Press,  
226pp., \$22.00

بترتيب مع  
New York Review of Books

ترجمة. ميسون شعث

فيما بعد أثناء عمله بالصفة العربية. وكان الطلب على مهاراته الإسهافية وكذلك على حقيقته الطبية التي كان يحملها دائما معه، متساويا بين الرفقاء الإسرائيليين والفلاحين الفلسطينيين المصابين من قبل المستوطنين أو الحنود أو الشرطة.

دخل شولان الجامعة العبرية في القدس وهناك تعلم بالإضافة إلى عدة لغات، اللغة العربية التي اتقنها جيدا، وكان هذا أيضا عاملا مساعدا ومهيئا عند التعامل مع الفلسطينيين الذين



## ما نوع هذا الإنسان الذي يسمم قطيماً بأكله ومن خلال تلك الجريمة يقتل مجتمعاً من الناس يعيشون من وراء هذا القطيع؟



لجنة البحث عن الكثر الغريبة هذه هو اقتفاء أثر الخطوات المخفية لأوضاع السم: كوم من الجيوب مجيد، حسب الخطيرة، أن يقولوا إلى آخر وهذا ما حدث بالفعل.

ثم لاحظ شولان أن طوال الوقت كان هناك على التل المقابل، مباشرة تحت المستوطنة أحد هؤلاء المستوطنين ممسكاً ببندقية يراقبنا ويتقدم، كلما تحركنا، وكان مرتدياً الأسود، له حصوص يتنفسه، دارت فادر (إسرائيل). إلى أعلى كان هناك أيضاً مجموعة من عربات الجيب الحربية تقف في مكانها. ربما هذه المرة، على الأقل، سيمسكون المستوطنين من الهجوم علينا.

ناراً ما يبدى شولان ملاحظات عامة، إنه يقرب من المجدول والمحمض ويتبعد عن الرمز. ولكن ليس هذه المرة، وما هو تفسيره؟

إنني دائما أكبره الرموز: إنها أرخص وأكثر أعمال العقل كذبا وخداعا، وهي بعيدة جدا عن أي شيء حقيقي. ولكن اليوم، وأنا أدخل التربة الرطبة، نبية اللون تحت أنف المستوطنين لم أستطع أن أراقم الشعور بأن شيئا ما رمزي لدرجة قطعة (المستوطنون) يدعون أن لديهم شعورا خاصا لهذه الأرض، ولكنهم يتعاملون معها باحتقان، إنهم غالبا ما يهتمون بأرضهم كشيء يقتصده يذهب ويذهب مع أصحابها الشرعيين بواسطة قوة وحشية، إن تلك الصورة الطبيعية الخلابة الساحرة ملك سائكي الكهوف.

هذه القضية ليست مجرد مسألة ظلم، بالرغم من أن الظلم المصطب يصرخ دون أي شك في كل مكان. وهي أيضا ليست موضوع جنون بالرغم من أن المستوطنين هنا متموهون بحق، إنها جريمة مروعة وخطيرة بكل معنى الكلمة: إنها جريمة ضد الأرض التي يسميها المستوطنون بعبقوية شديدة بالقدسة، إنها جريمة ضد الحياة نفسها. من هو الإنسان أو الفرد الذي يسم غزالا برياً عن عمد، ما هو نوع هذا الإنسان الذي يسمم قطيماً بأكله ومن خلال تلك الجريمة يقتل مجتمعاً من الناس يعيشون من وراء هذا القطيع؟

قصة شولان تحتاج إلى خلفية قد نجدتها في تقارير لجنة حقوق الإنسان

٢٠٠٥ بالقرب من مستوطنة جنوب تلل الخليل حيث يعيش الفلسطينيون في كهوف ويرعون أغنامهم:

يبدأ ذلك منذ أسبوعين عندما لاحظ الفلسطينيون من قرية طوانية مستوطنا. شبه أكيد من شيفات ماون أكثر المستوطنات قبسة في المنطقة. يسير متمعداً في حقلهم في الصباح الباكر، وبعد فترة قصيرة مرضت الأغنام ومات أول خروف. بعد ذلك وجد الرعاة السم متكوراً على الجبال، عبارة عن كرات من الشعير ررقاء وخضراء صغيرة مغلفة بطبقة من سم فئران قاتل مسن عائلة الفلوروازاسيتين. وكان الهدف واضحاً: قتل قطع الأغنام والماعز، الجزء الأساسي في اقتصاد ساكني الكهوف في هذه الأرض الجافة لإجبارهم على الخروج من الأرض.



بعد زيارة المستوطنة العربية كتب شولان: بعد نصف ساعة بدأت التسام: إذا كنا قد جئنا بدون فائدة. وأخذت أمعن النظر في الأرض الصخرية، في الزهور البرية بنفسجية اللون، في الأشواك وفي الزهور الطرى للتم، مازال لا وجود للسم. ثم ظهرت المفاجأة: بعد الحناء كبيرة ووجهي يكاد يلمس التربة رأيت اثنين. لا شكاً. من حبوب الشعير الزرقاء/خضراء المسومة.

بعد خمس دقائق استخرجت جودي (رفيقتي) ذهبا - محباً كبير ممتلئ بهم... وكان الفن الحقيقي في

في جيش مصمم على الأفعال غير الشرعية.

ينادي شولان بالطريق الفاندية على أساس أخلاقي وريما أيضاً على أساس عملي، والكثير من نشاطاته كان سيئاً لرضاء المهاتما غاندي. ولكن في رأي أنه كان يحاول أن يفعل شيئاً يمكن رؤيته كجزء من الصراع العلمي للتخفيف من أعباء الاحتلال. شولان هو شاهد أخلاقي - ويقوم بمجهود للرباب ويروى المعاناة الناجمة عن تصرفات شريرة. قد يخاطر بنفسه وهو يقوم بذلك ولكنه يفعل ذلك من أجل هدف أخلاقي: وهو فضح الشر الذي يقوم به نظام يحاول أن يغطى على أفعاله غير الأخلاقية. هو شاهد أخلاقي يعمل مع شعور من الأمل، يوجد أو سوف يوجد مجتمع أخلاقي شهداته تمنى له الكثير.

هناك تصارب لدى شولان بالنسبة لهذه الآمال. إن العنوان الأصلي للمیری كتابه ليس الأمل الأسود ولكن الأمل المر. مدح القديس بولس إبراهيم، المر الأعظم على أنه "هو ضد الأمل يؤمن بالأمل، أصعب الكلمة الروسية نادوزا (أمل بالعلية الروسية) ما نلستام بوصف القديس بولس وأطلقت على كتابها الأول الذي يدور حول الاضطهاد في روسيا أثناء حكم ستالين عنوان أمل ضد أمل. ولكن عنوان كتابها الثاني الأمل المهجور ليس ما عوداً من القديس بولس ولكن كتاب دانتى الجحيم. ولكن وصف شولان يبدو لي وكأنه يتأرجح بين الاثنين: بين أن أمل ضد الأمل وبين الأمل والأمل المهجور.

يبدأ شولان بقصة غير شخصية تصب ما حدث في الثاني من أبريل عام

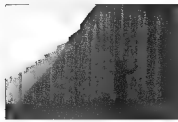
المقاومة السلمية؟ لا أظن ذلك؛ لكي نقيم استراتيجيات سلمية لا يجب أن نبقار مرحلة مليئة بالعنف بمرحلة أخرى لا تحدث فيها أي هجمات عنيفة. يجب أن نقارن، إذا كان ذلك ممكناً، مرحلة مقاومة عنيفة بمرحلة مقاومة سلمية نشيطة. ولكن الأكثر أهمية من أن نتساءل كيف يؤثر العنف الفلسطيني على الرأي العام الإسرائيلي هو السؤال كيف يؤثر هذا العنف على القادة الإسرائيليين: وانطباعي هو - وهو لا يزيد على كونه انطباعاً - أنه نجد أي قائد بارز سواء كان من يسار الوسط أو يمين الوسط مستعداً لتقديم مثل هذه التنازلات الهامة للفلسطينيين أثناء هترات العنف هذه حتى لا ينظر إليه كشخصية ضعيفة. (شارون وهو استثناء، استطاع أن يصبح من غزة محتفظاً بشعبيته). والسؤال الحقيقي الذي في رأيي يبقى سؤالاً مفتوحاً، هو كيف يؤثر العنف الفلسطيني على سياسات إسرائيل في اتجاه تسوية سلمية. إن تأثير العنف الفلسطيني على السياسة الحربية الإسرائيلية واضح. أثناء الانتفاضة الثانية أثار العنف الفلسطيني رداً حروبياً عنيفاً من الجانب الإسرائيلي، نتج عنه تدمير المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية.

بالنسبة للقضية الأخلاقية للصراع العنيف، يستشهد شولان بموردوخي كريسمنز وهو أستاذ قانون في الجامعة العبرية ويعتبره نخب الاثنين قوة أخلاقية في إسرائيل

حتى لو وضعت بقراءة الفلسطينية لا حدث في كأم فيعيد واقرضت أن المقترحات الإسرائيلية غير كاهية. ولكن من المستحيل القبول بالعنف الذي يتباه الفلسطينيون كسلح وهم مازالوا يواجهون الشرير الإسرائيلي الذي يريد الوصول إلى حل، ما لا يريد الفلسطينيون ليس واصحاً - إذا لا تكون هناك (أي لا يجب أن نحيا أبداً) في الأراضي أو نحن لا يجب أن نكون من حقهم أن يتهاوا الاحتلال. لكن ليس بأي شيء. لكن هذا العنف الإسرائيلي يستخدم العنف الفلسطيني لمصلحته. لذلك وفي أسوأ الأحوال قد نجد انتمنا في موقف متناقض ومدمر للنفس وهو الخدمة

ينادي شولان باعتماد الفاندية على أساس عملي، والكثير من رويما أيضاً على أساس عملي، والكثير من نشاطاته كان سسينال رضاء المهاتما غاندي





أعضاؤه أكثر جسارة من أبنائهم وأكثر استعدادا لتحدي القوانين وقادروا بشدة على التعامل مع الفلسطينيين دون أدنى اعتبار لأي قانون إنه جيل مشبع بعنادية شديدة تجاه العرب، إنه جيل ذو عصبية قبلية شرسة. ويصعب شولان مقابلاته مع المستوطنين الشباب المتعصبين الذين سخروا منه.

في هذه اللحظة كان المستوطنون فوقنا، جميعا في العشرينيات من العمر مرتدين الطاقية المزركشة على رؤوسهم بصحلات شعرهم المنثوية وباندهم، «صرخوا» في وجوهنا قائلين، يجب أن نتحدا من أنفسكم، أي صنف من اليهود أنشأ؟ مصيفا وعاضبا صرخت ردا عليهم: أنا يهودي ولها أنا هنا.

لا يبدو أن هناك أي أمل بأن نفهم هؤلاء الشباب ما يحاول شولان أن يفعله. في يوم مبلل ومليء بالزحمة على أيام يناير الباردة، كان شولان وأصدقاؤه في طريقهم لإحضار طابطين لساكني الكهوف، حاول المستوطنون معهم، «وصاح أحد الرجال قائلا: إننا نعمل منذ ثلاثين... وصمموا على عدم وصول الطابطين إلى مكان الكهوف، إن ما قاله الرجل بأننا من بن لادن لم يكن يبدى ملاحظة سياسية مثلما يمكن أن نتوقع من ديك تشيني، ولكنه كان يصبر عن وجهة نظره قبلية متعصبة. بالنسبة لهؤلاء الناس وخصوصا الشباب منهم، يعتبر إمداد سكان الكهوف بالبطاطين مساعدة وراحة لعنو مهيت لقبيلتهم، لناس يعولون مع بن لادن.

إن معظم ما كتبت عن المستوطنين الذين تحشم أيديولوجيتهم كان يخص الجيل المؤسس. كانوا يعبرون عن أنفسهم بموضوع أكثر وأصعرا نصوصا من الممكن الاستشهاد بها. ولكن أصبح الجيل الأكبر الذي رزأ المستوطنين غير مهم بالنسبة للواقع اليومي في الأراضي المحتلة. وبعد إجملاء المستوطنات من غزة عام ٢٠٠٥، واتهام الجيل الأصغر من المستوطنين جيل المستوطنين القدامى وكذلك الإسرائيليين عامة بالحين، فقد قادة المستوطنات الكبار قبيلتهم إن إسرائيل بالنسبة لجيل المستوطنين الشباب

## المستوطنون مدعومون بما يسمى «الألة المعقدة» وهو اصطلاح يعنى الجيش والشرطة والسلطات المدنية التي تدير الضفة الغربية

فارم عادوا إلى المنطقة المغلقة دون اعتراض من السلطات الإسرائيلية التي ودوى ذكر للأسلحة الحية التي ستكون خطرا عليهم.

أول وهلة، قد تبدو قصة سكان الكهوف في الوقت الحالي قصة صغيرة نسبيا أو قارناها مثلا بما يتوله لنا شولان من الجدار الفاصل الذي أثر بطريقة كارثية على حياة الفلسطينيين في المناطق الأكثر ازدحاما بالناس في الضفة الغربية أو في القدس حيث تنكشف الدراما الرئيسية للصراع. تلال جنوب الخليل، حيث مسرح التسمم، منطقة قليلة السكان ويعمية عن الأحداث الرئيسية، ولكن ما يحدث في تلال جنوب الخليل يظهر بشكل صارخ وقاس سوء الاحتلال. قد تكون بعض أعمال المستوطنين الإسرائيليين غامضة أخلاقيا، ولكن ما رآه شولان على تلال جنوب الخليل يدفعه لاستعمال كلمة «الشر» بسخاء:



إن ما تناقلته في تلال جنوب الخليل هو شر أدمي خالص ونقي، ومحصن جنون. لا شيء غير الحقد الذي يتقود هذه العملية لا تتزاع بصممة آلاف من سكان الكهوف مع أطفالهم ونفوسهم من أرواحهم. لقد علموا أحدا ولم يشكلوا أحدا تهديدا للأمن. لقد عاشوا حياة هادئة فقيرة إلى حد ما حتى جاء هؤلاء المستوطنون، ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك سلام. كانوا معديين، مرعوبين وغير مصنفين مثلنا تماما.

وبين شولان أن المستوطنين مدعومون بما يسمى «الألة المعقدة» وهو اصطلاح يستخدمه لوصف المؤسسات الحكومية الإسرائيلية المتعددة، بما فيها الجيش والشرطة والسلطات المدنية التي تدير الضفة الغربية. ولكن العلاقات بين هذه المؤسسات معقدة لدرجة أصبح غير واضح من المستولن من أي سياسة أو عمل. حاجاي عاون وهو مسئول إسرائيلي لم تعينه من قبل وزير الدفاع الأسبق ليكون مسدولا في التنسج الاجتماعي، في الأراضي، صرح أن الجيش لا يلتزم بأوامر وزير الدفاع، وبالإشارة إلى منطقة تلال

الإسرائيلية يتسيلم في شهر يوليو ٢٠٠٥. يحدث أن عساف شارو، وهو أحد طلابي وحاليا قد تخرج من جامعة سنانمور، قد شارك في العديد من النشاطات التي يصفها شولان، وقد ذكر في هذا الكتاب مثل باهى «الرفاق» باسمه الأول فقط. عساف الذي دوى في شبابه في شيفغ وبخرب من الخليل كان مرافقا لأدعا ويختلف عن شولان كونه على معرفة حميمة بالمستوطنين بمن فيهم الأجيال الأصغر عمرا. ويخبرنا عساف أن أكثر من ألف فلسطيني يقطنون في جنوب الضفة الغربية جنوب شرق بطه، البلدة الرئيسية في تلك المنطقة، على مساحة ٧٥٠٠ دونم. بعض سكان المنطقة يقطنون هذه المنطقة فقط أثناء مواسم الزراعة والعماد، وبعضهم يعيش هناك طوال العام. الجاه في تلك المنطقة شحيحة ويعتمد سكان الجبال على الخزانات المحلية بدرجة كبيرة.

في عام ١٩٩٠، أعلنت إسرائيل أن جزءا من منطقة بطه هو منطقة حربية مغلقة، وفي عام ١٩٨٠، أقامت إسرائيل بالقرى من هذه المنطقة المغلقة أربع مستوطنات يقطن فيها الآن نحو أربع مئتين مستوطن. وما بين ١٩٩٠ و٢٠٠١ أقام هؤلاء المستوطنون أربعة مخافر إضافية، وهي مخيمات صغيرة مسلحة، قبل إنها ضرورية لحماية المستوطنات الأكبر. كما تبث إقامة مخفر حامي، ما عاون فارم، داخل المنطقة التي قالت قوات الاحتلال أنه غير مسموح ببناء مستوطنات فيها. وبالتالي أخلى العيش الإسرائيلي منطقة ما عاون فارم من المستوطنين لبعة أشهر. ولكنهم سرعان ما عادوا. وقبل أن يتم ذلك، كان قد قام الجيش أيضا بطرد سكان الكهوف الفلسطينيين بالقوة من المنطقة المغلقة، بعد أن حطم أبارهم وسد كيوفهم وصادر ممتلكاتهم البسيطة المكونة من البطاطين والطعام. وقد أمر الجيش الخطر من الأرض بحجة أنه «احتياج عسكري ضروري»، تحديدا «الحاجة إلى منطقة للتدريب سوف يستخدم فيها الأسلحة الحديثة» وبالتالي سيترسخ كل من يقطن هناك إلى الخطر. ولكن مستوطنين ما عاون



## جلبت الانتفاضة الثانية معها تغييرا راديكاليا لدى العديد من نشطاء السلام الذين أصبحوا متشككين في إمكانية تحقيق السلام



تنازلات في العرق. الآن ما يناقش هو مشروع جديد عظيم، الشرق الأوسط ودول أخرى يقصد في تقويمه في انابوليس بولاية ميرلاند. والأمل في أن يوافق رئيس الوزراء اليهودي أوريث والرئيس الفلسطيني أبو مازن على مبادئ لتسوية الصراع. ولكن أبو مازن بناء على التقارير يريد الاتفاق أن يكون مبددا. ولكن أوريث يريد مبدئا، والسؤال هو هل يستطيعون الوصول إلى تسوية؟ سوف يناقش المؤتمر القضايا الجوهرية بين الطرفين: القدس، اللاجئين والأراضي، الرجلان في حاجة ماسة إلى اتفاق حتى يظهر للمعالم أنهم ما زالوا متأسبين سياسيا. الكثير يؤمن بأنه لا بد لأي صفقة أن تنهار حتى لو التوقيع عليها. التوقعات ضعيفة سياسيا لدرجة أنه لا يهيم ماذا اتفقا عليه. على العموم مازال الوقت مبكرا لإلغاء إمكانية ظهور شيء مفيد من مؤتمر كهذا. ولكن الموضوع ببساطة، يجب على اليهود والعرب أن يتعاملوا مع ثلاث حالات: الحرب، السلام، وعملية السلام. وهي عملية لا تقود إلى السلام، ولكنها تؤدي إلى مرحلة متوسطة من السلام والأحزاب. ولكن ننظر إلى المفاوضات بين أوريث وأبو مازن بطريقة واقعية، نرى أنهم يستطيعون القيام بخطوة تنقل الموقف من مرحلة العداء المعلن (الحرب) إلى مرحلة متوسطة هي عملية السلام.

ومن ناحية أخرى، تعطينا يوميات شولان إحساسا حادا بالفجوة بين مخططات السلام في مرحلة عملية السلام، وبين الواقع الرهيب القاسي على الأرض. إن الواقع لا يشكل بالانفصاف ولكن في الأساس يشكل بالأعمال العنيفة لآلة إسرائيل المعقدة.



تعطينا اليوميات لمحة فقط من بعض أعمال الآلة المعقدة، ولكني أومن بأن استيعاب وفهم ما يحدث في تلال جنوب الخليل. وهي جزء صغير جدا من الصراع، يمكن أن يحررونا من الاعتقاد الخاطئ عن طريقة عمل الآلة المعقدة. هناك عدد قليل نسبيا

كان بيني عبر ملعب كرة القدم في حرم جامعة القدس. سأل شولان نفسه إذا كان بناء الجدار عبر ملعب كرة القدم يستحق غناء الاحتجاج. كتب قائلا: إن فقدان بضعة دوات من أرض الجامعة شيء ضال، بالنسبة للأعمال الأخرى التي دمرت حياة الفلسطينيين. ولكنه قرر، نعم، إنه يستحق أن كل نصر صغير يصيب، إن تشبيه ويؤدي بهم زملاؤنا وأصدقائنا. لا نستطيع أن نقف موقف المتفرج. في الواقع حقق المؤيدون نصرا صغيرا في جامعة القدس، قمت بإزالة الجدار من ملاعب الجامعة بعد أن استطاع نسيبه إقناع بعض الإسرائيليين بمناشدة كوداليزا رايس التي طلبت بدورها من الحكومة الإسرائيلية وقف بناء الجدار. عالما من القدس يصبحية المحتجين من منظمة السلام الآن قال شولان:

سرح عقلي بعيدا عن الحنة البسيطة نسبيا التي يشعر بها زملائي وأصدقائي في جامعة القدس. بعيدا عن المناقشات السياسية المحددة في السيارة. هناك كلام عن مبادرة جديدة، لقد تم التوقيع على وثيقة من قبل شخصيات عامة من الجانبين تحدد أساسا لتسوية متفقا عليها للصراع - مبادرة جنيف... كنت أستمع بدون حماس وانتهاء يخلق بعيدا. كنت واحدا من هؤلاء الذين كانوا في السيارة، كم تبادلنا الحديث عن خطط سلام مكتملة والعمل على إيجاد حل سياسي من خلال سياسات حزبية، عن الحصول على أصوات الناخبين، عن تشكيل تحالفات وعن تقديم

جيشي، الذين كانوا يؤيدون عملية السلام. كان لهم أبطالهم أيضا ومنعهم عزرا ناوي، وهو سيك من أصل يهودي عراقي من القدس، وكان سكان الكهوف معجبين جدا به. لقد نظم لأنفائهم مسكرا صغريا وأخذهم لأول مرة في حياتهم إلى حمام السباحة في أريحا. وكان دائما يتعرض لصياح ساخر ويمض من قبل المستوطنين. إن شخصية عزرا المافنة والخفيفة الظل كانت واضحة تماما لكل من عرفه وكل من شاهد الفيلم التسجيلي عن حياته. والآن وهو في الخمسين من عمره، هو يمثل رغبة النشطاء الإسرائيليين الشباب لعمل شيء ملموس حتى لو كان هذا يعني العمل محليا مع تجنب التطور في مقترحات السلام على نطاق واسع.



يستخدم شولان شعرا لتكمائه مكون من جملة قالها ناشط لحقوق الإنسان بريطاني - استرالي اسمه جيمس مودسلي: «الجميع هو أن يدرك الإنسان أنه لم يساعد عندما كان قادرا على المساعدة». وهو لا يشعر براحة مع خطط طموحة للسلام، ولقد أوضح وجهة نظره عندما قابل منذ عدة سنوات ماضية في القدس بعض أعضاء السلام الآن المناصرة ماري نسيبة رئيس جامعة القدس في أبو ديس، بالقرب من القدس، في احتجاجه ضد الجدار العازل الذي

حقائق بعيدة المنال ووجود يجب مواجهته عندما لا يسير في طريقه. إن جيل الشباب من المستوطنين المتواجدين على تلال جنوب الخليل هم نموذج قوى ودال على ما هو عليه الجيل الثاني من المستوطنين. لقد نجحوا في الواقع في جعل أبايهم متطرفين (راديكاليا) لستة مستبدين الآن لمواجهة الجيش والشريعة بطريقة لم يكونوا ليحرموا أن يقوموا بأعمال مثلها من قبل لأسباب عقلانية. إن سبب الخيال الجامع لحيل الشيا هو «الثورة» جزء منه يعود للأفلام السينمائية الخاصة بحرب أمريكا، فانت تراهم يمتصون الجياه وهم في لباس إرزاوي، يستقرون إلهامهم من شخصيات ساحرة تشبه سيرجيو ليوني مثل يهوشافات تور ودوف درين مؤسس ماضو فارم. وقد قتل درين الذي استمر في تهديد سكان الكهوف الفلسطينيين المجاورين دون انقطاع. وتم الإخراج من الخشوي الذي أتهم بقتله لعدم كفاية الأدلة بعد أن قضى أربع سنوات في السجن. وقد اعتبر معجوب دوف درين مقتله رخصة للتهور والجموح. وعلى تلال جنوب الخليل مكان الآن يحمل أسماء مناسبة وهو «مزرعة التيشمان». صاحب هذه المزرعة يدعى ياكوف تاليا. وكان من الأفريكان في جنوب أفريقيا واعتنق اليهودية في نهاية حكم التمييز العنصري هناك. ياكوف تاليا يمثل أيضا الشخصية المشهورة الساحرة والقاسية التي تجذب العديد من الشباب المتدين. يقصى هؤلاء الشباب وقتنا طويلا في ممرعته لمساعدته في الاستيلاء على أرض أكثر فأكثر.

جلبت الانتفاضة الثانية معها في بداية ٢٠٠٠ تغييرا راديكاليا ليس فقط في المستوطنين الشباب ولكن في العديد من نشطاء السلام الشباب الذين أصبحوا متشككين نسبية من أي مخطط وهمي كبير للوصول إلى السلام. أراد نشطاء السلام الشباب عمل شيء ملموس حتى لو كان ذلك هدفا محدودا. ليس لأن ذلك سيكون له تأثير قوى، ولكن لأن ذلك هو الشيء السليم الذي يتعين عمله. ومن خبرتي الخاصة أعلم أنهم كانوا يهرفون الفلسطينيين في الضفة العربية أكثر من النشطاء من



## إن الواقع لا يشكل بالاتفاقات ولكن في الأساس يشكل بالأعمال العنيفة لآلة إسرائيل المعقدة



## كتاب الزاوية



### غزة لن تقول نعم للغزة

محمود درويش

من جمال غزة، أن أصواتنا لا تسدل إلينا، لا شيء يشغلها، لا شيء يدير قبضتها عن وجه العدو. لا شكل الحكم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر، أو على الجانب الغربي من المريح حين يتم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعد في المجلس الوطني. لا شيء يشغلها، إنها متكية على الرفض.. الجوع والرفض. العطش والرفض. التشرد والرفض. التعذيب والرفض. الحصار والرفض. الموت والرفض.

قد ينتصر الأعداء على غزة (قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة).

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها..

قد يزرعون الدبابات في أحشاء أطفالها ونسائها، وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزة: نعم.

وستستمر في الانفجار.

لا هو موت، ولا هو انتحار. ولكنه أسلوب غزة في

إعلان جدارتها بالحياة.

الضفة الغربية يتجاهلون تعقيد هذه الآلة. أن زيادة عدد السكان لا يمثل عاملاً أساسياً. في الواقع إن الزيادة الكبيرة في عدد السكان في السنوات الأخيرة جاءت في أربع مدن تقليدية جداً وهي غير بعيدة عن الخط الأخضر. إن عدد السكان في هذه المدن الأربع يصل تقريبا إلى ثلث عدد المستوطنين في الضفة الغربية. ومن الواضح أن ما هو أهم من زيادة عدد المستوطنين هو زيادة عدد المراكز والمخاطر وطرفهم المتناكبة.

تستمر الآلة المعقدة في العمل دون كلل. لا يهم أبدا من هو الحزب الحاكم. حكومات الوسط والعمل تؤمن بأن هناك الكثير من المشاхات السياسية والعسكرية لتشكيل المستوطنات وأحدة تلو الأخرى، ويقولون إنه سيتم التعامل مع هذه المستوطنات يوما ما بالجملة. مثلما تعامل شارون بمستوطنات غزة الذي تم إغلاؤها في وقت واحد. أما حكومات الليكود في المقابل فهي ترفض تماما إزالة المستوطنات لأي سبب. وتشترك جميع حكومات إسرائيل في رؤيتهم بأنه يجب على الجيش حماية المستوطنين، سواء كانوا مفوضين أو غير مفوضين. وبالتالي تعمل الآلة المعقدة دائما بغض النظر عن من يحكم، مستغفية من هذا الرأي المشترك.

لا يمكن لأي فلسطيني أن يؤمن في مخطط عظيم لتسوية نهائية طالما ظلت حياتهم مهانة بهذا الشكل. ولقد أعلنت حماس انطلاقا من مبادئها رفضها لأي مخطط واسع المدى لتسوية سلمية مع إسرائيل؛ ولكن القضية التي يجب أن نواجهها هي عدم الثقة التامة في أي مخطط واسع النطاق من جانب فلسطينيين لا يتمتعون إلى حماس ويريرون العيش في سلام. ولتضييق الهوة بين المخططات الكبيرة والواقع على الأرض، يجب أن نوقف هذه الآلة المعقدة. يجب أن نحسن الحياة اليومية بجديّة إذا أردنا أن يثق أحد في هذه المخططات العظيمة. ولكن نقترح أن هذا سوف يحدث، فذلك يتطلب قدراً كبيراً من الإيمان. إيمان من النوع الذي يجعل رجلاً مثل فايد شولان مستمرا في محاولاته في مساعدة الفلسطينيين بينما هو لا يثق في المخططات العظيمة. ■

من المستوطنين حول الخليل وعدد أقل كثيرا في المخافر التي تم بناؤها هناك ولا ينتظر أن يزيد عددهم بطريقة متعاطفة. مع ذلك، فالآلة الإسرائيلية الرسمية لها تأثيرها المتصلب. فهي تسيطر على الأرض وتتخلص من الفلسطينيين الذين يعيشون عليها بأن تجعل حياتهم جيماً لا يحتمل. لا تعتمد الآلة المعقدة على عدد المستوطنين، ولكن كانت تعتمد أكثر على كيفية تصميم وبناء الطرق المؤدية إلى المستوطنات والمخافر وعلى طريقة حمايتها من قبل القوات الإسرائيلية.

في الواقع إن أغلب المخاطر في الضفة الغربية لا تزيد على كونها قري صغيرة جداً، ولكن هذا أيضا غير مهم لأن الطرق المؤدية إليهم هي طرق حسب البيانات الرسمية يجب أن تكون تحت الحماية الدائمة، وذلك لتأكد من توفير الحماية للسكان حتى لو كانوا أسرة أو أسرتين. وكلما قل عدد المستوطنين كلما أصبحوا أكثر عرضة للخطر وبالتالي يجب تكثيف الحماية عليهم. والحماية أي طريق يعني منع الفلسطينيين من الاقتراب من جانبيه وبالتالي تقوم السلطات الإسرائيلية بتكثيف حركتهم بإقامة حواجز على الطرق المسموح لهم باستخدامها، هناك ٢٩ حاجزاً للحركة في الضفة الغربية، منهم ٨٦ حاجزاً تفتيش.

هكذا تستخدم الطرق لتقليل الضفة الغربية لعدم السماح للحرب بالحركة ولتجسدهم في أراضيهم. وبالإضافة إلى ذلك، يحاط كل مخفر وكل مستوطنة بمنطقة أمن تسمى «منطقة أمنية خاصة». وكما نرى أن التوسع في السيطرة على الضفة الغربية لا يحددها عدد المستوطنين ولكن يحددها مدى منطقة الحماية التي يستثنى منها الفلسطينيون.

إليك كيف يعمل هذا النظام. أولا يتم بناء المستوطنة مع تخصيص منطقة لها لتطويرها في المستقبل وكذلك يخصص لها منطقة واسعة للحماية. ثم يتم إنشاء مراكز للقمص الصناعي على التلال في أطراف المستوطنة. هذه المراكز توسع المنطقة التي يجب حمايتها وخاصة الطرق التي تؤدي إلى هذه المراكز. إن الحلقين الذين يؤكدون تنامي أعداد المستوطنين في

# الوعد الرابع!!



كلينتون وعمرات ورايين - أحلام سلام لم يتحقق

من الصعب على القارئ ترك القصص المثيرة دون أن يفرغ منها. يكفى أن ميلر كان هو، ضاملاً السيطرة، وفقاً لما ورد في كتابه المختص بمرافقة ومتابعة الرئيس ياسر عرفات في أعقاب عملية أوسلو. ولم يعتمد ميلر على الروايات التي عاصرها ولكنه أجرى أكثر من ١٦٠ مقابلة مع جميع من شاركوا في محادثات السلام في الأعوام الثلاثين الماضية.

يقول ميلر إن تلك هي قصتي الثانية مع ربع قرن من السعي وراء السلام. رحلة محلل ومؤرخ وديبلوماسي ومفاوض ملينة لها إنجازات لكنها رحلة ممعنة لأنه ليست هناك سعادة تشوق وهو الجلبوعاسى أو المفاوضات الذي يشعر الفاشية ودوره في صنع التاريخ خاصة لو كان تاريخها استثنائياً حيث الارتباط بالدفاع عن قضية دول الانخراط في خبرة فعلية تمسها ربما يكون أمراً محموقاً بالمخاطر بل ورايين في تلك القضايا الصعبة. يشير ميلر إلى البعد الشخصي، الذي يصل إلى الكشف الكامل، عما جال في خاطره وقلبه خلال انخراطه في المفاوضات بين العرب وإسرائيل التي تلاتين عاماً ويقول- في قصة لم يديرها في الكتاب ولكن في تعليقات لاحقة- إن لحظة التمرد الكبير أمام وضع المفاوضات الأمريكية لتبت على نحو جلى في يوم من أيام نوفمبر ١٩٩٦ عندما كان الوفدان العلميين برئاسة محمود عباس ومحمّد دحلان والإسرائيلي برئاسة وزير الدفاع إسحق مروخاني في جلسة تفاوض حاد

كيسنجر وكارتر وبيركر ويوش الأب والتي غابت في عهدي الرئيسين بيل كلينتون وجورج دبليو بوش؛ - ممارسة قدر من الشدة الحاسمة مع مختلف أطراف الصراع عندما يكون الأمر في حاجة إلى حسم عند مقترح طرق - السعي وراء كسب مصداقية من طرفي التفاوض حتى في الأوقات التي كانت المفاوضات تدر بأزمة شقة بسى انطراها

العملية على إنجاز هدف واحد محدد سلفاً باعتباره هدفاً وطنياً خالصاً يخدم المصلحة الأمريكية الحديثة النامة في التعامل مع عصر الزمن وتحديده أطر زمنية واضحة لإتحاز الهدف المحدد سلفاً.



جميع تلك العوامل السابقة غابت عن عملية صناعة السلام في مرحلة ما بعد مدريد التي يصفها السيد ميلر بأنها شهدت تحول العلاقة بين الولايات المتحدة من علاقة، خاصة، إلى علاقة استثنائية، تقوى المصلحة الوطنية للولايات المتحدة وفقاً لتعبير ميلر نفسه. ووصف الجرح أنقضى زنى القائد السابق للمنتمعة المركزية الأمريكية شهادة ميلر بأنها أكثر شهادت تحول العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والصراع الفلسطيني- الإسرائيلي وجهود الولايات المتحدة للتوسط في العملية المشاكلة، فيها أشار السناتور جورج ميتشل شهادة ميلر الحدة بأنها رؤية عميقة وصريحة تجعل

أو بمعنى آخر علاقة الحب التي يتقسو فيها المحبا أحياناً لحمايه الطرف الضار. يعطى ميلر في مؤلفه من دور أربع شخصيات هي هنري كيسنجر وجيمس بيكر ووزير الخارجية السابق والرئيس جيمي كارتر والرئيس الـ١٦ جورج بوش الأب حيث يرى أن كيسنجر نجح في دبلوماسيته فك الارتباط بين مصر وإسرائيل في عام ١٩٧٣ رغم ما صادفه من عراقيل كبرى، وجيمي كارتر عن جهوده في كامب ديفيد، فيما قدم بيكر ويوش الأب نموذجاً في إعدادهما المتنق المؤثر مدريد للسلام في أواخر عام ١٩٩١. ويرتكى ميلر في تحليله بجا حات الأزمات السافيتي في إخراج تقدم يصعب لهم إلى أربعة عوامل تشكل حدوداً فاصلة بين الصيغ الناجحة والأطروحات الفاشلة في مقاربات حل الصراع التي كانت سمة الأعوام الستة عشر الماضية. في المقابل يرى ميلر أن بيل كلينتون فشل رغم صدق النوايا نتيجة افتقاره الشدة والإصرار المطوئين لآي اتفاق سلام وهو ما تكرر فيما بعد في سنوات حكم جورج دبليو بوش. وبالنظر إلى ما بدله كلينتون في عهد في كامب ديفيد نجد كثير من الجهد هباء متفكراً نتيجة تبني كثير من المسؤولين في إدارته مواقف إسرائيل ووقوفهم في حانة معاصي إسرائيل، دون أن يدركوا أن المصلحة الخاصة التي تفرط من الولايات المتحدة وإسرائيل يمكن أن تستثمر في الاتجاه الصحيح وليس لممارسة التمتد ضد طرف لحساب آخر. يجد ميلر الخبير بمفاوضات الشرق أوسط وعامل وراء التناحرات التي وصل إليها

■ مشهد من شرفة فندق بمدينة القدس بعد غناء يوم طويل من التفاوض الصعب يتبادل آرون ديفيد ميلر المزاح مع رفيقه جمال حلال مسترحها تاريخ القدس فيقول ساخراً: «لأبد أن التناك صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلباين ويصمكتان مله شديقهما في قبريهما اليوم وهما يريان محاولتنا للتوصل إلى حل سلمى للقدس، المدينة التي أريقمت من أهلها دماً كثيرة جداً»



على خلاف الشهادات والمذكرات التي ألفها سياسيون أمريكيون بعد خروجهم من مناصبهم في السنوات الأخيرة، يخرج الباحث آرون ديفيد ميلر عن المألوف من الكتابات الأمريكية فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي ليقدّم صورة مناقصة للإخفاك الأمريكي في التحليل الأخير أن يصل من خلالها إلى تحليل آخر أن الولايات المتحدة قد منحت إسرائيل مهلة من مناصبهم وقتلت في دهمها (إلى الوفاء بالتزاماتها والقبول بمخيارات صعبة تلحق بالنتيجة ونهاية الصراع). ففي تعليق للراديو الوطني الأمريكي على كتاب آرون ديفيد ميلر قال أراهوون إن ميلر كان شاهداً على «الطبيب والشرس والقيح» في السياسات الأمريكية حيال الصراع العرس الإسرائيلي في مدى زمني يقارب نصف سنوات الصراع وشهادته اليوم مضاربة كاملة عن فقدان الرؤية الذي أصاب السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لعقدو شغل ميلر مناصب استشارية بالقرب من ستة من رؤساء الخارجية الأمريكيين منذ عام ١٩٧٨ وحتى عام ٢٠٠١، في محمل شهادة ميلر إلى الأمن القومي الأمريكي يحنأ إلى أب من مصالحه القومية اليوم في الشرق الأوسط التي نأعت في دروب الليبي والتدليل للمصديق الإسرائيلى- إسرائيل - التي لم تشارك الولايات المتحدة صده، القصود، التي تلحق لعلاقة يحنأ فيها طرف على مصالح طرف آخر

THE MUCH TOO PROMISED LAND  
America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace  
(الأرض الأكثر وعداً  
البحث الأمريكي المزاوغ عن السلام  
عربي - إسرائيل)  
Aaron David Miller  
Bantam, 407 pages, \$26.00





## أمريكا لا تملك رفاة ترك ساحة التفاوض بين العرب وإسرائيل دون تدخل منها



الحاضر- دروسا في أمل التوصل إلى تسويات عادلة في المستقبل، فهم كاس يتخيل في عام ١٩٧٧ أن يأتي يوم تسلم فيه مصر والأردن مع إسرائيل لتواليا اتفاقيات سلام شامل وهو ما يضمن يتحقق في المستقبل بين إسرائيل وسوريا ولبنان لو وجدت إرادة وقيادات سياسية قادرة على الاتحاد بقرارات مصيبة في الجاهلين العرب والإسرائيليين، وهما العاملين اللذان يؤمنان التقدم في المسارات المحتلة اليوم. إن أمريكا لا تملك رفاة ترك ساحة التفاوض بين العرب وإسرائيل أو الإقلاق عن صناعة السلام في الشرق الأوسط، كما أنها لا تملك الحق في التدخل من التزاماتها التي تطفعتها على نفسها أو حتى التمثل في النظر إلى المستقبل بالنظر إلى اتساع دوائر العنف أو استمرار الواقع في أسر الماضي، ويقرر المفاوضات الأمريكي الكبير أن الخبرة في الصراع العربي الإسرائيلي قد وفها لمتراكم طويلة في شرك أن استمرار الاتهام بالديبلوماسية الرامية إلى حل الصراع العربي-الإسرائيلي هو الطليقة الصريحة التي ستحمي المصالح الأمريكية لكن مسار العقد الأول من القرن الواحد والعشرين يثبت أن الوصايا المسمرة لا يمكن نفعها في العالمين العربي والإسلامي الذين يروجون بالتناقضات والتضاربات الطبقية بين الأثرياء والفقيرين وتغيب عن الديمقراطية الحقيقية التي تضمن مشاركة شعبية في اختيار الحكم بينما هناك المتطرفون الذين يتناصبون السياسات الأمريكية البعدا ويهددون مصالحها لغزو قادمة حيث التفسير في حل الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي لن يجتنب أمريكا الصدمات البترولية أو الهجمات الإبراهيمية أو خطر طوفان أنظمة راديكالية لتتسلق أسلحة نووية، في المقابل، الصراع العربي-الإسرائيلي أكثر أهمية اليوم للمصالح الوطنية ولأس الامتيازات المتحدة من أي وقت مضى منذ أواخر الأربعينيات حيث بدأ إسرائيل القوي الأمريكي أكثر ارتباطا بالأوضاع في الشرق الإسلامي والعربي وفي القلب منه الوضع، الولايات المتحدة أكثر عرضة للمخاطر من أي وقت مضى، علم تعد أفكار وطموحات وقلاقل الشعوب التي تبعد الأمل إلى الأمام الأمريكية يخصص هؤلاء الخبراء ودهم، وجميع القرارات الخاصة بوجود الدايكتاتورين واستمرار الأنظمة السلطوية والصمعية والتجبر الولايات المتحدة تقع اليوم في فخ حقيقي يهدد تقدمها جديدة على غرار هجمات

المسلمين في الراي العام الأمريكي الذين هم صرافى لنظرهم والمالاة والكرية للفر وكيف تتجمع كل تلك الخطوط لتسج صورة أقوى من أن يهزمها العرب الذين هم أعداء أنفسهم أيضا، ويصل الكتاب إلى خلاصة أن السياسات الداخلية للجماعات المتصارعة لإسرائيل تتوارى عندما يكون هناك إصرار على الإنجاز من قبل الرؤساء، وكينجر ووتش ويكر، والى الإستراتيجية الواضحة- على حد تعبير كينجر- في مقابلات الكتاب التي أوصلت أمريكا إلى لعب دور فعال في التسوية السلمية في فترات معينة

يشرح ميلر في الفصل الأخير تسلاوات عن مدى إمكانية الوصول إلى سلام بين إسرائيل تحت تأثير أوهام الفرصة الأخيرة التي تذكر عادة كلما سعت واشتغل على تحريك العمل السلام، وهو ما بدأ واضحا في تمرك الأخير الذي قام به الرئيس جورج دبليو بوش بعقد مؤتمر «الولايات المتحدة في أواخر عام ٢٠٠٢» الأخير وصمته وسائل الإعلام بمؤتمر الفرصة الأخيرة، لكن حقيقة الأمر هو نوع من خداع البصر الذي تمارس الأمريكيون عليه منذ أن انضخت الولايات المتحدة التقريبات بين الجانبين، ويقرر من التشكيك بحلول الإجابة عن تلك التساؤلات ويرى الحقيقة حقيقة في سلام نهائي لكنه يرى أن التقارب لنيل للأملات القصة ينفذ حجر عثرة أمام دور أمريكي حقيقي في التسوية فمن يجزأ على تقسيم القدس الشرعي على حملت كل أدوات الأديان السياسية بين جدرانها وشوارعها ويقول أن الفحص لا يمكن للأمركيين أن يتعاملوا معها على أنها شطيرة من الخبز أو فطيرة يمكن تقسيمها بيسر. الأمر ليس عن الحاضر وحده ولكنها حرب بعد التاريخ أيضا مثلما قال الكتاب وليام فولكنر الماضي لم يمت إنه ليس حتى حاضر، في الصراعات بينه الحيات التاريخية والمكررة والهوية والخوف الوجودي من التدمير هي المشكلات التي لا يمكن أن تحل على أي سحر أو لا يمكن أن تحل على الإطلاق كما أن هناك الصراعات لا تلج بمجرده وجود قوي عظمي إذ أن التواهي- المصافقة- من تجارب التفاوض- غير كافية، والقطيعة لا توجد فهي خارقة للطبيعة أو ما هي قوتها الطبيعية التقدم نحو السلام، ربما يجعله الماضي- لا

سيجبل من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس الذي سمي العلاقة بين إسرائيل واليهود والمسيحية الداخلية في الصراع العربي-الإسرائيلي الآخر، ويقول إن غرضه من المقال، الذي وضعه في فترة حصوص إسرائيل، هو تبيان أنه من الضروري أن يراعى «الوسطاء» مصالح الطرفين للتوصل إلى اتفاقيات وأن أمريكا واقعة تحت تأثير إسرائيل بشكل غير عادى، فمن تأثير السياسة الداخلية على العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل ودلت حوارات مطولة بين المؤلف وسياسيين بارزين في واشنطن لكن أطرف وأعمق ما يثير بشأن إنكار المنظمات اليهودية لتلك الصلة ما قاله أنثوني ليك مستشار الأمن القومي في عهد كلينتون الذي صاغ العلاقة بأنها مثل الجنس في العهد الميكثوري، لا أحد يتحدث عنه لكنه في حقيقة كل واحد، ومبادرة إبراهيم فوكسمان مدير إدارة مكافحة التشهير عن المجتمع اليهودي الأمريكي، جورد أن يمارس السلطة، لكننا لا نحب أن نتحدث الناس في هذا الأمر، هنا، ثير فوارق في النقاش حول دور كبرى جماعات الضغط لإسرائيل في الولايات المتحدة وهي لجنة الشؤون العامة الأمريكية-الإسرائيلية، إيبياك، التي يقول فريق أن نفوذها يتصغر على قوتية العلاقات بين البلدين ولا يتناسب نفوذها القوي على إدارة الديبلوماسية الأمريكية حيال الصراع العربي-الإسرائيلي حتى فترة تالدة تلك الجماعات عندما تطهر أي إدارة أمريكية التزاما بالتسوية السلمية وعندما يشتد صعب الإدارة تتحول العلاقة الخاصة إلى علاقة استثنائية تصير بالمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، وهناك عامل آخر في النزوح نحو توطيد العلاقة الاستثنائية وهو أن المجتمع الأمريكي يميل إلى التصديق ما يتدبر أن إسرائيل مجتمع ديمقراطي يمثال المبادئ والثل العليا التي قامت عليها الدولة الأمريكية ويتعبر شيوعيون يبرز، إليها القيم المشتركة التي تجسدها إسرائيل في الأعداء المتشركين، لكن الكتاب يبين، «إيبياك، قوية لكنها تحسر في حالة كثيرة فاقها استمعت عن المصالح الإسرائيلية مثلما حدث مع صفقة الأسلحة العمودية في عامي ١٩٧٨ و ١٩٨١ حيث لا يكسرت الكوربين بالصفوف الهائلة التي تزارها المنظمة من خلال رجالها في الكيبنول هيل عندما يصطدم ذلك بالمصالح المباشرة للأمريكيين لكن النفوذ واضح عندما يتصل الأمر بالمصالحات المتحدة لإسرائيل-الولايات المتحدة للسياست الإسرائيلية، كما يتطرق ميلر في سلسة واضحة إلى تأثير التفتيتات المسيحية الجديدة لإسرائيل والصورة الذهنية الراسخة عن العرب

وإسرائيل، فيقول إن إسرائيل قد حصلت على أربعة عقود في أرض فلسطين، الأولى الوعد التوراتي والثاني من قبل بريطانيا، والثالث من الأمم المتحدة بقرار التقسيم والوعد الرابع من أمريكا، وهو محور الكتاب وعصائه، حيث يذكر أن الحال وصلت إلى خلاصة مفادها، لا يمكنك أن تكون ناجحا في السياسة الأمريكية اليوم ما لم تكن تحمل توجهات إيجابية إزاء إسرائيل، لكن ميلر يؤكد أن الولايات المتحدة ما زالت قادرة على مياغة لمة سياسة جديدة لتدورها الوسيط بين الفلسطينيين وإسرائيل ليس من مبالغ الحياء، ولكن من مفس الموقف الراعي الذي يندد على العلاقة الخاصة بين واشنطن وتل أبيب وذلك باستغلال العلاقة الخاصة في الضغط الذي يصل إلى القصور لدفع إسرائيل إلى مسارات جديدة، القوة لا بد أن يصحبها شيخان أساسيان هما التظيم الكفافي والتعاظم الموصي والأقناع الأطراف بالتسوية، ويرى ميلر أن شيوعين يبرز زنده مسمومة أو دسا التي أثقوى زنتى في بدايات مهمته في الشرق الأوسط ما فادها أنه سيقابل ثلاثة صنوف من الشر، عربا وإسرائيليين، وهما، الصالحون (أو الزنقة الأخلاقية)، وهاد المجاذل، وحالو المشكلات ويؤمن إن ببرز كان مصيبا في تحليله لكس رأيه الشخصى أن الضمعية المتواضعة من الطرفين تحمل في داخلها السمات الثلاث السافطة بين هناك المحسمون، شدة تضامهم ثم يثقل الضمان أن تشد يؤدي إلى التفتت عن الهدف لا أنهم يجرعون أديانا بحلول عملية متناشبة وأن السياساريو الذي تكرر عن معظم الشخصيات التي صنفها ميلر في واقع الموضات من الصادات إلى عرفات وإلى حسين ومنه مباحين إلى شيوعين ببرز وأهود باراك وغيرهم ممن صاغوا صفحات من تاريخ الخط والصراع، الفصل الثالث من الفصل المتحدة لأنها تكشف عن العلاقة بين الديبلوماسية الأمريكية في الصراع العربي-الإسرائيلي وبين السياسات الداخلية في الولايات المتحدة ورغم كل ما سبق أن تناول تلك التزاوية في القرارات التي طالت دور الوري الإسرائيلي وجماعات المصالح الأخرى إلا أن ميلر يكتب جوانب خافية مثل رفض الرئيس بيل كلينتون مقارنته للتحذير بأن محذى هذا الكتاب لغضبه من مقال لمؤلفه بعنوان «مهامي إسرائيل، جريئة واشتغل بوسيت في مايو ١٩٧٠، كشف فيه عن المؤيدي لإسرائيل، على طول الخط وضارعه على المصالح الأمريكية وهو تجسيد لما يسميه البرفيسور ستيف

يوميّات عربية  
(1936 - 1948)



القاروقجي علي حصانه

## فوزى القاوقجي

### قائد جيش الإنقاذ

فوزى القاوقجي (١٨٩٠ - ١٩٧٧): ضابط سوري، ولد في طرابلس (في لبنان اليوم). درس في المدرسة الحربية في الأستانة (إسطنبول). وتخرج صابطاً في سلاح الخيالة العثمانية عام ١٩١٢. عمل في الموصل (العراق). وشارك في المارك ضد الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى في العراق ١٩١٤ و فلسطين ١٩١٦، لكن النقطة البارزة في حياته كانت توليه قيادة جيش الإنقاذ في فلسطين عام ١٩٤٧. ساعد الملك عبد العزيز آل سعود في تشكيل الجيش السعودي عام ١٩٢٨، ثم انضم إلى الملك فيصل في العراق في عام ١٩٣٢ ثم قام بتشكيل قوات متطوعة عربية توجه بها إلى فلسطين عام ١٩٣٦. تميز القاوقجي بشجاعته الفائدة وعروبته التي دفعته لخصم المارك ضد الاستعمار الأوروبي في مجمل المناطق العربية، ففي فلسطين شارك في ثورة ١٩٣٦ وفي العراق ساهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١.

قاد القاوقجي عدداً من المارك ضد الإمبراطورين، أهمها معركة المكيّة مع القوات السورية والبنانية في حزيران (يونيو) ١٩٤٨. قدم استقالته بعد اتفاقيات هدنة ١٩٤٩ بين العرب وإسرائيل. وعاش في دمشق ثم في بيروت بقية حياته إلى وفاته عام ١٩٧٧. ■

التقويات رغم طلياني المتكررة، اتصل من كل مسؤولية.

أمر الهوج  
الإمضاء: ادبي

١٩٤٨/٣/١٨ من وكيل أمر الهوج في محطة الشمال المارم الأول الآتسي سأت حالة المهاجرين الغنوية لعدم تلبية دمشق الطلياني المتتالية بشأن النجيدات والأسلحة من كساء وغداة التدمير عام يخشى الحلال الفوج. وكيل أمر الهوج  
الإمضاء: الآتسي

كانت هذه الأصوات تسبب لي قلقاً شديداً، لا أرى له علاجاً. إلا في أن أخوض بنفسى معركة ما. وفي ١٩٤٨ اندار نقلت قراراً يقول إنه منذ يومين، شوهد في مستعمرة: غفوة، تجمعاً يهودية كبيرة آتية من مستعمرات المرح، ومستعمرات منطقة نيسان. فحلست على الأمر في كل ما سواد. وأنذرت الخدم صفاً وطلبت من تقوية حامية زرعين ونورس. وزيادة عدد الوريان الفيلية في تلك المنطقة وتهينه

■ كانت خطة انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين، تقوم على دعمتين، الواحدة سياسية والأخرى عسكرية، ومن البديهي أن تكون الدعامة العسكرية في ترتيب الشغل، كنقل المستودعات والأشغال، والمورسات، ومؤسسات الجيش المختلفة، ثم أنه كان يرافقه الحملة العسكرية في الانسحاب، وخيراً الأليات مع المصفحات، بطرق معروفة في النظام العسكري. وكان من الطبيعي أن يستخدموا في انسحابهم هذا مختلف الطرق بما فيها الخطوط الحديدية، وقد تم هذا الانسحاب بشكل عادي ولكننا لا حظنا أنه كان يرافقه الحملة العسكرية في الانسحاب، خطة سياسية مرسومة، وهي انسحاب الوحدات البريطانية المتوكل إليها المحافظة على الأمن والنظام في المدن، بطريقة جبالية، يتبعها حالاً هجوم مفاجئ. وقد كان من نتيجة هذه سقوط أكثر المدن العربية التي كان يرمي اليهود إلى احتلالها قبل غيرها. وهذا تيدو الدعامة السياسية فيحدث حدث في حيفا مثلاً، قبل انسحاب الجيش البريطاني، أن السلطات البريطانية أخذت تضيق على العرب بحجة الرغبة في سيادة الأمن والنظام، إلى أن يتم انسحاب الجيش المسئول عنهما، وتسهل من جهة أخرى لليهود حرية الحركات بأوسع مبالغها، كانت قوات من الجيش البريطاني منحه مساحتها في المحافظة على الأمن والنظام، تسيطر على الطرقات والمخاض، التي تصل حيفا بما يجاورها من قرى عربية، ومستعمرات يهودية، فكانت هذه القوات البريطانية تحول دور اتصال عرب القرى بحيفا. انصهرة إخوانهم العرب فيها، يهدم تسهل لليهود الاتصال المتبادل بينهم، في المدينة وفي المستعمرات المجاورة لها، وكان هذا التصرف سبباً رئيسياً ظاهراً في أسباب سقوط حيفا وشيخيه موقفهم هذا

موقعهم في يافا. فيبعد أن تسكن ما من إدخال حواجز، إن يافا، وهي في أخرج ساعاتها وتعدل الوقت في مصلحة العرب، عدم البريطانيين إلى فرص هدية محليّة بين العرب واليهود، فاستغل اليهود هذه الفرصة لإعادة تنظيم وحداتهم، وتدعيم قوتهم، حتى إذا ما تم لهم ذلك، انسحب

اعداد د. خيرية قاسمية

العدد المائة وأشا عشر، مايو ٢٠٠٨ م

قوة احتياطية، يكون في استطاعها الدخول في الحركة فوراً. وكنت أوقع أن تكون الحركة قوية. لم أعلم من وطأة زرعين، على اليهود، وزيجتهم في القضاء عليها، لأنها كانت سداً حديدياً بينهم وبين جنين ومنطقة التلث العربي كله، الذي كانت زرعين مدخله من الشمال، وفي الساعة الثابتة والعشرين بينما كانت إحدى دورياتنا متجهة نحو «نورس»، إذا ثيران تنصب عليهم فجأة من مكان يقع إلى الجنوب من هذه القرية، فضضحت هذه العملية خطة اليهود، وكشف لنا عن غرضهم من الهجوم الذي يدبرونه. إذ إن وجودهم في ذلك المكان، لا يمكن أن يفسر إلا أنهم يرمون إلى الفصل بين جنين ومنطقتيها، وبين زرعين، لخصاص على حاميات جيش الإنقاذ في زرعين ونورس وصندلة وفي الدقية التي انصبت فيها الثيران على دوريتنا، فضجرت أصوات اليهود من الشمال على موقعنا في زرعين، ومن الشرق على مواقع زرعين، ومن الغرب على مواقع صدلة. وكان لحظنا من غرارة رصاص الرشاشات وغشال الهاون، أن القوات اليهودية المشتركة في الهجوم، لا بد أن تكون كبيرة العدد وأهزة المعدات، وامتدت الحركة إلى مراكز كافة، وأطلق النار يشتد ساعة فساعة، وبداناً نسمع أصوات انفجارات هائلة على الطرق التي تصل هذه الحاميات بعضها بالبعض الآخر، وتربطها مجتمعة، بجنين، فصيل إلينا أن الصور على هذه الطرق قد نسفت كلها، وأخذت الساعات تسمى وحدة الحركة لا تنفصم، وقد تمكن اليهود من هذا كله وفتنا الاحتياطية لم تتحرك من مواقعها، وكما نتظر نذير الفجر، لكي تقوم في صونا هجوم معاكس على أخطر نقطة تبدو لنا في صفوف العدو، وكان كلما أراد تقدم العدو نحو الحاميات، إزدادت الحاميات استبسالاً في البلقاع، وعند الفجر بلغ اليهود في زرعين، المراكز الامامية التي اضطرت إلى الاندفاع، حتى صحوطهاهاها الزلزية فاصترت بالمرح لاحتياطية المتكررة في قرية المزار، بالهجوم على القوة اليهودية المهاجمة متتالية في نورس، وسرية أخرى بالهجوم على قرية صدلة، التي أصبح القتال في داخلها، فاندفعت هذه المراكز لتساندها مدفعيتها، وتحميها مدافع الهاون بحماسة جديدة، ظهر معمولها في اليهود من الطلقات الأولى، ودب شر من التصدع في صفوفهم، أدى إلى هبوط القتلى والقتال. وما أرتت الساعة السابعة والبقية الثلاثين، حتى وصلت سرستنا المهاجمة

إلى داخل صندلة، وأحدث اليهود من الوءء، واقتبص معهم إلى دفاع ضميم. هزيمة تصمها القوض، تاركين كثيرا من الأسلحة الخفيفة والثقيلة في ساحة المعركة، وسرقتا طرادهم منزهين باتجاه زرعين. والعولة، وكانت حامية زرعين ثالثة قتال اليهود في مسافة قريبة، وهم لا يلقون سيلا للقدم نحو خطوطنا، ولا محرجا ينهزمون منه إلا فلالا من ثيراننا اما ثورس فقد وصلت إليها سرية الهجوم الأولى، واليهود فيها بين نارين، وأحدث هذه السرية مع حامية ثورس، تطاردهم منزهين نحو الطريق العام صولة. بهيماء، فأولعت هزيمتهم في صندلة وثورس قواتهم في زرعين، في خطر الشطوق المباشر، وفي تمام الساعة العاشرة، ظهر على طريق بيسان، غولة رتل من المصححات والديابات البريطانية أنثر فلانها المريقين بالكف عن القتال، ولا اضطر إلى التدخل في المعركة، وكان اصحابا إلى اليهود استنجوا بالبريطانيين لإنقاذ قواهم من المصير الذي كان مقرا لها.

وامت الفصل القول إن كفة اليهود، لو كانت في الراجحة في القتال، لما تدخل الجيش البريطاني الذي كان هذا شأنه دائما في كل معركة ميتنا وبين شاة، على أن جنودا لم يكموا عن إطلاق النار، حتى تقدم بعض الديابات البريطانية وأخذ يصب فامله عليهم فأصيب جنديان من سرية سعدون في زرعين، توهى أحدهما فيما بعد متأثرا من جراحه، وكان من المفروض أن تتجنب الاصطدام بالبريطانية خشي أن يكون في اصطدامنا بهم، مصطلح لليهود، وحوالي الساعة الواحدة توقف إطلاق النار، وانسحب اليهود تحت حماية الديابات البريطانية التي مكنتهم من سحب كثير من قتلهم وجرحاهم، تاركين كثيرا من معداتهم في ساحة المعركة، على أن عدد القتلى الذين لم يمتكنوا من نقلهم في قبال عن المالة والعشيرين ولعل أحسن وصف لهذه المعركة هو ما وصفه بها مرسلو الصحف الامريكية والإنجليزية الدين جاءوا يطلبون الاطلاع على تفاصيلها، فأرسلت معهم اثنين من صباطنا إلى ساحة المعركة، وبعد أن جالوا فيها، عادوا يقولون: إنهم لا يعرفون معركة في الحرب العالمية لا تتجاوز منطقتها منطقة هذه المعركة مساحة، شوهد فيها الدماء والأشلاء وظروف الرصاص المازعة ما شاهدوه في هذه اللغة، على أننا كنا في المعارك التي نخار نحن أن نخوضها، أو تلك التي نحمل على حوصها، أخشى ما نخشاها، إن يصر عقنادنا قبل أن نصر من المعركة.

## المعارك في منطقة عارة

وتلعت من جديد معلومات تثبت أن هناك تحشدات يهودية كبيرة في منطقة عارة، مما دعاني إلى توقع خوض معركة جديدة قد تكون أشد من معركة زرعين، وأما لا أستطيع أن أدسى أننا قبل أن نخوض معركة زرعين، ببعدة أيام، كنا في حالة حرجة جدا من ناحية العتاد، مما اضطرني إلى إرسال البرقية التالية إلى القيادة العامة، ١٩٤٨/٤/١٦ رقم ٢٥١

المعركة الحارية في منطقتنا هي مع النخبة الممتازة والقوة الأساسية في جيش الهاجانا، منها معارك اختيارية نستطيع تجنبها ومنها ما نرغم على خوضه، كان لا يولد عتاد عندكم ولا يمكن تأمين عتاد فباي وسيلة تطلبون الدفاع والصدور في القتال؟ لتجاسة ثبوت الحرب وهي ملزمة بتأمين وسائل الحرب.

الإمصاء: فوزي

ومع ذلك لم ترسل إلينا القيادة العامة عتاد، ولا اختيارا من العتاد، ولكن أخبار التحشدات اليهودية، كانت ترد علينا كل يوم، وأخذنا كالعادة، نعد ما يلزم من الترتيبات، ولجميع ما يمكن جمعه بالتشجيع من جهات مختلفة وسوقه إلى منطقة عارة، وقبل أن تتم ترتيباتنا الترفيقية هذه، فاجأنا الهجوم ليلة ٢٤ ٢٥ نيسان بهجوم مزود قاتم به قوات كثيرة من مجموعة المستعمرات الواقعة شمالي شرقي الخضيرة، مانجاة قرية عارة، وكثر قاع، عارة، يدعمه عدد كبير

من المدافع الرشاشة ومدافع الهاول، فالتسحبوا كل ما كان لنا من مراكز أمامية غربي طريق الحور، وأدى عارة، وشركز الهجوم على عارة، حيث كانت سرية من سرايانا لا تزال تدافع باستماتة، فاضطرت إلى أن أقدم بحرس مسر القيادة إلى عرصة، حيث تجمع لدينا سرايا ثلاث، للصدود في وجه العدو، وقبول المعركة نهائيا في هذه المنطقة، وفي فجر ٢٥ نيسان اضطرت السرية التي كانت تدافع عن عارة، التي التحلى عنها، والتراجع إلى عرصة، فتلقت قوات العدو واستولت على طريق اللجون، وأدى عارة، وحوالي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين، بدأ الاشتباك الحقيقي في هذه المنطقة، واشتركت فيه قواتنا كافة، كان هجوم العدو يزداد حدة ساعة بعد ساعة، كان العدو يرسي من هجومه هذا، إلى فصل منطقة اللجون بأسرها، عن جنين، وبالتالي الشفوخ عن طريق بهيماء، إلى عربة، فيمزل بذلك منطقة جنين كلها شملا، عن نابلس ومنطقتها جنوبا، وبدل يكون له حق قرصه الذي فشل في تحقيقه في معارك زرعين، وفي الدقيقة التي كانت المعركة في أوج شتها، وطلبات العتاد تدر على بالاحمال من خطوط النار، كانت أصحت عن طريقه أنهى بها المعركة بأسرع ما يمكن دون مبالاة بما يلزم من الصحايا إذا اقتضى الأمر، فإنقاذ جنين ومنطقتها، شيء يستحق التضحية، لذلك لم يبق أمامي إلا أن أجازء، وأحجم بكل ما لدى من قوات في اللجون إلى أم الفحم، واستأفكر أكثر من ممكن من المسلمين المحليين في منطقة

أم الفحم وأقصد بهم في هجوم مصاد، إلى ساحة المعركة على الجناح الأيسر اليهودي الكشوف، وأسرع بإرسال مصفحين مع فضيل مدغلية كان في العتاد إلى الميدان، وحوالي الساعة الثانية عشرة كانت هذه القوة، قد أخذت مراكزها في أم الفحم، وأخذ شيء من الضعف يبدو على قواتنا في خط النار، تقرب نضاد العتاد، ولكنها مع ذلك صامدة بالرغم من كثرة ما كان يقع فيها من إصابات، وفي هذه اللحظة انطلقت قوة أم الفحم في هجومها النضاد نحو قرية معاوية، وما إلى دقائف، حتى اجتازت الطريق نحو الغرب، والتت حول عارة، فأصبحت وراء الجناح اليهودي الأيسر شاملا، وأخذت تصب نيران رشاشاتها ومدافعها الهاول، على هذه الجناح، وشقت مدافعنا الرابطة في جوار أم الفحم القوامها، نصب قنابلها على صفوف اليهود بشدة وأحكام، فترعزت القوات اليهودية، وأخذت بالارتداد نحو الغرب، واندفع جنودنا يطاردون قوات العدو الذي انقلب تراجعهم إلى هزيمة، ولم أستطع إيقاف جنودنا قبل وصولهم إلى أبواب المستعمرة التي بدا منهم هجوم اليهود، وفي فترة المساء، قبيل نزل الظلام أمرت الجنود بالعودة إلى مراكزهم التي كانوا قد تحلوا عنها، وبدأت هذه المرة عن ساحة عارة، التحصن

كان الشبه بين هذه المعركة وبين معركة زرعين كبيرا من حيث قوة الهجوم وأهدافه ونهائيه، ولم ينقص المسرح، إلا ظهور الديابات البريطانية التي كانت بعيدة هذه المرة عن ساحة المعركة.

## المعارك على جبهة طولكرم

كان لتسلي قيادة الجبهة الوسطى، وإرسال فوجين إلى من دمشق، ويبدء تنظيم قواتنا في تلك الجبهة، تأثير كبير على خطط اليهود، المتلفة بفتح طريق باب الواد، القدس، خصوصا بعد أن أمرت القيادة العامة السيد حسن سلامة، ومعه من قوات المسلمين المحليين، بالانصواء تحت قيادة جيش الإنقاذ، وحينما بدأنا تنظيم قوات هذه المنطقة التي كان قد استقبل فيها أمر القوض، ولكننا تعلينا عليها، وجعلنا من المنطقة صفا واحدا تقريبا، شعر اليهود بالأمر، وأوجسوا خيفة ما قد يشكل هذا من خطر على خططهم في باب الواد والقدس، حاسبين أننا سعيينا جزءا كبيرا من قواتنا في المثلث العربي، وآتيينا بها إلى هذه المنطقة فوجهوا اهتمامهم إلى جبهتنا في المثلث وحاولوا هذه المرة مهاجمة جبهة طولكرم، ليرغمونا على إعادة ما تصورا



الجيوش العربية النضالية قريباً، وينتقل إليها رأساً على عقب، ويمنحنا تلك المحبة عليه إلى تدبير ما يمكن من عتاد، مما يمكن من أمر، إذ إبرة ترقول إن يافأ تلتجسها من السقوط، إلى أن يفتد القديمة العاقبة، إلى أن يفتد بالبرية، وقال أنجد يافأ يا فوري، إلى ضياع يافأ كارة، إلى أنجد الجندى إلى عتاد، وتسررت أنجد يافأ، فالتجدي وعداً ولم يجندني عتاداً، وأنا الذي كنت أعرف أن حالة يافأ، إلى نفع يافأ إلى عتاد، فرت يافأ يبين نفسى إلى أنجد يافأ عملياً، ولجند ما يحدث ما، وكانت الحال في شهر يافأ أيضاً، في فلسطين كلها، إذ انقضت على يافأ جيش الإقذاف، سبيل، وسرخات للاستغاثة توجه إليها من كل ناحية، وأوامر التعليمات ترد علينا من الشام القديمة العاقبة، ومن مصر، العاصمة العربية، ومن بيروت، فشتاً على النجدة، وقد تفتد بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٤٨، وأول شربة والقدية إلى العربيين، ليلاً، من اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الشوا من العربية من دمشق الرسالة الأتية إليها تنصها:

مخفی فوری ملک:

تبين من فتيحة المخابرات الهاشمية مع القدس بين قلند الصالح وجملي باشا ودولتي رصاص لك الصالح وجملي باشا وقد كان وجد القدس سيئ جدا وتحثاح إلى الوسيلة وخاصة المصفية. وقد أصرى (يمنى) على الصلح وجملي بدم) أنا أكتب إليكم وأبلغكم رجاءهما بدم نجاتهما. وقد أرسلنا إليكم أربع طرقيات عند الساعة الرابعة حتى الآن، لذلك أرجو أن تدلوا بآدمكم بإرسال هذه النجدة مع تأكدنا بآدمكم غير من ينجد في الأوقات الحرجة. وبقضاء أروكم الموفية.

والخلاصة  
العقيد محمود الهندي  
ومثل هذه الرسالة، رسائل وزيارات  
كثيرة، كانت ترد على من مراجع مسئولة  
مختلفة وهذه نموذج من تلك الرسائل  
وهي من القائدة العام نفسه، ويخط يده،  
يظهر أنها نتيجة صنف الجامعة العربية  
عليه

۲ ایما ۹۴۸

موقف حماية القدس أصبح في  
منتهى الحرجة، والحامية تكبدت خسائر  
فادحة، ويهبط موجودها إلى عدد ضئيل.  
وتخرب قسم كبير من أسسها، وبما أيام  
ستحتشد قوات نظامية وتجرى بحركاتها  
وعليه لا مانع أبداً من استخدام بعض  
قواتكم في سبيل المحافظة والدفاع عن  
القدس وبأمان، وبصورة خاصة مدينة  
القدس، وبوجه إجمالي  
التيما بما يسمح به قوانينكم

مدفعية جيش الإنقاذ

تَقْصِفْ تَلْ أَبِيبْ

كان طبيعياً أن تتمسك الكتيبة الأندلسية المعركة في العقول، بعد انسحاب الجيش البريطاني، وتصبح معقله للتصحر. وبادت أختان هذه الكتيبة لها معسكرين، ولبس هذه الكتيبة الأندلسية صورة اقترابها فاعلة اجتهادها في طوكرم ودم ودم. ولكن سرعان ما فوت هذه الأمل، بعد اقصائي فساد الكتيبة، وعرفني منهم، إيمان لا يستطيعون أن يقوموا بأي عمل أو حركة على الإطلاق، في دخول الجيوش العربية النظامية.. على أن هذه الكتيبة، ما كانت تستقر في معسكراتها، في مكدت مضطربة إلى



من الفضول القول إن كفة

الجيش البريطاني



الاتصال بالبحان القومية ووجه المناطق.  
وبدأت مآذب وحفلات تقام لهؤلاء  
الضحايا، فتدخلت في الأمر، على اعتبار  
أن الظروف القاتمة، كانت تفرض الامتناع  
عن مثل هذه المظاهر، عدا أنني كنت  
أخشى أن تتسبب هذه المظاهرات في  
تهديم أو تصعيد ما كنا نبنياه، من وحدة  
في الصفوف نسبية.

وتسلطت برفية من القيادة العامة،  
تسند إلى قيادة الجبهة الوسطى، وأنها  
قررت إرسال فوجين من المشاة، هما في  
طريقتهما إلى فلسطين، ولكن بدون  
مدفعية ولا مصفحات. وتلت هذه المرفية،  
برقية أخرى تقول بضروة إرسال فوج من  
هذهين الفوجين إلى القدس، نظراً  
لخطورة الحالة فيها، وتحسباً لسقوطها

بين أيدي اليهود وكانت الحانة هي يافا التي طوفها اليهود وانتقلوا الاتصال بها لنقل حمولة منها في القدس. كما كانت الحانة هي يسيمان وسفد وطبريا وجيفا سيدة جدا. وأمام هذا الوصف الخطر العام فكرت هي ان اباحت القيادة العامة في الأمر، فاستعنتي في لي الشام، ووصولي فابلت اللواء إسمايل صفوة، ويستخدم له الموقف تفصيل ووصوح: جافنيبي ما تأثر، ما العمل وسفد إمكانيةنا كلها. اصبر قليلا، هذه

القبائل اليهودية، التي استعملت في المعركة بدلاً من الحراب والقاذف العاجل الحاسم فيها. وما كانت معركة القامول هذه، تنتهى، حتى بدأ هجوم يهودي أشد باتجاه الطبرية وقلعيتها جنوباً، ثم تركز تدريجياً على الطبرية. فالتكتيكات على أغراض الهجوم وخطواتها، فأمرست لجهة البقية من النجدة التي كتبت أهدافها لجهود طوكوك، ودارت معركة حامية بنال اليهود فيها أكبر منهجود، فالاستيلاء على الطبرية، إلى أن حامية بعد القرية ليست بالشيء عسيراً، حتى وصل الرئيس مدلول ومعه بقية النجدة، وكانت تراقب هذا الهجوم على الطبرية من سفحها يهودية كثيرة، عرفنا فيها مصفحات إنجليزية، فوصلت مصفحاتها في اللحظة الأخيرة تماماً، وكان جرحاً بمساعدة المدفعية وحماية المصفحات، يستعملون في القتال، إلى أن تعطل من مصفحات العدو قسم كبير، واستولى

جنودنا على مصفحة يهودية استعملوها في المعركة نفسها لمقاومة العدو. وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، كانت القوات اليهودية على طول الجبهة في حالة مسؤولية تامة، وطاردهم جنودنا حتى يستمرهم كهرس، وهناك دارت بين المريريين معركة استولى فيها جنودنا على المستمر. ثم أبقى الرئيس مدلول أن اليهود قاموا بهجوم جديد على قرية كمرسابا العربية بالقرب من قنقلية، فطلبت منه أن يتخلى حالا عن كهرس، ويتجه بهاته إلى كمرسابا حيث انتقل ثقل الجبهة. فترك مقره من قوائه امام مستمر كهرس ثمناؤه اية قوة يهودية، قد انتا لنجدة المستمر واتجه إلى قرية كمرسابا حيث انتهى المستمر فيها بدحر اليهود وتكبيهم خسائر كثيرة. على أن اغياطى بهذا الانتصار ما كان يخيف من قلقي، فقد كنت اضمن فغان العائد في كل خدم من خطوط القتال، وأتوقع أن تجعل على الخوض مبارك قبل أن يصل لنا من العائد الخوف، وعدونا به، وكثيرا أو قليل وكان سواء اليهود بلناتنا وما يبدو من زيادة التنظيم في صفوفهم يزيان في قلقي، على أن الاتصالات جيش الإنقاذ المتأخرة بالرغم من فقد العائد، كانت تجعل

أما أيضا من قوة إلى تلك الجبهة فيقترب لهم تنفيذ خططهم في الجبهة، أي منطقة بلاد الولد - وجبهة طوكركم هذه، تمتد شمالاً من غربية مسير حتى جنوب غرب مدلون، بإجاءه اللد، كانت بإمرة الرئيس مسعود عباس، في مسيراتها أرض صهيونية تكتفلها مزارات ومزارع عربية وكثيرة، وكانت مسرحة الحشود وهمارك مستمرة، في ظل الخلل والبيارات اليهودية، الهبوط فيها للبيض الكبار وكثرة ما يتعقبه مثل هذا الوضع، من اختلاط ومن تشارك دوريات، ما كان عمالاً من عوامل اللد، أمامه بشكل غير منتظم تقريباً طوال الساعات، وهذه الجبهة تقع براءً أشد المستمرات كجبهة ٢٦، في نيسان ١٩٤٨ ودوت لهم أخبار تحشدت بحيرة في المنطقة الخاطئة غرب فلسطين، وهي شمالي قرى اللد، فاندوت أمر الجبهة في الحال، وطلبت منه أن يتخذ الترتيبات اللازمة ضد هجوم محتمل على فلسطين وقافون، في ٢٦ - ٢٧ نيسان ١٩٤٨ الساعة الثالثة والعشرين انشعر هجوم قوي تجاه جافا، وحدث الجبهة، فبادرت، بوجهة مدافعة من القرية بسالة دورية، وطلب أمر الجبهة لاجدة للاستمرار في الثبات، ولكنني فضلت أن التريث قليلاً، ولحق في بداية عملية هجوم تطورها وصيرها، بالخطر لوضع الكتيبة، التي لا يسمح لي بإرسال جندي واحد أو طلقة واحدة، للنجدة، قبل أن تنتكشف المعركة من الحافة القصوى إلى الوسط مصمماً من حافة أخرى، أن اعالج الوقت بما لدى من قوات ضليلة، دون أن اسحب قوة، من الجبهة الوسطى، التي كنت أخشى عليها لحاق صميمها (إنها علت وأعدت معركة لاجدة من جديد، وزرقوها في نابلس، وسرية عارة من مسير، وزرقوها باربع مصحات ومسدحين، فتكون جاذرة للتلاصق، في المعركة عند الضرورة) المصروف، وفي خلال ذلك، كان اليهود يتقدمون نحو قافون، (و إلى أن تمكنوا من دخوله بعد منتصف ليل ٢٦ - ٢٧ نيسان، كان اليهود يتقدمون من الجبهة الوسطى طرفاً نحو الطريق العام بين طوكركم وبافة، وعندها، أرسلت أسبسا من النجدة إلى كتنا أعداءنا، إلى الرئيس مسعود، اللد، التي تمكن بمساعدة ورفيق من السليحين الحليين، أن يقوم بمضاد، فيسترد قافون، ويهزم اليهود إلى خطوطهم الأساسية، وينضم منهم كثير من السليحين، والتهجير، ما طالت خمس ٢٧ نيسان حتى استعدنا كل ما كنا خسرناه، وبعث المصالح القصدية التي اعترضت قافون، في تلك الأثناء المحولة إلى جبهة بحيرين من مياه وعل، وكان القتال على مسافة

لتحسين الضغط عن الحامية والاحتفاظ بمدينة القدس مهما كلفكم الامر، ولو أدى ذلك إلى إخلاء بعض المواقع الثانوية.

الإصاء، القائد لجيش الإنقاذ صمود،

أما هذا الضغط من القيادة العامة، ومن اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الدول العربية، هذه المراجع التي أشرفت هي نفسها على إعداد جيش الإنقاذ، والتي تعلم ضالة عدده ومعداته، والتي كانت تصمم ادائها من طلبه السلاح والعتاد، كلما احتاج إليها، وهو لم تنقطع حاجته إلى ذلك أبداً، وهذه المراجع كلها، وخصوصاً القيادة العامة واللجنة العسكرية، تعلم علم اليقين أن جيش الإنقاذ لم يتجاوز عدده يوماً ثلاثة آلاف مقاتل، وأن معادله لم يتجاوز عشرة آلاف، كما ينبغي لجيش يشغل جبهة واسعة كجبهته، بالنسبة لعدد مهمز يمكن من أمر. فقد اضطرت، في أحد سحب معار من قواها المتمركزة في المنطقة وتوريهها على منطقة القدس واللد والرملة وكسبة والعاسية وبيتان، مما استندت كلياً من قواها الأساسية والاحتياطية أيضاً، كما كانت المراكز تستند عتاداً أو القسم الأكبر منه، وكنت اعتمد على ثلثية هذه المراكز قاعدة "الأهم فالهم".

وبالرغم من ذلك كله، يجب أن يتجدد إذاً كانت تلفظ اعصام الأخرى فحرب كثيرة، وأنا عائد من الشام إلى فلسطين، وأبهرت في مقر القيادة في جب، بتشكيل رتل مرتب من بطارية مدفعية وأربع مصحات، ومن سرية، بقيادة العفيف مهدي صالح، يقوم بفتح الطريق بين اللد والرملة، وبين يافا، تمكن فوج أجنادين من الدخول بكامله إلى يافا، وأصدرت أوامر مشددة إلى أمر فوج أجنادين بتسلم قيادة الحامية فيها للسيطرة على الموقف وإعادة تنظيم الصوت المحلية المقاتلة، وثلث في الدفاع مهما يكلف الأمر، إلى أن تدخل الجيوش العربية النظامية، وفي خلال أربع وعشرين ساعة تألف هذا الرتل، وما إلى وصلت إلى مقر القيادة إلا وكان مستعداً لغارة ملحقة بالمثل، والرفح أمام فوجي أجنادين على يافا، وفي صبح ٢٩ نيسان انطلق الرتل نحو المدينة العربية، فتصدت له في طريقه قوات يهودية استطلاعية، ولكنها لم تثبت في وجهه، وانهزمت متفرقة في الاستعراة اليهودية واستمر الرتل في تقدمه بسرعة إلى أن وصل إلى مستعمرة «سكوى إسرائيل» المتحكمات بطريق يافا، وثلثت بينه وبينها معركة حامية، قصمت فيها مدفعيتنا أراج المستعمرة، فانهرت سكانها، وتنازع الرتل

تقدمه، ملتزمًا جانبي الطريق العام، متخذًا تدابير العودة إلى قاعدته، ولكنه توقف وهو يعد على مسافة أربعة كيلو مترات تقريباً عن تل أبيب، واستدارت بطارية المدفعية، وكان لا يزال لديها ستون قذبة، نحو تل أبيب، قصمتها عليها بسرعة وبسرعة، وكانت مسافة، المرة الأولى والأخيرة التي فيها ضربت مدفعية عربية مدينة تل أبيب.. ولم يتيسر لجيش من الجيوش العربية النظامية التي دخلت فلسطين فيما بعد، ومنها مدفعية ثقلية وبعدة المدى، أن تصل إلى أي مكان تستطيع منه أن تقذف بمدفعتها الثقيلة والبعيدة المدى إلى تل أبيب. وقد كان لهذا القصف عدا تأثيره المعنوي الكبير، تأخير مادي تجلى فيما تركته القنابل. كانت الأحياء اليهودية في القدس تصعب عليها فالدب مدفعية جيش الإنقاذ، فتحدث فيها كثيراً من الحرائق والتفجيرات، وكان لهذه العملية تأثير كبير على رفع معنويات الفلسطينيين كافة، وهكذا كان يحدث دائما في الألوة الأخيرة أي فشل دخول الجيوش العربية النظامية. فكان كل فلسطيني لا يشعر بالطمأنينة إلا إذا وجد في مدينته أو قريته قوة من جيش الإنقاذ، مع المدفعية، وكان معنى ذلك إما قوة من جيش الإنقاذ معها مدفعية في كل مدينة وكل قرية، وإما خروج عن كل مدينة وكل قرية.

## أسرار الجيوش العربية

### في أيدي اليهود

كانت الأخبار التي ترد علينا، من

عواصم البلدان العربية، ومن نواحي فلسطين على اختلاف المصادر، تؤكد وصول نجدات والسلمة وخانثر إلى اليهود، من أنحاء أوروبا، وكنت أتوقع دائماً نشوب معارك كبيرة نرغم على حوزنها في مراكز متعددة من جبهتنا، خاصة في منطقة القدس، التي كانت حالة اليهود فيها بدأت تتحط معنوياً ومادياً إلى حد بعيد، وكنت قد رايت أن إلحاحي الشديد في طلب السجدة والعتاد، لا يأتي بأية نتيجة، فالتحجج على القائد العام إسماعيل صمود، والمحتش العام العميد الركن طه الهاشمي، أن يزورا جبهة القتال ليتبينوا بنسبهما حقيقة الواقع، فأرسلنا لهذا الغرض القمم شقير عضو اللجنة العسكرية العامة باسم جامعة الدول العربية، فيبحث له خطورة وقلة عدد الجنود والعتاد بالنسبة لأوضاع الجبهة، وحالة الجنود المادية المتصلة باللاس والإعاشة، عدا ما أصابهم من الضمك بالنسبة للمعارك المستمرة التي كانت تنهك قواهم، لأنه لم يتح لهم وقت من الراحة خلال عدة أشهر، لعدم وجود قوات احتياطية، وطلبت إليه أن يزور نواحي الجبهة كلها، ويدرس الوضع بنفسه، وجادى القمم شقير بعد تفقته الجبهة مبهوتا، ويأمرني بقوله، إن جبهتكم كلها في خطر شديد وليس هناك جيش نظامي يجرؤ أن يشغل مثل هذه المهمة إذا كان يريد أن يحافظ عليها فلا فقت له لقد أصبح من واجبك الآن أن تنقل بأمانة ما رأيته إلى القيادة العامة والمفتشية العامة، فقد بيئت تقريرك فيما الشعور بالمسؤولية



## تسدد الرؤوس

لإنقاذ الموقف، قبل أن تحل بهذا الجيش كارتنة تصبها، وتسبق ضياع أجزاء من فلسطين لن يستطع بعدها أي جيش أن يستردها.

كنا في جيش الإنقاذ نلتمد بعض ترتيبات خاصة للاستيلاء على مصحات بريطانية من هنا وهناك، والجدير بالذكر أن جيش الإنقاذ دخل فلسطين وهو لا يملك أية مصحة، حتى إن سيارات النقل التي خصصت لنقلاته كانت قليلة لدرجة أن المفتشية العامة أرفقتها بعدد من البغال لتكون واسطة النقل الأساسية، وقد تسكنت مغرة من مغارات الحدة مثل هذا الأمر من الاستيلاء على مصحاتين بريطانيتين تحريان سيارة لدرناك، إحدى الطرقات العامة - وكان ذلك قبل وصول القمم شقير إلى الجبهة بقليل - فإذا بنا نجد في سيارة الركاب هذه أكدا من الأوراق، بينها تقارير من الوكالة اليهودية إلى وزارة المستعمرات البريطانية ومن قيادة الهاجانا إلى الوكالة اليهودية ومراسلات مختلفة بين الصليب الأحمر السوي، وهيئات متعددة من اليهود، فسلمت هذه الأوراق إلى المكتب السياسي لجيش الإنقاذ، وكان فيه من يقوم بالترجمة من العربية إلى الإنجليزية والعبرية والفرنسية، ومن هذه إلى العربية، فإذا به يجد بين هذه الأوراق نسخة من تقرير مقدم من القائد العام اللواء إسماعيل صمود، إلى اللجنة العسكرية للحامية العامة مكتوب باللغة الفرنسية ومرسل من مصر إلى ابن جوريون، من طريق القدس، ويتألف هذا التقرير من أربع عشرة صفحة، فيها وصف شامل للحالة العسكرية في فلسطين، وحالة الجيوش النظامية العربية من مختلف نواحيها، ويكلمة مختصرة تشتمل على كل عورات الدول العربية. فبعد أن أتممت أحاديثي عن الجبهة مع القمم شقير الذي لحقني من صحته بنفسه، سألته هل قدتمت تقرير عن الوضع العسكري في فلسطين، وعن حالة الجيوش العربية النظامية، إلى اللجنة العسكرية؟ قال، نعم، قلت، هل كان التقرير مؤلفاً من أربع عشرة صفحة، وفيه كذا وكذا... وذكر له شيئاً مما في التقرير؟ فاجابني مبهوتا، نعم، كيف عرفت بهذا؟ ولم يعرف به بشيء من اللواء صمود وأنا قلت، يلي عرف به شريكما، عرف به اليهود أنفسهم وهذه نسخة منه

فصلت فيما سبق كيفية دخول فوج أجنادين إلى يافا وهي تلفظ اعصامها الأخيرة وقد كان لدخوله أثر شديد في

ارتفاع معنويات المدينة ولكنه كان أدياً. وكنت أتربح أن يتمكن الفوج من فرض سيطرته على قوات الحامية فى يافا، وأن يعيد تنظيمها بشكل يجعل منها قوة تستطيع الصمود على الخلق إلى حين وأنا أعلم أن فى يافا كديان من السلاح والعديد تسلمت على استمرار الدفاع إلى مدة قصيرة وهذا لم يتيسر للفوج أن يفعله، لما كان يسود المدينة من فوضى وتضارب فى المسؤوليات والصلاحيات. وقد كانت اللجنة العسكرية فى الشام، بعينها المقدم عادل نجم الدين أمراً لحامية يافا المرتبطة بها رأساً. وكان إلى جانب جنود هذه الحامية، سرية يمانية شديدة الناس، القاهية دوراً مهماً فى ميادين القتال، حتى النهاية، وغفيرة ويوفى سلاطية متخصصة بالهندسة وإعمال التدمير. وكانت الحامية فى يافا كما يلى:

أولاً: سعة إدارة وتصرفات كيميائية من القدم عادل نجم الدين. ثانياً: بليدة فى الأفق من فوضى احتياجاتها من شراى الأرض. ثالثاً: فكرة الانقياد إلى تعليمات الهيئة العربية العليا. وراد على الفوضى، رفض حسن سلامة التعاون مع المقدم عادل، إلا أن رضى هذا الأخير التقيد بأوامر. وكنت أرى أن أرفع أجناديين بعد الانقلاع من القيادة العامة فى دمشق، بأمر يقضى بانسحاب المقدم عادل نجم الدين، ويعود بمفرده إلى دمشق، على أن تسلم أمر فوج أجناديين قيادة الحامية. وعندما اشتدت الحالة خطورة فى يافا، غادرها

حسن سلامة إلى منطقة الدل والرملة. وأتبعه لا يطمئنون فى حال، إلى وجوده فيما بينهم، فرأست أمر فوج حامين إلى والرملة للمنظيم والمسيطر على الموقف، وبقيت مقرراتنا من جيش الإنقاذ إلى المهندسين لمعاتهم إلى أن وصل الجيش العربى الأردنى فانسحبنا إلى جبهة طولكرم.

إن حالة يافا كما هى وصمتها، حالت بين أمر فوج أجناديين وبين فرض سيطرته والقيام بما كان يترجوه من تنظيم، وبقيت الفوضى مسيطرة كعزلة كلما ازداد الضغط اليهودى شدة. وقد تلقيت من أمر فوج أجناديين بعد وصوله إلى يافا البرقية التالية:

٨٨/٥/٢ الساعة ١٢،٤٥  
عادل غادر المدينة مع العراقيين واليوغوسلافين بحراً، الخينة ستكون مقصرة من السكان بعد اليوم. مقدرة المدينة على توثيق ما تبقى من الحامية ضعيفة. أنذر البريطانيين اليوم بوجود إقبال الزمر من الطرفين حتى نصف الشرائح الحاصى. فى حال عدم الامتناع سيطلق الجيش البريطانى النار.

أمر فوج أجناديين

الإحصاء

كانت المدة التى فرضها البريطانيون للهندة، تقيد بها العرب دون اليهود، تسهل للهؤلاء التغلغل فى يافا، مما أدى إلى انهيار العرب ونزوحهم. ومثل حالة العرب هذه فى يافا، كانت حالة اليهود تضاماً فى القدس، خاصة بعد أن دخلتها قوة جديدة من جيش الإنقاذ، مع دفع هاون من صيار ١٧،٥ بالإضافة إلى فوج القادسية الذى كنت أرسلته إليها من قبل. وأخذت القوات اليهودية تستميت فى القتال، لكنى تتكمن من دخول القدس وإنقاذ اليهود فيها مما كانوا يعانون من الشدة والجوع والعطش، وكان نشاطهم هذا يؤدى إلى سقوط القدس بين ٥ - ٤ أيام. فسمعت عندهم أن أعمل حتى المستحيل لأحول دون تحقيق رغبة اليهود. ولقررت أن أعمل بمعية هجوع من القدس من الأقدام بواسطة حاميتها ومن الخارج بقوى



## التزام العرب بالهدة دون اليهود سهل التغلغل فى يافا، مما أدى إلى انهيار العرب



مخالف لشروط الحرب. وأن الجيش البريطانى مستعد للتدخل بالسلاح إذا نحن مدنا إلى صف القدس مرة أخرى. فأجبت ما دام عنوان اليهود على القدس مستمراً، فستستمر نحن فى هصف الأماكن اليهودية فى القدس لا يمتنعنا من ذلك مانع. قال الكونوليل، إننى أقول هذا لصلحتكم. وإن مدنة ربما تعقد بين العرب واليهود، فقلت حينما يقبل العرب يهدة، ويطلبها اليهود عملياً نراعى نحن هذه الهدة. على أننى أذكر لك أن العرب واليهود، قتلنا جميعاً قبل العرب مثله هنا. وأناب دمشق بالأمر. وقد كان اليهود فعلاً بين امرين، إما أن يقتنصوا العرب بمعضول هدة بأية طريقة من الطرق، ليتنصصوا قليلاً إلى القدس، وإما أن يحشدوا قوتهم كلها. وقد غفارة، ليقيموا بمعية تنقذهم، وأخذت مقاضوات بشأن الهدة تدور فى القدس

وانتهت هذه المفاوضات باجتماع عقد فى أريحا حضره عن العرب عبد الرحمن عزام والقائد العام صفوة، كما حضره سفير بريطانيا، بحثوا فيه نهائياً موضوع الهدة فى القدس. وكان اليهود فى حاجة شديدة إلى أن يهدة كهد، فقد كانت القضية بالنسبة إليهم قضية حياة أو موت. كانت هذه المفاوضات تدور دون أن يلطف هذه إياي أو أن أحاط بها علناً، وكان أمرين الجامعة واللواء إسماعيل صموئيل توهمان أن الهدة التى مصلحتنا. وربما كان ذلك لجهلنا كل شىء عن حقيقة موقف اليهود يومذاك فى تلك المنطقة. ومرة مرة ولم نلتق شيئاً من المد، وكنت قد أصبحت متأكد من أن ما كان يقول من اليهود علينا، بواسطة بعض ضباط المخابرات، البريطانيين، كان صحيحاً. لا أسنه من ازدياد قوة اليهود فى المد والمعدات المختلفة فى مجرى الممارك. فعمدت إلى إرسال برقية إلى القيادة العامة جاء فيها:

٨٨/٥/٧ الساعة ٢٧  
حزنتكم قبل اليوم ويوم إمكانية المقاتلة، أعلّمكم بأننى سأدافع بما لدى من قوات قليلة منهكة ناصفة الأسلحة

٨٨/٥/٧ الساعة ٢٧

إلى هذا صابرب الحالة فى فلسطين، وأصبح من البدهى أن نسد الفرج الذى تركه الجيش العربى بانسحابه يقسم من جوفنا. فى هذه الفمرة شرع اليهود بهجومهم المتطرق.

٢٣

٢٣

والتدريب والصباط، كما نبين للمقدم بقصر نفسه. سبأيل كل ما فى وسعى لصد قوات العدو والحيولة دون تحقيق أهدافه. أخشى أن نتكمن هذه القوات من الوصول إلى أهدافها على أجسادنا.

الإحصاء: فوزى

وردت علينا فى هذه الأثناء أخبار متتالية عن تحشدات يهودية قوية على طول الجبهة من مختلف المصادر المؤقولة، إندها استطلاعات فواتنا التى شاهدت نشاط العدو وتغلاته. فقد أصبح اليهود المحصورين على القدس كما بينت سابقاً بين امرين، إما الاستسلام خوف الموت، وإما حملة عامة مغامرة تقوم بمصليات الطيرة، وفى منطقة باب الواد القدس. وأخذت التحشدات تظهر على جبهة اللجون - عاز، وبجبهة طولكرم - الطيرة، وفى منطقة باب الواد القدس، والغرض من هذا كله كان وضاعاً جداً، إرغامنا على تجميد قواتنا فى المثلث، وعلى سحب بعض قواتنا من الجبهة الوسطى، ليقوموا من ناحيتهم بهجومهم المقرر لفتح طريق باب الواد - القدس، وبما نحن فى صمان على أمر اللواء صفدى الجنيدى فى رام الله. فأرسلت إلى القيادة العامة فى الشام البرقية التالية:

٨٨/٥/٧ الساعة ٩  
اطلمت على برقية مكتومة سريعة، إلى أمر اللواء صفدى الجنيدى بتاريخ ٢/٨/٥ رقم ٥٩ ترسم خطة انسحاب الوحدات الأردنية كافة من فلسطين بين ٦ و ١٤ أيام بحيث يكون آخر جندي أردنى قد غادر أرض فلسطين عن طريق جسر اللنبي إلى الشكبات فى شرق الأردن. قد أنشئ انسحاب اللواء الشمالي من حيفا. إن انسحاب الجيش العربى الأردنى من فلسطين يجب ذعراً وهجرة عامة نحو الشرق، إذ إن وجوده، والأمر فى دخول يافا بين ١٠ - ١٥ الجرن هذه الطمانينة الجيدة للأهليين. نحن هذه الساعة أمام نشاط كبير من تحشدات واسعة كاملة التجهيزات والأسلحة شمالي جنين، وهناك تحشدات غربية طولكرم قلبية. منطقة الدل والرملة، واستمرت ضواحي القدس الغربية. أرجو محصورين بالثبات إلى أريحا أو صمان غداً للمذاكرة معكم. أنتظر الجواب هذه الليلة.

الإحصاء: فوزى

٢٣

٢٣

٢٣

# ” فلسطين التي كانت! “

١٩٤٨

«الكبار سيموتون .. والصغار سينسون».. هكذا قال بن جوريون بعد النكبة.  
ماذا كان حال تلك الأرض وهؤلاء الناس قبل حملة التطهير العرقي التي بلغت ذروتها في السنة الفاصلة ١٩٤٨؟  
ربما تبقى المشاهد محمورة في ذاكرة أجيال تأكلها المنون. ولكن ماذا يبقى لأحيال قادمة؟ لن تبقى من ذكريات  
مشاهد «كانت هنا» مفعمة بالحياة إلا تلك التي تصادف أن سجلتها ريشة فنان أو عدسة مصور.  
هنا بعض منها احترناها من المجموعة المحفوظة في «أرشيف مكتبة الكونجرس» ومن تلك التي يعمل على جمعها  
- كجهد غير ربحي يستهدف التوثيق - موقع «فلسطين في الذاكرة» [www.palestineremembered.com](http://www.palestineremembered.com)

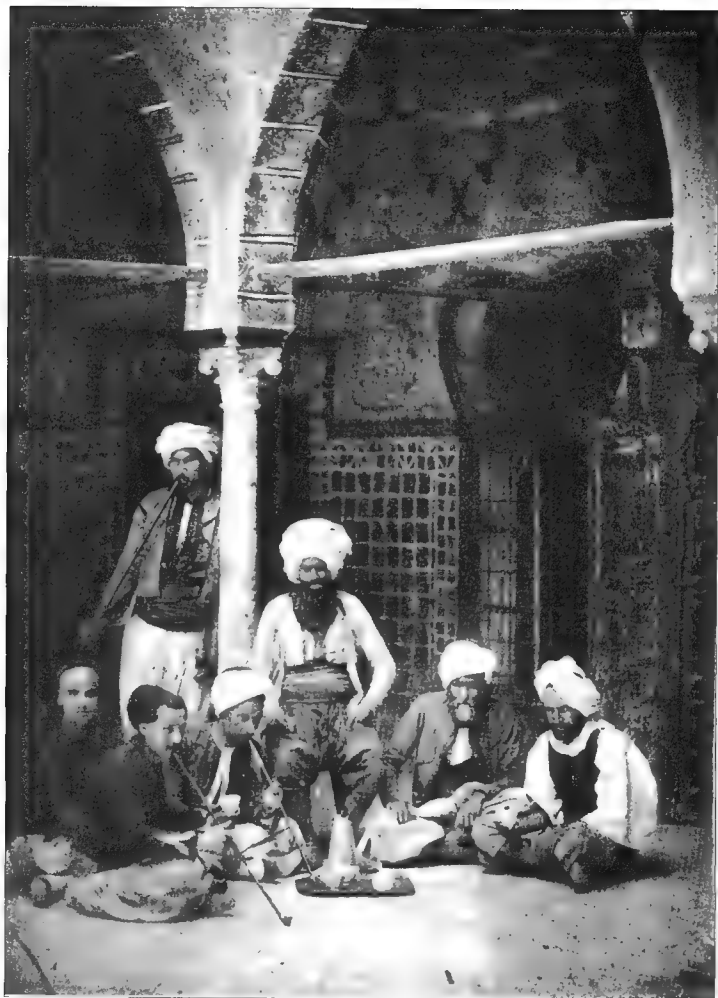
١٩٤٨

متحف بالقدس عام ١٩٨٨

طالبات مدرسة اليريمدر في رام الله ١٩٣٧



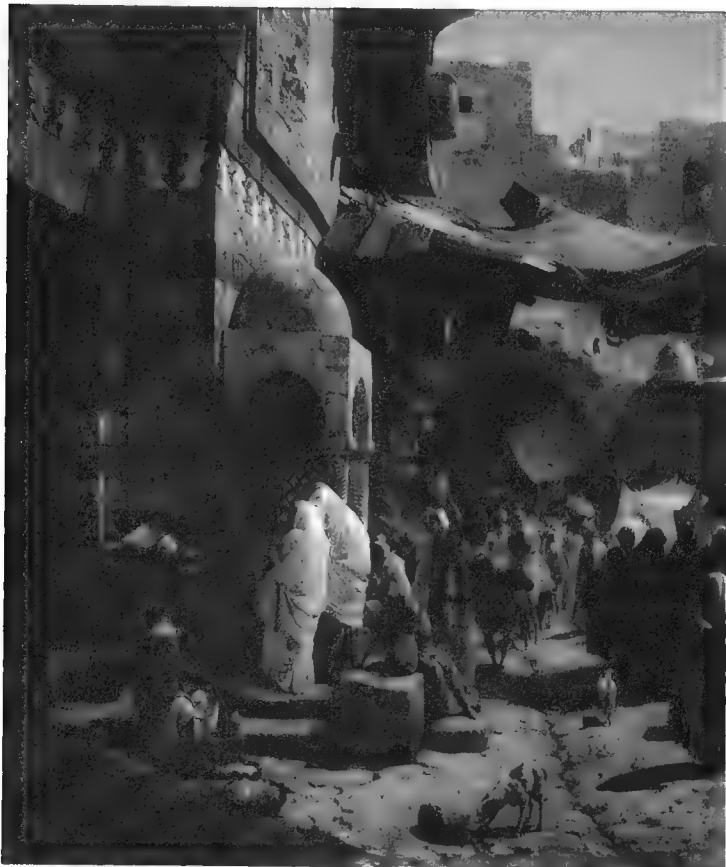




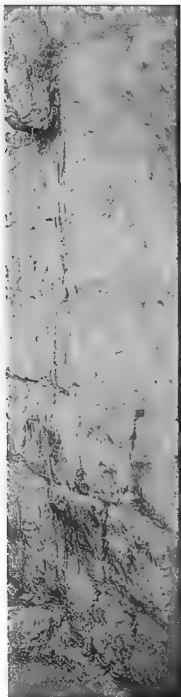
الشرطة الاستعمارية الدوينة تقيم بعميلش رعماء ديبين ومديين فلسطين عام ١٩٢٠  
الصورة السفلى من اليسار إلى اليمين وزير الدفاع اللباس اسلان ورئيس الوزراء السوري  
جميل مردم وشخص غير معروف ثم لحك عبدالله ملك شرق الأردن ورئيس كوراء اللباس  
رياض الصلح في اجتماع بدمشق الأردن قبل أربعة أيام من اندلاع حرب ١٩٤٨



البلد العربية يافا سنة ١٩١٧ والتي أحدث مكنها سنة  
١٩٢١ المدينة الأسر نهاية تل "يهد الرسم للمبـ الألمس  
جوستاف برنشتد خدم - سيق البلدة العربية القديمة



فتاة من رام الله بالرى التقليدى





ملاح من رام الله يوزل الصوف  
والصورة الأخرى لفتيات من بيت لحم بالزى التقليدى عام ١٩١٨

عائلة من الملاحين الفلسطينيين من رام الله عام ١٩



618 Peasant Family of Ramallah. Bauern-familie von Ramallah.

١٩٤٨



# من مشاهد "الخروج" الفلسطيني طيني

## "The Death March From Lydda"

### "شهادات إسرائيلية وبريطانية"



٩٩ دخل الجنود الإسرائيليون اللد في ١١ يوليو ١٩٤٨. كان يعيش في اللد ألف فلسطيني إضافة إلى حوالي ٤٠ ألف لاجئ من يافا ومن القرى المحاورة. وقد تم إعدام الفلسطينيين المأسورين في جامع دهمش. وأجبر الناس على مغادرة المدينة، حاملين بعض ممتلكاتهم. وقد قتل من تأخر في تسليم النفيس والغالى للجنود الإسرائيليين. كان ذلك خلال صيف قاسط. ووصلت درجة الحرارة فيه إلى ٤٠ مئوية. وكان اللاجئون يعانون من شحة الماء. ولم يصلوا إلى رام الله إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن قضى منهم ٢٥٠ على الأقل، بسبب العطش والتعب. يظل الطرد من اللد ومن مدينة الرملة القريبة، جرحاً عميقاً في الذاكرة الفلسطينية الجمعية. وهذا بسبب أعداد الذين طردوا والذين قتلوا وأحوال مسيرة الموت. ولكن هذا ليس الهول الوحيد للفلسطينية إبان تأسيس دولة إسرائيل. فقد طرد حوالي ٧٥٠ ألف فلسطيني من دولة إسرائيل الجديدة. والكثير ممن استطاع أن يظل في إسرائيل، أصبح «لاجئاً داخلياً» مع مصادرة ممتلكاته ومنزله ومصالحه وأرضه. وقد أحليت ٤١٨ قرية فلسطينية من سكانها تماماً. وهذه شهادات إسرائيلية وبريطانية عما حدث.

### تطهير عرقي

٩٩ في ١٢ يوليو ١٩٤٨، صدرت الأوامر للجنود الإسرائيليين الذين يقابلون الفيلق العربي والمقاتلين غير النظاميين المحليين في مدينتي اللد والرملة، جنوب تل أبيب، بإخلاء المدينتين من سكانهما العرب. وعلى مدى يومين، طرد ما بين ٥٠ ألفاً و٦٠ ألفاً من السكان من منازلهم. وقد أجبر الكثير منهم على السير شرقاً نحو خطوط الفيلق العربي، وحمل الآخرون على شاحنات وحافلات. وقد سد عشرات الآلاف من اللاجئين العرب، وهم يرمعون بين حين وآخر، بعض ممتلكاتهم التي أخذوها معهم وما عادوا يستطيعون حملها في مسيرتهم الطويلة.

عمليات الطرد التي أجريت تحت إمرة المفتحات كوتوفيل (حينذاك) إسحاق رابين، كانت جزءاً من التطهير العرقي الذي خلس إسرائيل من أغلبية سكانها العرب في لحظة الميلاد تلك. وبلغها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، كان القادة الصهيونيون قد

أجمعوا فيما بينهم على ضرورة «الإحلال transfer». كانوا قد أيقنوا أنه من الضروري شراء أو طرد السكان العرب من المناطق المقررة لإقامة الدولة اليهودية، من أجل فتح المجال للمهاجرين اليهود وأيضاً للتخلص من العرب الذين يمارضون، ويعنف عادة، إقامة مثل هذه الدولة.

.. وبهذه الطريقة أو تلك، تم تحقيق الإحلال. فقد ترك ٧٠٠ ألف فلسطيني البلاد ومنذ ذلك الحين ولدت مشكلة اللاجئين التي لم تستطع إسرائيل - منذ نشولها وحتى الآن - التخلص منها.

.. لو لم يطرد السكان العرب المحاربون الذين يعيشون في المناطق المخصصة للدولة اليهودية، لما قامت دولة يهودية، أو كانت ستولد دولة عرجاء ديمقراطية وسياسياً، فلا يمكنها البقاء طويلاً. كانت مسألة قبيحة. ولكن التاريخ هو هذا.

لم يكن قرار إسرائيل فريداً من نوعه، ولا كان بالضرورة غير أخلاقي... لأنه لو

لم يغادر معظم الفلسطينيين البلاد لما وجبت إسرائيل اليوم.

المؤرخ الإسرائيلي يئسي موريس لوس أنجيليس تأييز.

٦١ يناير ٢٠٠٤.

وجّهات نظر ٣١



الشهادات كاملة على موقع:  
www.leicester-holyland.org.uk

ترجمة: بثينة الناصري



## كتاب الزاوية



### عبد الناصر الرمز

محمود درويش

لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعبد عبد الناصر إلى الوقوف.

كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: «أبها إخوة المواطنين» ويبدأ... كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود.

وكانت فلسطين تقف على أقدامها تاهباً للتحرير. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: «أبها إخوة المواطنين» ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يمتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو.

وكثيراً ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويقلبونه في نشوة وطنية وإنسانية لا توصف. والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطاً بعودة عبد الناصر.

وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصاراً، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.

### يجب طردهم فوراً

المتحيزين العزل في أماكن الاحتجاز في وسط المدينة. في الجامع والكنيسة في الساعة الواحدة والنصف ظهر، من يوم ١٢ يوليو، قبل أن يتوقف إطلاق النار تماماً، أصدر مقر عملية داني، الأمر الآتي إلى لواء يفتاح. «يجب طرد سكان اللد فوراً بدون اعتبار للسن».

بيني موريس في،

The Middle East Journal  
vol 40, No. 1, Winter 1986



### الموت على الطريق

(عين جالوت)، سجل بعد عدة أسابيع من الواقعة، الطباعات حية عن العيش والجموع الذي عانى منه اللاجئون على الطرقات، وكيف «أد الأطفال، وكيف سقط طفل في بئر وعرق، دون أن يابه له الآخرون الذين كانوا يتصارعون على الحصول على الماء. وقد وصف جندي آخر المخلفات التي تركتها طوابير السالطين الذين يجرعون أقدامهم على الأرض (يبدأ من) «أدوات المطبخ والأثاث وأشياء بجيش الرجال والنساء والأطفال، متناثرة على طول الطريق، وقد مات بعض اللاجئين من الإرهاق والجفاف والمرضى - على طول الطريق شرقاً من اللد والرملة، قبل الوصول إلى استراحة مؤقتة قرب رام الله.

بيني موريس

في كتاب «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في ١٩٤٧-١٩٤٩»  
The Birth of the Palestinian  
Refugee Problem, 1947-1949.  
cambridge Middle East Library



### ١٧٦ جثة في المسجد

مما تسبب في مفارقة كل متطوعى (الفيلق العربي) المتقنين، البعض حرب من مواقع في وقت مبكر عند وصول أنباء بورود تعليمات إلى وحدات الفيلق الأردني المتمركزة قرب المدينة، من رئيسها البريطاني جلوب باشا بالانسحاب.

١٢ في يوليو ١٩٤٨، احتلت القوات الصهيونية اللد وفرضت حظر تجول. في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، أصاب النعر سكان اللد الذين هطلوا الأبواب على أنفسهم، لسماعهم اندلاع أصوات إطلاق نار في الشارع. هرع بعضهم إلى الشوارع، فأصابتهم النيران الإسرائيلية.. وفي الارتباك الذي تلا ذلك، قتل بالرصاصة الكثير من

١٢ في يوليو ١٩٤٨، احتلت القوات الصهيونية اللد وفرضت حظر تجول. في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، أصاب النعر سكان اللد الذين هطلوا الأبواب على أنفسهم، لسماعهم اندلاع أصوات إطلاق نار في الشارع. هرع بعضهم إلى الشوارع، فأصابتهم النيران الإسرائيلية.. وفي الارتباك الذي تلا ذلك، قتل بالرصاصة الكثير من

١٠ في يوليو ١٩٤٨ عين ديفيد بن جوريون، أيجال ألون قائدنا للهجوم واسحاق رابين الشخص الثاني في القياض. أمر ألون بقصف اللد من الجو، وكانت أول مدينة تقصف بهذه الطريقة. تبع ذلك هجوم مباشر على مركز المدينة،



## كتاب الزاوية



### بيوت مسروقة

محمود درويش

تريد أن تستأجر شقة؟

تقرأ أبواب الإعلانات في الجرائد. وتقفز إلى التليفون:  
سيدتي.. قرأت إعلاناً عن شقتك، هل لي أن أراها؟  
تصل إليك ضحكها وسعادتها فتتمتلي بالأمل: الشقة  
ممتازة يا سيدي، على الكرمل. تعال واحجزها فوراً.

تتسى أن تدفع ثمن المكالمات التليفونية، وتسرع إليها.  
تعجب بك السيدة، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد  
تسليم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة  
على رأس السيدة: ماذا عربي؟ عفواً يا سيد... اتصل  
غداً!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وهي كل مرة تعود خائئاً  
تقرأ شرفات المنازل، وتسال عن أصحابها الفائتين في  
رياح الهجرة والمنافى. كم من بيت بناء صاحبه ولم يسكنه.  
إن أصحاب هذه المنازل مازالوا يحتفظون بمفاتيحها في  
جيبهم وقلوبهم في انتظار العودة. العودة إلى أين؟ لو عاد  
أحدهم إلى منزله فهل يسمح له باستعمال مفتاحه؟ أو هل  
يوسعه أن يستأجر غرفة واحدة في بيته. ويقولون لك:  
«إن الصهيونية لم ترتكب خطأً. كل ما في الأمر أنها أحضرت  
شعباً بلا وطن إلى وطن بلا شعب».

وتسألهم عن بني هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك  
وينجبون مزيداً من الأطفال في بيوت مسروقة.

حيث استمرت القوات الإسرائيلية في ارتكاب مجازر أخرى، كان ٤٦٦ من النساء والأطفال (وجدت ١٧٦ جثة في الجامع). وفي اليوم التالي، ١٤ يوليو، اقتحم الجنود اليهود المنازل وأخذوا بعد آخر وأخرجوا السكان خارجها، ثم اقتادوا حوالي ٥٠ ألفاً منهم خارج المدينة باتجاه الضفة الغربية (أكثر من نصفهم كانوا لاجئين من قرى مجاورة).

الزورج الإسرائيلي إيلاش دابيه في كتاب «التطهير العرقي في فلسطين»  
The Ethnic Cleansing of Palestine  
(Oneworld Publications)

### كم عدد الأطفال القتلى؟

نكتله يدوية بعد الاستسلام قُتل عدة جنود إسرائيليين، قُتل بالبنادق الألية أكثر من ثمانين أسيراً عربياً... وقد أوقعت مجزرة جامع دهمش العرب في قلوب أهالي البلد.

مايل بالوس في كتاب «الكتيبة الفلسطينية، The Palestinian Catastrophe, The 1948 Expulsion of a People from Their Homeland»

### اقتحموا المنازل

الإسرائيلية فإنه لم تعتقل الرجال في سن التجنيد فقط، بل حجروا كل وسائط النقل. أي يعرف أحد أبداً عدد الأطفال الذين قتلوا نحيبهم في هذا الطريق.

لا يمكن إنكار أن اليهود في أوروبا تعرضوا لأشد أنواع التمييز، ولكن لا نذب لعرب فلسطين في ذلك. وكنا نأمل ممن عرف معاناة مثل تلك التي عاشها اليهود، أن يقسم الأ ينديق الآخرين شيئاً مما جرى له. حاول الفيلق العربي أن يقتل الجنود الإسرائيلي يبون أن يؤذي المدنيين. ولكن من يابه هذه الأيام قتل هذه الحماير.

الجنرال البريطاني جون جلوب. قائد الملق العربي الأردني في كتاب «جدي مع العرب»  
A Soldier with the Arabs, Harper, 1957

ويما أن اللد والرملة كانتا ضمن حدود الدولة العربية المقررة، فقد افترض السكان والمدافعون عنها أن الفيلق سوف يقاوم الاحتلال الإسرائيلي بالقوة. ولكن حين هرب المتطوعون وجنود الفيلق العربي، احتسى رجال اللد المسلحون ببنادق قديمة في جامع دهمش في مركز المدينة. بعد عدة ساعات من القتال استسلموا، ولكنهم قتلوا جميعاً داخل المسجد من قبل القوات الإسرائيلية. وقد أحصت المصادر الفلسطينية بأن عدد ضحايا مجزرة الجامع والشوارع المجاورة،

تذكر جندي شاب من البالماع أن جندياً «سار في شوارع اللد بمكبرات صوت وإعاءة الجميع بأن من يدخل جامعاً معينا سيكون أمناً، وهكذا دخل مئات من العرب جامع دهمش حاسبين بأنه لن يحدث لهم شيء، إذا جلسوا ساكنين وأيديهم فوق رؤوسهم. ولكن حدث شيء ما، وانتقاماً من هجوم

حالما احتل العدو المدينتين (اللد والرملة) حتى بدا الجنود تفتيش المنازل، منزلاً منزلاً، وتم اعتقال كل الرجال في سن التجنيد ونقلوا إلى مسكورات احتجاز. ثم سارت سيارات إسرائيلية بمكبرات صوت عبر الشوارع، تذيع أوامر للسكان المتبقين بالمعاصرة خلال نصف ساعة. يكسى القول إن الجنود اقتحموا المنازل وانتهبوا نوافحة وخشونة حرمة النساء من أجل إجبارهم على إخلاء المدينة.

قام على الرذلك حوالي ثلاثين ألفاً من السكان معظمهم من النساء والأطفال باختطاف ما يمكن حملهم من ممتلكاتهم، والهرب من منازلهم باتجاه الحقول المكشوفة. أما القوات

## من حكاية الأمل إلى رواية الفجيعة

في ص ل دراج

تتعامل «الرواية غير الفلسطينية» مع مقولات الاغتراب والخيبة وضياح اليقين، وتدور رواية المنفى الفلسطيني حول النصر واليقين وعودة الحق الأكيدة، والفرق بين الروائيتين هو: الأمل، الذي يفتح صاحبه بأن المنفى عارض، وبأن المستقبل استئناف للماضى السعيد.

يعرفون عنها شيئاً كثيراً، ويسبب ذلك يغير الآخرين ولا يتعين، يظل حيث كان، فليس لدى البلدة المراقبية ما تعلمه الفلسطيني لا ينقصه شيء، يأتي «البطل، ويرجع كما جاء، تاركاً وراءه مدينة تصحو، علمها الغريب أشياء غريبة عنها، لا تشهد رحلة البطل بين القدس ويقعدا على غرته، أو مناضا، بل على انتصاره، لأن الإنسان الكامل يحول الغنى إلى أوطان جديدة.

تكشف ثقافة البطل الفلسطيني عن اختلافه، وهي وجه من وجوه كماله وإعلان عنه. ثقافة حديثة فيها مكان للرسم والتحت والموسيقى والفلسفة، وفيها الفتح على ثقافة «الأخر الأوربي، وأصابع بها. فلا مجتمع يرجى إصلاحه من دون ثقافة تقتصر الإصلاح وأدواته، أمن جبرا مبرراً، منذ أن كتب روايته الأولى «صراخ في ثيل طويل» - ١٩٦٦، مفكرتين أساسيتين، تعميق الثقافة الحديثة أداة للإيقاظ المجتمع الفلسطيني وتحريره، وتقول الثانية بدور رسولاً للفلسطينيين في العالم العربي، ينقذ العرب من تخلفهم، فلم تهزم الصهيونية فلسطين، إنما هزمت «الحداثة الأوروبية، مجتمعاً فلسطينياً متخلفاً. أوكل جبرا، بهذا المعنى، إلى المثقف الفلسطيني دوراً مزدوجاً: تحرير مجتمعه من قيم بالية، وإيقاظ المجتمع العربي من سبات موروث.

يقود مفهوم الثقافة، كما أخبر عنه الروائي، إلى ثنائية: «التيخية والوعام، حيث المثقف لا يعرف يعلم البقية التي لا تعرف، والفرق بين الطرفين هو

إلى «اختصارين»: اختصر فلسطين إلى مثقف مفرد، استقرت فلسطين في كيانه ونطقت لسانه، واختصر المفرد الفلسطيني إلى إنسان كامل مشبع بالفصيلة. اشتق جبرا وطنه المفقود، الذي احتصره إلى مثقف نوعي، من علم الجمال وعلم الأخلاق، فالأمل بوطن ثماره من ذهب، يعرف الخير ولا يعرف غيره.



يولد بطل جبرا، منذ اللحظة الأولى، كاملاً، لا يتبدل ولا يتطور، وهو مسكون بالقدس مفتون بها، فهي مدينة من الذهب والفضة والزمره والبنفسج، كما يقال في صيادون في شارع ضيق، وهي مدينة المصوح الخصيب الملى بالأسرار، كما جاء في مثول، البحث عن وليد سمود، يصدر كمال البطل الفلسطيني عن كمال مدينته المقدسة التي تضاع مع البشر وخارجهم: فهو معهم بقوله وفعله، وهو خارجهم بحكمته التي لا يشاركه فيها أحد، ويتقافته الواسعة القريبة من الثمرة.

تحدث صيادون في شارع ضيق، عن فلسطيني جاء إلى بغداد بعد سقوط فلسطين، متعلّم فقير، يفوق الآخرين ثقافة ودكاء ووسامة، يؤمن له مصافحه الدائبة لنجاح أكيد، وتبرهن أن بينه وبين الآخرين مسافة واسعة، يعرف أكثر مما يعرفون، ويرى ما لا يستطيعون رؤيته، ويقول بيقم حضارية حديثة، لا

لأن الحديث عن صعوبة المنفى حديث عن نعمة الوطن. ولذلك لا يكتب الإنسان المنفى عن هشاشة الوجود، بل عن الإنسان المقاتل من أجل العودة إلى وطنه، ولا يتأمل الإنسان الذي تنتظره خيبة في آخر الطريق، إنما يخلق رواية الفلسطينية المثالي الذي ينتظره الانتماء.

تتعامل «الرواية غير الفلسطينية، مع مقولات الاغتراب والخيبة وضياح اليقين، وتدور رواية المنفى الفلسطيني حول النصر واليقين وعودة الحق الأكيدة، والفرق بين الروائيتين هو: الأمل، الذي يفتح صاحبه بأن المنفى عارض، وبأن المستقبل استئناف للماضى السعيد، تعوض رواية الأمل بؤس الحاضر بنعيم المستقبل مقربة، دائماً، نهاية سعيدة، ولعل النهاية السعيدة التي انتهت إليها الروايات الفلسطينية، في فترة صعود الفتح المسلح، هي التي جعلت منها رواية واحدة، تبرهن عن انتصار الأمل بأشكال مختلفة.

### ١. جبرا إبراهيم جبرا: المنفى وأسطورة الفلسطيني الكامل،

جعل جبرا (١٩٢٠ - ١٩٩٤) من الفلسطيني المتصور موضوع رواياته الأساسية الثلاث، صيادون في شارع ضيق، السفينة، البحث عن وليد سمود. انجز الروائي أعماله مطمئناً

ما معنى الرواية كما تعارف عليه بعض المنظرين؟ وما هو هذا المعنى إن قبلنا نتجيب محفوظ مرجعاً؟ لا وجود لحواب قطعي، دون أن يمحو ذلك معنى جاءت به الأزملة الحديثة، يستعجز عن اليقين بنسبية المعرفة ويحول الإنسان إلى علاقة تصوغها علاقات أخرى. يستقطب الحرف في رواية محفوظ «خان الخليلي، على شاب ملهى بالحياة ويقوده إلى الموت، وتطحن الرصاصات المقاتلة إنساناً ثاماً في «اللس والكلاب، وتصيب إنساناً بريئاً. وتصبر الجماعة المتشعبة في «ثرثرة فوق النيل، فلاحة بريئة. أقام محفوظ رواياته على مبدأ اللامتناهي، الذي يجزئ الإنسان جراً إلى وضع لم يهيج به، أو على مبدأ صدقة لها شكل القانون، تحرم الإنسان من خياره وترمي به إلى خراب مخالف مؤقت كالوابيس، أعلنت الصدقة عن وجود إنساني هش، يعطل رغبات الإنسان ويسحر من تطلعاته.

السؤال الآن هو: ما ضرورة التذكير برواية نتجيب محفوظ في دراسة موضوعها الرواية الفلسطينية؟ الجواب المنتظر قائم في الفرق بين رواي يعشق القاهرة ويعيش مطمئناً فيها، وروائي آخر كان يعيش في القدس وهجر بالقوة منها. يكتب الأول روايته في شرط عادي، ويصوغ الثأني روايته في شرط شاذ، يرمى عليه بالتهديد والفرقة. كان على الفلسطيني أن يسجل رواية المنفى، في انتظار زمن سوى، يتيح له كتابة «رواية عادية، مثل الآخرين. تنصمص رواية الخروج من الوطن رواية عن العودة إليه، وجهات نظر ٣٤



Essan Khamas



جبرا إبراهيم جبرا



حسين الدرويش

المخلص، وأن وديان فلسطين ترمي الفلسطيني وتدار عنه الخطر، قريباً كان من أرضه أو بعيداً عنها. لا غربة أن يسبغ الروايات على بطله صفات الضموض والفرابة والإبداع والإصغاء التي تحيل على فلسطيني لا يفصل عن أرضه ولا تفصل أرضه عنه، فينبههما وحدة وتواصل، لا ينقطع، فهو يذهب إليها حين يشاء، وهي تأتي إليه حين تريد، شيء قريب من الأفكار المتصوفة، التي ترى الله في الإنسان وترى الإنسان في الله، فالفلسطيني هو أرضه، والأرض هي الإنسان الفلسطيني، فلا هو يفادها ولا هي تداره.

خلق جبرا، بطلاً تحريصياً، يحدث عن إمكانية فلسطين، وعن بطولة غامضة قادرة على استعادتها، أنتج، في النهاية بطلاً مسكوناً بالمقاومة، يدعو إلى القتال وينبئ عنه في أن: يدعو إليه مؤكداً وحدة الفلسطيني وأرضه، فمعنى الفلسطيني في معنى القدس التي ينتسب إليها، وينبئ عنه، حين يحلق بطلاً منتصراً ندائه، يوبق قتاله عن قتال الفلسطينيين جميعاً. يفقد البطل التحريص وظفيفته قبل أن يقوم بها، بسبب بطل مطلق يتصر داته وغيره، يتقلب التحريص إلى تعويض، بقدر ما تنقلب المعركة إلى انتصار، قبل الذهاب إليها. يعتبر البطل الموفى في كماله عن حلم العودة إلى أرض تبتدوعودتها أمراً شافاً.

طرحت رواية جبرا سؤالاً صحيحاً يقول: ما هو شكل البطل الفلسطيني القادر على

يكون داهية من دهاة المال وظلاً غريباً لوديان سرية، وتسمح له أن ياتلف مع النار وأن يكتب بأسلوب له حرارة اللاهوت.

خلق الروائي بطلاً لا تناقض فيه، دون أن يدرك أن بطله المتهرب يحتمل امرين، إما أن يكون ميتاً، فالتم هو الذي يحزر الكائن من تقاضيه، أو أن يكون مغلولاً له علاقة له باليش، فهو ملاك أو روح تجاور الألهة. والواضح البسيط أن ولويد مسعود، لا وجود له، ولا إمكانية لوجوده، فهو أقرب إلى السماء التي يرى فيها العاجز المحروم ما يشاء من المعجزات والقوى الخيرة.

إنه البطل - الحلم، الذي يتوق إليه إنسان أزهقته الكوابيس، يحل بطل يتلاشى في ساحة اليقظة، تاركاً الكابوس الصهيوني ثقيلاً كما كان، وكما سيكون.



أعطى جبرا في «البحث عن ولويد مسعود» بطلاً تحمل صفاته الذاتية ضمان انتصاره. تأتي الصفات من الثقافة ويحيي الضمان من الأرض الفلسطينية المقتضية. قادة البحث عن ضمان الانتصار إلى الجمع بين بطولة الثقافة و بطولة المخلص، أي بطولة الفرق بين انتصارها. والواضح هو القول بدهاة الانتصار، ذلك أن القدس يهزم

أعاد جبرا في روايته «البحث عن ولويد مسعود» إنتاج أسطورة الإنسان الكامل. ورفعا إلى مستوى غير مسبوق، منتصباً إلى: البطل المطلق، الذي هو ترجمة روحانية لقول علم الجمال وعلم اللاهوت. فإذا كان البطل في «صدايوس في شارع ضيق» ينسحب إلى القدس قائلا بـ «قدس، لا نظير لها، فإن ولويد مسعود، هو القدس بعينه، تحتضن داته أسراراً غامضة، وتحمل في داتها أسرار السيد المسيح، الذي مشى فوق تراب فلسطين ذات مرة. يأخذ «وليد» في الرواية الصفات التالية: «هذا الغريب القادم من وديان مسجولة» اقل الناس اتانية وأكثرهم عشقاً/ التراب يتحول إلى ذهب بين يديه/ كلامه سهولة الهيان، كانوا يتصورونه داهية من دهاة المال/ جود الحقيقة في جبال وديان تقذبه سر/ كان يريد لهذا المجتمع أن يحقق ذاته عن طريق العقل والحرية والإبداع/ ذات مفهوماً بنزعة الإبداع المضاعفة/ يكتب بحرارة اللاهوت/ حول إلى أن المثل نفسه كان من قدبره/ امس رأته علاناً من دار وليد وكأنه عائد من زيارة ولي أو بطل أسطوري/ كأنه وهج حديد مسهور في بوتقة ذكاء ونفاد بصيرة وإتقان/ رجل عبر لاء ولم يغرق/ عبر النار ولم يحترق...<sup>(١)</sup>

العروب، المجهول، المعجز، الغامض، المبدع، الأولي، البطل، الولي الأسطوري، هو ما لا يعرف، وما لا تدركه العقول. إنسان ما هو بالإنسان بفعل ما يرغب ويأتي فعله كاملاً... أنه جملة من الاتصافات المتصاحبة، التي تتيح له أن

الفرق بين الماضي والمستقبل، وبين العلوم والمجهول، ذلك أن الاغتراب من المجهول يثير في العوام الخوف والرهبة. يرمى الفرق بين المثقف والعوام مثقف جبرا في اغتراب لا تسهل معالجته، فهو يعرف ما لا يعرفه غيره، ويرى إصلاح الوعى العام أمراً بالغ الشقاء. لهذا يراهن المثقف على المستقبل، وعلى فئة يعلمها وتحاكمه في القيم والأحلام، يصل جبرا، إن شاء أم أبى، إلى: المثقف الرسولي، أو المثقف القائد، الذى، المثقف الذى يفتش على الآخرين ويقترب عنهم: والصواب، ويفتر عنهم لأنهم لا يهون من كلامه إلا القليل. يظهر اغتراب المثقف الفلسطيني، الذي يروض النفس ولا يروض البشر إلا بقدر في روايته، صدايوس في شارع ضيق، التي تسجل حواراً طويلاً بين عقل مستنير وأرواح فجة متكنسة كالحة. يمثل الحوار أداة فنية

تخبر عن تصور العالم لدى شخصيات مختلفة، وتكشف عن نفاد البصيرة الفلسطينية والعامة الذي يلف غيرها. تلعب الشخصيات الروائية، في هذه الحدود، دوراً مزدوجاً، فهي تمثل ذواتاً مستقلة ذات ملامح محددة، وهي برابا صقيلة تعكس تميز المثقف الفلسطيني وسيطرته على ذاته واختلافه في غيره. بل إن الشخصيات بالمعنى الدقيق، مرابا إدرية، إن صم الحول، يتوسطها مركز فلسطيني، محاط بظنابا بشرية، لا تطاوله ذكاء وثقافة وروامة.

## خلق جبراً، بطلاً تحريرياً، يحدث عن إمكانيات فلسطين، وعن بطولة غامضة قادرة على استعادتها

لؤي



على لقل، واجب الوجود، من حين الأفكار إلى حين الواقع.

صاغ غسان أفكاره الروائية، التي قطع تطورها موت ميكيك مشدوداً إلى ثلاثة عناصر: عنصر أخلاقي يفصل بين الإنسان المزائف الذي يرضى بعاره والإنسان الحقيقي الذي يدافع عن كرامته حتى الموت، وعنصر كتابي يقتل أن الكلمات الصادقة قادرة على التحول إلى حقائق مادية، وعنصر ثالث يأتي من جهة العدو الذي وحد بين المشروع السياسي والمشروع الكتابي، ويبرهن أن العنصرية الأدبية مقدمة للعنصرية السياسية. اعتقد غسان، وهو يقرأ «الأدب الصهيوني»، بقوة الكلمات، صهيونية كانت أو معادية لها، ويسور الكلمة الصهيونية التحريرية في نجاح المشروع الصهيوني فوق أرض فلسطين. يقول في كتابه «في الأدب الصهيوني»: «وسيقوم هذا الأدب، بدباب لا مثيل له، بهجمة مزعومة، من ناحية المشاركة في تعبئة اليهود عبر العمل على خلق جو عالٍ للعنف على صفتهم، ومن ناحية أخرى طمس كل ما من شأنه عرقلة المشروع الصهيوني... والذي لا شك فيه أن ثيودور هرتزل كان أول من أعلن هذا الانحياز صراحة في مطلع القرن العشرين، حين نشر روايته «الأرض الجديدة القديمة»، هذه الرواية التي استبقت، عند هرتزل نفسه، الصهيونية السياسية، وكانت حافزاً لطلب هرتزل «الغنان» إلى هرتزل «السياسي»...»<sup>(١)</sup>

تقول بطور غسان بامرير. تحول الفنان، غير الكتابة، إلى قائد سياسي، كما لو كانت الكتابة فعلًا خافياً. تعيد خلق الفنان وما خارجه أيضاً، ودور الكتابة في تحويل الأرض القبيحة إلى أرض جديدة. يتحين الأدب في هذا المنظور، مرجعاً للسياسة، ويتعين «الأدب السياسي، مدخلاً ثقل» (الأرض، من وضع إلى آخر، دفع هذا التعميم الذي يطرح أسئلة كثيرة، كثنائي إلى العمل السياسي، لا بمعنى التحويل فقط، بل بمعنى ممارسة دور تنظيمي قيادي، ودفعه، في الوقت ذاته، إلى كتابة رواية تجعل من الأرض المستعصية أرضاً مستعمدة. ما روايته: «ما تكلم لي، نموذجاً لـ «الكتابة الخائفة»، التي تحول الأرض القديمة إلى أرض جديدة، بلغة صهيونية، وتحول الأرض الغصبة إلى أرض محررة، بلغة فلسطينية.

### ٢ - غسان كنفاني وإثبات الفلسطيني المقاتل

وحد جبراً بين البطل، الحلم وحلم تحرير فلسطين. احتفظ غسان كنفاني (١٩٣٦ - ١٩٧٢) بالحلم وعهد بتحرير فلسطين إلى بطل مختلف، لحقه التجربة اليومية القاسية، التي تعلمه اللاجئ الفراق بين الدال والكرامة، وأن الاصطدام المباشر مع العدو سبيل وحيد لاستعادة الكرامة المفقودة. اعتبر كنفاني أن الخروج من الوطن عام، وإن الخيم صورة من العار وتجميد له، وإن الإنسان الحقيقي هو الذي يختار ويقتر ويرفض ما فرض عليه، ويتنصر. حكاية واضحة محددة عناصرها: الخروج المهين من الوطن إلى الخيم، التمرد على الذات وشروط الخي الخائفة، والفتح المسلح الذي يمحو عار الخروج بعودة مظفرة.



أقام كنفاني مشروعه الروائي، باستثناء روايته «رجال في الشمس»، على أفكار قاطعة: التمرد الضروري الذي يكشف عن إمكانيات الفلسطيني المربية واللامربية، دور الكتابة التحريرية التي تمثل الإنسان المهوم من الاستسلام إلى التمرد، الفاعلية الحقيقية للكتابة التي تميز بين الوجود وواجب الوجود، والقادرة

والصخر على حافة كل طريق في المدينة. أينما ذهبنا رأينا أناساً يكسرون الصخر ليرصف الطريق، أو ليلبثاء. متعلق الصخر حول المدينة. فلسطين صخرة تبني عليها الحضارات، لأنها صلبة، عميقة الجذور، تتصل بمرکز الأرض. والتين يصمدون كالصخر بينون القدس، بينون فلسطين كلها. خفيفة له؟ سمعان الصخرة، والعرب، ما الذي ابتنوه ليكون من أجل ما ابتنى الإنسان من عمارة؟ فيه الصخرة. وهؤلاء المزارعون في الصحراء في الليلة المقمرة ترى رؤوسهم وأكتافهم نائلة من صحرا، ولا في صحرا وبركة السلطان ما الذي نهوا فيه؟ الصخر الذي يحيط به الماء... فلننظر للصخر...»<sup>(٢)</sup> يتنزل بطل جبراً بما يود جبراً أن يتنزل به، لأن في الصخر ما يخلق فلسطين المرغوبة وما يخلق البطل الذي تشبهه فلسطين. فالصخرة، لغة، هي الحجر العظيم الصلب، والصالخ، لغة، هو صوت الحديد يصمعه إلى بعض وجاء في الحديث النبوي: «الصخرة من الحنة، وفلسطين المخلوقة من الصخر جزء من الجنة، أو جنّة أخرى، أرض إلهية، لا يستطيع الشر حيالها شيئاً. وابن الصخرة، أي الفلسطيني، مخلوق مبارك على صورة أرضه، لا تحته الأيام، قوي ومخلص كـ «سمعان الصخرة»، الذي انتبه المسيح خلية له. عثر جبراً على إجابات أسئلة في «الجنة»، التي هي ميتة الأحلام ومنهاتها.

مواجهة التحلف العربي والعدوان الإسرائيلي، وصل السؤال إلى بطولة النقاة مفتحة جواً صميحاً، قيل أن بركة المنى ويبرز الكمال بالنقاة والنقاة بالقدس فالكمال، كما القدس، وهما فكرتان دينيتان، تعطلان الواقع. أو يساوي، باللغة الفلسفية، بين الكلمة والشئ وبين الحلم والواقع. أو يساوي، باللغة الفلسفية، بين الإمكانية المجردة والإمكانية الفعلية، والمتنظر في الحالات جميعاً، زمن ذهني قادم، تتحرك الرغبات فيه طليقة ولا تصطدم بما يكرهها. ولها نهى بطل، صمياون، في شارع ضيق، عمله في بغداد ويوم إلى أهله مطمئن، متعلداً أملاً وتفاؤلاً. ويوم الفلسطين في «الصفينة» إلى أرضه، ليزرع الأرض ويستمتع إلى الموسيقى، ميتعداً عن التالين الهاربين من وطنهم. لا شيء في النهاية لا يصغر في البداية، مادام الفلسطيني يحمل في ذاته ضمان انتصاره، ولا شيء في البداية لا يعد بالنهاية السعيدة، أما «وليد مسعود، فيدخل إلى فلسطين ويخرج منها حين يشاء، محمداً بأسرار غامضة، إنه الغريب القادم من وديان مجهولة، تقول الرواية. والغريب الفلسطيني، غريب عن البشر العاديين لا عن أرضه، لأن «الوديان المجهولة، التي جاء منها ندمه بائحة لا يراها أحد.

اشعل جبراً إبراهيم جبراً سؤال الانتصار على العدو الصهيوني، في شرع عربي متخلف لا يعد إلا بالهزيمة، دفعه سؤاله إلى الانتقال من شروط الانتصار المادية إلى معادلات وغيبية، تعبّر عن عزلة اللاجئ الفلسطيني المؤسسية وعن ضرورة انتصار انتقل في سؤاله من الشخص إلى الجرة، ومن الواقع إلى الحلم، ومن السياسة إلى الإيمان. آخر مساره عن أسى المهزوم، وعن آخر ضروري ينتظر المحررة، أعاده إيمانه الحزين إلى فلسطين، محاولاً أن يبرهن أن فلسطين تنصر فلسطين، دون حاجة إلى من خارجي. عثر في محار «الصخر، عما أراد، وماواي بين الصخر وصمايه فلسطين، يقول ودع عساف بطل «الصفينة»، لقد جعلنا من «الصخر» سرّاً نتقاسمه فيما بيننا. فلما إن الصخر يرمي إلى القدس، شكلها شكل الصخر، تصاريفها تصاريف الصخر

## استولد غسان بطله من عالم الضرورة، فعلى الفلسطيني أن يكون ما يجب أن يكون.. والأكان إنساناً بالأساس جديراً بالاحترار



تتحرك بذاتها، ومرحلة كسر القيود التي تجلب حركة طليقة، ومرحلة الفعل الحر الذي يقضي إلى الانتصار. يخلق التمرد، الذي شاقه الرغبة الكتابية، الصبي من جديد. «كان صميراً وشجاعاً بصورة لا تصدق. وقد ظل ينظر بعينيته الحادتين إلى كل الرجال نظرة الندم، وبدا جسده الفتي تحت ثيابه متيناً ومتحفظاً كجسد قتل بعد... صفات تجعله يقول، «سانتزوج حين أجمع العائلة من جديد في بيت أفضل من هذا الجحيم القمى...». لا يعطى غسان، ظاهرياً، بطله المرغوب دفعة واحدة، كما يفعل جبراً، ذلك أنه يشق من الفعل المتمرد الموعود منطقياً على ثلاث مراحل، الاستسلام، المسألة وديابات الرفض، القطة المنتصرة. لكن منطلق الرغبة، أو حلم العودة، الذي يهشم الواقع العيش، يحو الفرق بين البطلين مادام المطلوب في الحالتين، بطلاً نموذجياً يقاتل العدو الصهيوني وينتصر عليه، تساوي «المنجاة التي لا تصدق»، التي ينسبها غسان إلى صبيه المتمرد، «صلاة الصخر المقدس»، التي هي صفة نعل جبراً، يلقي البطل المنتصر بفريق الشرق بين الحاضر والمستقبل، فال حاضر زمن معرض يعلو المستقبل على شأله، والمستقبل حاضر متمرد على حاضر مريض. تفصل الرغبة الحاضر والمستقبل فصلاً كاملاً عن الماضي محدث، بشكل آخر، عن زمن يتنق من ذاته، يشهد على كفاية سعيدة النهاية.

يقول الصبي المتمرد: «سانتزوج حين أجمع العائلة من جديد، مساوياً، دون أن يقول بذلك، بين القادم وما سيأتي. تلقى «سين المستقبل»، هي الكتابية التي، «مضى المستقبل»، لأن النموذج الكتابي التحريضي الشرق بين يديته يوجب الرجوع. كما يجب أن يزول وما يجب أن يوجد. لذا تبدأ الرواية بالانقرب الليل، «صار يوسس الآن أن ينظر مباشرة إلى قرص الشمس معلقاً على سطح الأفق...» وتنتهي مع تراجع الليل وطلوع الشمس. الليل هو الاختيار الصعب الذي يكاد به الصبي الفلسطيني، الذي يتدرج في الصحراء، ومطلع النهار إعلان عن نتيجة الاختيار، «أضاء شعاع الضمير الضيق المتسرب من نافذة خطأ رفيعاً من الدم..» تقول الرواية إن الدم السراق في مطلع الصباح هو دم الفلسطيني الخائى والدم الجندي الإسرائيلي معاً. ■



الواقع، وواقع الأمر أن الأديب الفلسطيني يحاكي الفنان الصهيوني، متعلم منه ويخضع ويحاول أن يحاربه بسلحه. فلهذا أن الألب الصهيوني يصير الأرض القديمة أرضاً جديدة، فعلى الأدب الفلسطيني أن يكون الفلسطيني اللاجئ إلى فلسطيني جديد مقال. يحقق النموذج الكتابي، الذي قدّمه كنفاني، التطور الذاتي، فالكمح المسح يعمل العار، والسكين التي تقتل الفلسطيني الخائى تصيد إلى المرة الخبوة شرها المهوود. غير أن التطور الذاتي، وهو تنوع لا أسطورة الإنشائي الذاتي، لا يتحقق إلا بـ «إنسان الكتابة، أو الإنسان كما تريد الكتابة، الذي هو شكل من أشكال «السوريان». صاغ جبراً، في البحث عن وليد سمود، «سوريان» فلسطينياً، يشبه الولي «والجبل» الأسطوري، وأخترع غسان صبياً، معجزة يهزم عدوه ويجمع العائلة المشتتة من جديد. تصف الرواية تحولات الصبي - المعجزة شقوت: «طوال ستة شبر عاماً لفوا فوقه خيطان الصوف حتى تحول إلى كرة. وهو الآن يمكنه تاركاً نفسه يتدرج في الليل.



توزع الرواية حركة الصبي على ثلاث مراحل: مرحلة القيود التي تختزل الصبي إلى كرة يحركها الآخرون ولا



حين اشتق جبراً إبراهيم جبراً قوة «الفلسطيني الأعزل، من صخر بلاده، كان يترجم، على طريقته، معجزة الإنشائي الذاتي، الذي يساوي بين الفلسطيني وأرضه، وبين الأرض الفلسطينية والمعجزة الإلهية. أخذ غسان كنفاني، بدوره، بمعجزة الإنشائي الذاتي، مستبدلاً بالصخر القدس الورق، قوة إنسانية، تنبثق من داخل الإنسان حين يختار التمرد ويذهب الرضوخ إلى غير رجعة. اعتقد غسان كل ما هو خارج «الباب»، التي ترفض كل ما هو خارج الإزادة الإنسانية، أن الإنسان الذي فاتته أو يفترق ميلاده قادر أن يحترق موته، دون تدخل قوة خارجية. إن أسطورة الإنشائي الذاتي، التي يؤمن بها السياسي، الفنان، التي تعيد صياغة الصبي، كي يصبح مقاتلاً نموذجياً، يصنع الجندي الإسرائيلي في الصحراء ويدفع اخته، في اللحظة عينها، إلى قول «تأت، لا يلق بها.

لا يلتفت كنفاني، كما جبراً، إلى السببية الاجتماعية، التي تؤمن الخنوع أو التمرد معترفاً، وهو الموقف الثوري، من التصورات المبنية التقليدية، التي تدعو إلى أهداف كبيرة ولا ترى إلى الشروط الاجتماعية الواصفة لها. يفهم التصور الروائي، والحال هند، بأمر، تهميش الموجود وتأكيد واجب الوجود، الذي يستبدل بإمكانية الواقع بقيات الكاتب والقارئ اللاجئ معاً، ويقدم نموذجاً حكاكياً تروياً، على القارئ أن يحاكمه، وأن ينقله من حيز الكتابة إلى حيز

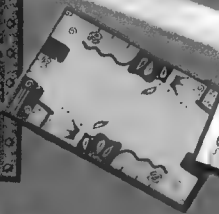
تسرد رواية «ما تبقى لكم، أحوال عائلة فلسطينية لجأت من يافا إلى غزة، حاملة معها عازراً مزدوجاً: عاز الهرب من الوطن، وعاز الحياة في مخيم يفتقر إلى شروط الحياة. أضاف غسان إلى مأساة العائلة من حيث هي مأساة عامة، مأساة خاصة صادرة عن أوضاع ومصائر أفرادها: غياب الأب الذي قتل دفاعاً عن أرضه، غياب الأم التي تاهت وانفصلت عن ابنائها، خالة عذو ينتظرها موت وشيك، وأخت شبه «عاص»، عبت بها فلسطيني «تأت، بلغة الرواية، عميل للعدو الصهيوني، وأخ صبي في السادسة عشرة من عمره، يحن إلى أمه ويمتدح اختاً القترت يخلان متمازجان مع الصهاينة... تنتشر كل شخصية علاجاً، بعيداً من دائرة التلامع إلى دائرة تتسم بالصواب والانسجام. فالأب الشهيد ينتظر من ينتقم له، والأم الغالية تتوقع من يعثر عليها، وأخت مدفونة بخيار باليس لا يمكن القبول به، والأخ الصغير مزمع لا يستطيع علاج ما يجب علاجه، وفلسطيني ينتظر من يعاقبه، وهو صهيوني هو سبب هذه الأوضاع جميعاً. جملة من الأوضاع المتناقضة، يوردها الروائي على جملة من الشائيات الصادة: الأرض/الحكيم، الوطنية/الخيالة، القدس/المهجرة، المعز/القوة، العاز/الشرف. الاستسلام، التمرد... ■



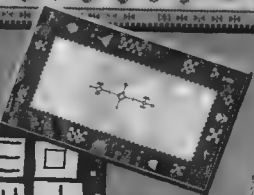
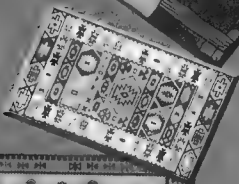
تطرح الرواية، في علاقاتها المختلفة، قضيتين أساسيتين: علاقة الإنسان بأرضه وعلاقة أرضه به. فخرار الوطى منشج على جهنم، ووحدة العائلة الضرورية، لأن وراء العائلة المفككة جهنم أخرى. كل شيء خارج وضعه السوي، يتطلع إلى إنسان مثق يعطيه خلقاً جديداً لا ضوا فيه. وضوء العائلة، كما ترسمها الرواية، لا تتضمن الموتى ولا تعد به. يظهر في هذه اللحظة دور الفنان السياسي، ليسرد، حكايات، ضرورة ظهور الإنسان السوي، الذي يعالج شذوذ وضع الأرض والعائلة معاً. اشتق جبراً بطله من الصخر المقدس الذي لا مية له الضوء، واستولد غسان بطله من عالم الضرورة، فعلى الفلسطيني أن يكون ما يجب أن يكون، والأكان إنساناً بالأساس جديراً بالاحترار.

لغة الأرقام

سورة الفاتحة

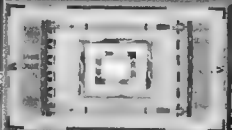


دواسات حمام



متواجد في مراكز بيع بواقى

قطع موكيت



سجاد أطفال



مدير المنتشرة في كل ارجاء مصر

شرقي

مطبوع

مشايات

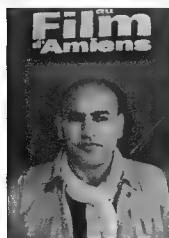
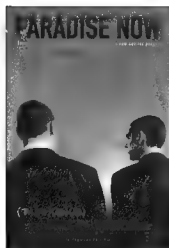
سجاد صلي

[www.maccarpets.com](http://www.maccarpets.com)

# السينما الفلسطينية

من «عرس الجليل» إلى «يد إلهية»

إبراهيم العريس





# كانت أهمية عرس الجليل، تكمن في قوته التعبيرية وفي خروجه عن المألوف الفلسطيني، في ووجه السينما، فن السينما، من الباب الواسع، ما عتني، تحديداً، أنه أوصل السينما الفلسطينية إلى نقطة الالعودة



الحقيقية التي كان عرض «يد الالهة» تنويراً لها. فالولادة مع توفيق صالح وبرهان علوية كانت مستعارة تحديداً، على ضوء الولادة التالية التي كان لا بد لها ان تظهر ذات يوم. واللافت حقاً هو ان هذه الولادة التالية، إذا كانت قد قطعت مع كل التاريخ الذي مثلته السينما الفلسطينية (ثورة) من سينما غودار إلى مصطفى أبو علي، ومن غالب شعث إلى قاسم حول وجان شمعون (...). فإنها لم تبتدئ بدياً على الأقل - على النضالية الثورية - مع تجرئتي توفيق صالح وبرهان علوية الانتقاليين. غير ان هذه مسألة قد تحتاج إلى دراسة خاصة. أما هنا فإن هذا الأساس يظل منصعباً على تلك اللحظة التي كانت في عرفنا، ولادة سبقت حفل اختتام مهرجان كان، الذي لوح «يد الالهة»، ومعها اسم فلسطين في ملكوت السينما العالمية وليس في ملكوت النضال السياسي الأيديولوجي على الصعيد العالمي

## الاسم الواضح

للك اللحظة حملت، هي الحقيقية اسماً هو عرس الجليل، ذلك الفيلم الفلسطيني الذي في وازة شبه ماضية من «كفر قاسم» وبرهان علوية، سجل لحظة الظلمة الكبرى التي كانت السينما الفلسطينية تنتظرها لتعيش حياتها الجديدة. كان «عرس الجليل» مهمة حقها بقوة، ولأنه اختراع الفلسطيني وفي يقيننا ان تلك اللحظة كانت القاملة القانونية التي أولدت برع عرفنا ذاتياً من تاريخ عشرين من السينما واضعة أطلالها البارزة في واجهة الأحداث السينمائية في العالم. والواقع إننا اليوم، إذ نستعرض تاريخ عشرين من الزمن (من 1947 تاريخ ظهور «عرس الجليل»، وحتى اليوم) والنجاحات الأكيدة التي حققتها أفلام المخرجين الفلسطينيين خلالهم، سوف يهتضن، وإد إلى معظم هذا خلافاً، كيم «القصبة» برمتها لم تعرف قبل ذلك كيف تنتج فيلمها الكبير. حتى لحظة ظهور ميشال غليم، خرج «عرس الجليل» وتبدو مخرج

منها ما يرتبط بالناويا الحسنة ومنها ما يرتبط بالرفيعة التجارية. لكن النتيجة كانت أنه، كما تأخر إسماعيل الفلسطينيين الصريح، سواء أكانوا من الداخل أو من الخارج، باسم فلسطين إسماعيل المبدعين الفلسطينيين بسينماهم. من أجل فلسطين واسمها الفلسطينيون على قضيتهم، مع ظهور حركة فتح والتنظيمات اليسارية، ثم حققت أفلام كثيرة، ثم لاحقاً حين قبض الفلسطينيون وتحديداً منظمة التحرير الفلسطينية، صار كلمة وجود لسينمائيين فلسطينيين وإن تواجدوا في جانب فلسطيني أجنبى، عرب، أتوا ليبروا دائماً من وفوقهم السينمائي إلى جانب فلسطين. وعلى هذا النحو ولدت سينما فلسطينية، نضالية وغالباً أيديولوجية كانت مجرد عمل رديف للعمل العسكري والسياسي الفلسطيني. وعلى رغم كل الاعتراقات التي حققتها هذه السينما، وصولاً إلى تيسر التناقض والسينمائيين في العالم لها، في زحمة سنوات النضال اليساري والتقدم على صعيد العالم كله، كان كثير يشيرون أن السينما الفلسطينية لا تزال في حاجة إلى أن تولد... ولو من جديد، صحيح أن مخرجين عربيين كثيرين هم توفيق صالح (من مصر) وبرهان علوية (من لبنان) سوف يؤمنان هذه الولادة، عند نهاية سبعينيات القرن العشرين. لكنها على أيضا سنوات ولادة مستعارة، حتى وإن كان «الخيوم» توفيق صالح، عن رواية لغسان كنفاني، وكفر قاسم، لبرهان علوية عن رواية لعاصم الجندى. وحتى لو كان الفيلم الفلسطيني الموضوع في الحقيقة آمن هذان السينمائيين، والذين يعتبران دائماً من بين أفضل الأفلام العربية في تاريخ الفن السابع - مرحلة انتقال من سينما متشعبة سياسية أيديولوجية قطعت (هي) مع الأعمال التجارية الروائية العربية التي تحدثت عن مواضيع لها علاقة بفلسطين، (سواء أحققت، مصر مثل «قاعة من قاعاتها» وأرض السلا، أو في لبنان مثل «كلنا فدائيون، أو «الفلسطينية» وما شابهها، أو في سورية... إلى السينما الفلسطينية

وتعرف طبعاً أن جزءاً كبيراً من «ماجداد» السينما الفلسطينية بنى على هذا النحو. ونعرف كذلك أن هذا لم يرد السينما الفلسطينية كثيراً، وإن كان أفلام سينمائيين كثر تحركوا باسم فلسطين وحقوقها المكاسب. ولكن سنة 2002 كانت أمور كثيرة تبدلت، وخصوصاً إذ راحت الأمور تتعلق بمهرجانات لا تلتقي بالآ كثرراً للقضايا السياسية، حتى وإن شابتها في أحيان عديدة حميات سياسية. لكنها، في «كان»، لم تكن من النعم التي يمكن لعلميين أو سينماها أن يستفيد منها. ومن هنا كان واضحاً أن إيلا سليمان حين تبارى ب «يد الالهة» كان يتقدم من متعلق إبداعى، إلى من متعلق نضالي. ومن هنا أيضاً، نفترضنا إلى تلك اللحظة على أنها لحظة تاريخية. كانت بالآخرى، لحظة ولادة جديدة لسينما فلسطينية لا بأس من القول هنا أنها عرفت ولادات كثيرة قبل ذلك... ولادات حقيقية وولادات مستعارة حسب النظرة. لكن المهم في ذلك كله هو أن هذه السينما ولدت يومذاك من جديد، مع فوز «يد الالهة»، في ذلك المهرجان الحالى، أشر إلى الضائق الأساس بين الولادات. وحتى ولو أنها لم تكن الولادة الحقيقية الأولى.



مهما يكن فإن هذه الولادة الحقيقية ليست بعيدة زمنياً. أو جغرافياً عن ولادة «كان»، حتى وإن كنا نعرف أن للسينما الفلسطينية تاريخاً طويلاً، يعود إلى ما قبل النكبة... إلى سنوات ولادة أو رغبة، في القدس، في تحريك الكاميرا لتصوير فيلم ما. بعد ذلك سارت تراجعات السينما الفلسطينية بشكل قد يبدو كالتقليد، وفي ارتباط مع تراجعات القضية الفلسطينية نفسها: شرطلت تسجيلية، سينمائيون في المنفى، رغبات تكبتها الجغرافيا والسياسة. ثم شاعراً كما أن القرب بشكل عام مجلوا أنفسهم بعيداً، القضية الفلسطينية ورغبوا في حلها، أو الزحف باسمها. أو باستغلالها أو تحويلها مشجياً (والعالم حسب وجهة النظر). حمل السينمائيون العرب وهم، السينما الفلسطينية بأشكال مختلفة،

حدث ذلك هي دورة سنة 2002 للمهرجان وكان، السينمائي الدولي. وفي حفل الختام تحديداً، يومها كانت كل التوقعات تشير إلى أن فيلم «يد الالهة» لإيلا سليمان سيكون واحداً من الأفلام التي ستفوز بأحدى جوائز المهرجان. منذ عرض الفيلم قبل ذلك بأيام قال كثر إنه قد يفوز بالسمعة الذهبية. ولكن بعد ذلك راحت التوقعات لتتدافع هيولاً، ليس لأن ما عرض بعده في المسابقة الرسمية كان أفضل، بل لأن تساوياً صار بسرعة حول ما إذا كان حقاً في إمكان مهرجان السينما الأول في العالم، والذي تتخاطب فيه المساحيل والحياسيات، أن يعطي جائزته الكبرى لنضيل من فلسطين... إن الأمر كان لا يتطابق مع طعته هذه المهرجانات واليات الأمنية مقتصرة على مجرد فوز أو صفيح يضع اسم فلسطين في أجواء احتفال يحضره ألوف السينمائيين والصحافيين والنجوم، ويتابع أحداثه عشرات الملايين من على شاشات التلفزة. والحقيقة أن هذه الأمنية تحققت ويكثر مما توقعنا. ذلك أن الجائزة التي أعطيت ب «يد الالهة»، كانت ثانياً أكبر جائزة في المهرجان، ليسهل ذلك رافع فوز كبير يحققه سينمائي عربي في «كان»، بعد السمعة الذهبية التي نالها وقائع سنوات الحمر، (1948) لعمد الأخضر حاميها، وجائزة لجنة التحكيم الخاصة التي ذهبت سنة 1991 إلى اللبناني (الراحل بعد ذلك) مارون يوسف، ثم خاصة جائزة الخمسينية الكبرى، التي نالها يوسف شاheen سنة 1997. في حسابات «كان»، كان انتصار إيلا سليمان من «يد الالهة» كبيراً. أما في حسابات السينما الفلسطينية فكان استثنائياً. فالحقيقة أنه كان يقال في الماضي أن من بين كل المهرجانات المتوجهين إلى مهرجان ما للمشاركة في مسابقة سينمائية معينة، كان الفلسطينيون واليهود الذين لا يتعين عليهم الشعور بأى قلق فهم سيأفلون جائزة أي حال من الأحوال. لا سيما في حالة المهرجانات الكثيرة التي كانت ذات سمات نضالية وتماطف، بشكل طبيعي، مع القضية الفلسطينية بحيث يكون معيار الموضوعية، لا فنياً إبداعياً.



والأثنى فندون والأميركي الضاروش. ونحن لنن كنا نذكره هذه الأسماء هنا فليس الأمر مصادفة، لأن الحالة إلى سبيل ما هؤلاء وأعضاها في «سجل اختفاء»، بل تكاد تكون واضحة أساسياً من عناصره. ومن هنا سبب إغراق الفيلم في مرجعيته السينمائية، ولكن كذلك في مرجعيته الموسيقية والأدائية وفي ارتباطه بالسينما كما كان يمكن تصورها في سنوات التسعين، لكن تلك قرأته سهلة، ومنذ الآن لا بد أن نقول إن الفيلم تجديدياً إلى هذا الحد كان يتطلب قراءة تجديدية من الواضح أنها لا تتوافر، حتى الآن، لدى ما يمكن أن نطلق عليهم اسم الجمهور العريض.

ولكن ما هو «سجل اختفاء»؟ هو قبل أي شيء آخر يوميات كتبتها بالكاميرا مخرج فلسطيني (إيليا سليمان) يعود إلى فلسطين ليرصد ما تغير فيها بعد السلام أملاً في أن يحقق فيلماً عنها. لكن زس الفيلم ينتهي من دون أن يتمكن إيليا سليمان من تحقيق فيلمه. ومن هنا أتى الفيلم فيلماً عن الفيلم، أو بالأحرى عن الأثبات، ولذلك إذا اعتبرنا أن هذا العمل يتميز بوجهة الموضوعية الشامة، حيث يمثل كل عنصر فيه جزءاً منه، ويرتبط فيه التشكل بالمضمون ارتباطاً لا فكاً فيه، بل يعود عنوان الفيلم نفسه ترهالاً، بل جزءاً أساسياً من لعبته. وإن كان فعل الاختفاء يظل غامضاً، أو اختفاء الفيلم المطلوب تحقيقه، أم اختفاء فلسطين، أم اختفاء الإسرائيليين، عن أي اختفاء يتحدث العنود واليتاني الفيلم كله؟

الجواب مفتوح. فإيليا سليمان في هذا الفيلم لا يتوخى العثور على إجابات وبالطبع لا يتوخى الوصول إلى أي يقين. بل يجمع العلامات ينشرها في فيلمه على شكل صور وأصوات ولقاءات وتصرفات وأحداث غامضة وشخصيات تتراوح بين الطبيعية واليكازونية وأماكن... خاصة، وحلقات تدع لم لا توصّل إلى أي مكان. وذلك لسبب بسيط وهو أن المخرج العائد إلى مكان الناصرة ليرصد حال الناس بعد سلام أوسلو، لم يرصد أي تعبير: الملل، السموت اليومي، الفراغ المحيط والمحيط، الأخلاق بهتها وسيمها، العلاقات الاجتماعية شبه المفقودة لدى شريحة من الفلسطينيين (حاملى الهوية الإسرائيلية من فلسطيني احتلال ١٩٤٨). ولربما كان التعبير الوحيد، الذي لم يرصد الفيلم يكمله، وإن كان أبقاه مكوناً مضمراً. هو أن الناس فقدت حتى الذاكرة، حتى الحلم. وكان الرواية التي طرحها أطوار عريسك) عدة إعلان ياسر

حكومي إسرائيلي. يوماً وأمام الصعب كان رد سليمان بسيطاً: «أنا جعلتني الظروف والنزاع المريبية مواءمة إسرائيلياً وأنا وأهلي نضع الضرابك أنتجه نصف قرن تقريباً. لم نسمعك تتحدثون على ذلك. لكنني حين استعدت أموالى من الحكومة الإسرائيلية لأحقق فيلماً عن فلسطين أجدكم غاضبين». كثر فهموا يومها جدلية هذا الموقف. واستعدوا مع الفيلم علاقة كان الموقف الأيديولوجي صوبها وأغاضها.



ومنذ ذلك بات «سجل اختفاء» يعتبر، إلى جانب «عرس الحليل»، وحتى إشعار آخر، وفي انتظار بيد إلهية، لسليمان نفسه، ثم «الجنة الآن» لتهاني أبو أسعد، مساهمة السينما الفلسطينية الروائية في تجديد دم السينما العربية وشبابها. تماماً كما سوف تعتبر أفلام من مصري، والتسجيلية العربية، كما سوف يرى. والتسجيلية، منها على الأقل، تحديثاً وتوسيعاً لدراسة مقدمة في السينما التسجيلية العربية، كما سوف يرى. عندما عرض «سجل اختفاء» للمرة الأولى، ولق إلى حد ما ضحية فكر الأيديولوجي مسبق، لكنه وقع أيضاً ضحية جدته ولفته السينمائية المستقلة التي بدا واضحاً أنها لا تنتمي إلى أي سلك من السينمات العربية، بل إلى المحاولات التحريية التي تعلن دون مواربة ارتباطها بتيار مجدد لسينما المؤلف. وكذلك بأسلاف لهذا التيار من اليانتي أوزو، إلى الإيطالي أنطونيو

انتفاضة السينما الأمريكية المستقلة. فمنذ فيلمه القصير الأول الذي وصل إلى المتفرجين، وكان جزءاً من فيلم جماعي عربي حول «حرب الخليج» أنتجه الراحل أحمد بهاء الدين عبيدة، بدأ واضحاً أن سليمان، حتى وإن كان ينتمي فكياً وسياسياً إلى واقع العربي الفلسطيني، ولكن انطلاقاً من نظرة حادة في نقدها، سوف يتكشف لاحقاً ويتدرج أنها النظرة الأكثر صواباً: فإنه ينتمي إلى ما هو جديد في السينما الطليعية العالمية. بكل بساطة يمكننا أن نقول إن سينما، كما عبر عنها حتى الآن في أعماله - القليلة نسبياً خلال ما يقرب من عقدين من الزمن - هي سينما ما بعد الحداثة. فأفلام مثل «سجل اختفاء» ثم بيد إلهية، مروراً ب«سبيل فلسطين» وصولاً إلى مشروع يعمل عليه حالياً ليحاول فيه أن يقدم خمسين عاماً من تاريخ الفلسطينيين من خلال حكاية والده، هذه الأفلام خرجت منذ زمن بعيد من شرفة اللغة المحلية، حتى وإن ظل موضوعها محلياً - فلسطينياً - بامتياز. في هذا الإطار يمكن القول إن سليمان يبدو مسجوح وحده في مجال تجديد السينما الفلسطينية، لغةً وشكلاً. ولئن كان هذا واضحاً من خلال فيلمه القصير الذي أشرباً إليه وعنوانه «مقدمة لنهايات جدال»، فإنه ترسخ أكثر في تجربته في «سجل اختفاء»، ذلك الفيلم (الروائي؟) الطويل الذي حين عرض للمرة الأولى عربياً في مهرجان قرطاج التونسي، أثار سمجالات، ليس على فنيته، بل لأن «الجمهور اكتشف» أن الفيلم نال دعماً مالياً من صندوق

المكانى كان هو هنا، بعد «عرس الحليل»، وحتى بعد «كفر قاسم»، العصر الأساس في سينما الفلسطينية باتت تتعرض كل مرة من جديد. وأخيراً أن في هذه النقطة تنتمى سينما مشهورى إلى سينما خليعى أو المحاربة تتوقف هنا. وهذا ما أكدته ثلاثة أفلام تالية حققها مشهورى هي: «حيفا»، و«تذكرة إلى القدس»، وأخيراً «الانتظار». في الأول حيفا هو اسم الشخصية المحورية في الفيلم (لعب الدور بتاتق محمد بكري شنان الداخل الذي بعدما أدى دوراً مهمة في السينما العالية وحتى الإسرائيلية المنشقة. وبعد ما ساهم في أدوار رئيسية في السينما الفلسطينية الجديدة تحول مخرجاً تسجيلياً ليحقق «عبر» «جنين... جنين»، عملاً ألقى الإسرائيليين ودفهم إلى محاربه محلياً وخارجياً). وهو لا يكتفى باسم المدينة التي يبناه أهل جاء اسمها، يعيش في مخيم إيليا نصف فلسطين، نصف فيلسوف. لقد وفق مشهورى (ومعه بكري) في رسم هذه الشخصية الرمزية، لكن استخفاها في سياق الفيلم لم يروها الدين كانوا فطر (إصباحيه) وحتى إشعار آخر، يتطرون من مشهورى تجاوزاً ما لذلك الفيلم، المؤس أن قال مشهورى وهو «تذكرة إلى القدس»، على رغم فكرته الجيدة وتجديده في مجال العلاقة مع رؤية القصيدة الفلسطينية - يرى إليها من خلال نشاط وجهود عارض أفلام سينمائية يور من مدينة إلى مدينة تحت الحصار، أي يعرض أفلاماً سينمائية لتعب يور متعشاً لذلك. لم يرو ذلك أفلاماً. لقد كان من شأن هذه الفكرة أن تنتج عملاً رائعاً، لكن شيئاً ما، بالذات ما أسقطت الفيلم في حق لغة خطية وضعت على مشهورى فكرته وهو نفس ما يحصل مع فيلمه التالي «الانتظار» الذي يدور من حول فكرة لافتة (محاولة تجميع فرق عمل فلسطيني أن من ديار شتات عديدة، تتوقف به السبل والقمع الإسرائيلي والبلادة العربية، عند الحدود ليستنظر إلى ما لا نهاية). غير أن المشكلة كمنت هنا أيضاً في أن السيناريو وجعود مشهورى عند لغة سينمائية كانت له سالت في حاجة إلى تجديد كبير، نسما فكرة هذا الصنم من أساسها. وسيعاها في ثانيا مهمة السياسية المباشرة.

## ما بعد الجدال

هذا الافتقار إلى التعاضد مع تجديد في اللغة السينمائية لا يتطابق على إيليا سليمان، ابن مدينة الناصرة، الذي عاش روحاً من شبابه في الولايات المتحدة حيث درس السينما، وأخرجاً وتشيلاً. وعاش

العدد المائة وأثنا عشر - مايو ٢٠٠٨ م





## «الجنة... الآن» اختار أن يطرُق الموضوع مباشرة.. من هو الانتحاري؟ كيف يصبح قنبلة متحركة، جاعلاً من جسده، سيارة مفخخة؟

عرفنا قبل سنوات عن قيام الدولة الفلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل وحشوا، «أي هوية لنا، نحن عرب إسرائيل، في صباح اليوم التالي»، كان هذا السؤال انتقل فجأة من حيز النظرية إلى حيز الفعل فهاجأ أصحاب العلاقة وأسكنهم في أختصار، كان واضحاً أن سجل احتشاه أنى لا يشيخه أي سينما فلسطينية أو عربية من قبله. ولقد تساءل كثر يومها، من الذين أحبوا الفيلم وأغواهم أسلوب سليمان، عما إذا كان سيكون في إمكانه تجاوزاً بعد أفلام قليلة جاء الرد إيجابياً وبالتحديد في «الجنة»، هذا الفيلم الذي كرس إيليا سليمان سينمائيًا ما يعد حديثاً ماتميراً، وشجّع له الأفاق. ولأبداً من خلال، «حكاية، ذات علاقة مباشرة بهمة الأساس، القصصية الفلسطينية وما يدور من حولها. وهذه المرة أيضاً ما من خلال تعبه الدور الرئيس. والصامت تقريباً دور العاشق المتأرجح بين مدينته واقدس والسلام والتجاوز الإسرائيلي وبأسر عرات.

من جديد نجدنا هنا أمام فيلم لا

يمكن وصفه كتابة. فهو - وحتى أكثر من «سجل اختفاء» - يبدو سينمائيًا خالصاً، جوهره سياسي، إنما مرجعيته سينمائية للبعد المصري فيها الدور الأساس، حيث الواضع أن إيليا سليمان يعرف من كل ذلك التراث السينمائي الممتد من السينما الصامتة (ياستر كيتون) إلى أفلام النينجا اليابانية. هذا حاضر في هذا الفيلم كما لو أنه يريد أن يقول: ترى أوليس من إمكاننا أن ندخل فلسطين زمن العالم، من خلال إدخالها زمن سينما العالم؟ هذا الهم نفسه يكاد يكون هم هاني أبو أسعد، الذي هو بدوره من الداخل ومدينة الناصرة تحديداً، الذي درس السينما في باريس الآن معلم وقته، في هونته، بدأ الآن الأمر منتجاً لأفلام سينمائيين فلسطينيين آخرين ومنهم رشيد مشراوي، قبل أن يتحول إلى الإخراج - أفلاماً قصيرة أول الأمر ثم روائية طويلة بعد ذلك - - وحال هاني أبو أسعد مع نفسه كثيرًا حال زملائه، سيما ولدت قوة ومجاهت الواقع الفلسطيني في شكل غير تقليدي. وسينما عثرت على ثوبها ونجاحها في الخارج، ولم تقل أي دعم حتى الآن من أية جهة عربية.

في رصيد هاني أبو أسعد حتى اليوم فيلمان روايتان، أولهما فرض أولهما حضوره في مهرجان «كان»، فيلماً تألق الثاني في مهرجان برلين الأول هو «عرس رنا»، والثاني «الجنة الآن»، من ناحية اللغة السينمائية تطبع سينما أبو أسعد، وعلى الأقل من خلال هذين الفيلمين، بالكلاسيكية نفسها التي تطبع سينما ميشال خليفة. وهي كلاسيكية معاصرة لكنها بعيدة عن التجريبية. بالنسبة إلى أبو أسعد، الموضوع هو الهم. ولقد تمكن في الحقيقة من أن يقدم في الفيلمين موضوعين قويين، جدد في موضوعات السينما الفلسطينية، بعد تجديده إيليا سليمان في لغة هذه السينما. وإذا كان هاني أبو أسعد حاول أن يقدم حكاية مقدسية، تكاد تكون تقليدية إنما يرفق سمالي اجتماعي جديد في «عرس رنا»، من خلال الصبغة الزني تريد أن تتوزع من حبيبتها الممثل الذي لا يرضى عنه أبوها، فتجابه في سبيل جوها، غضب الأب وشكل أيضاً بلاهة الحبيب وسلبيته، قبل أن يجابه الجميع، القمع الإسرائيلي والحوار الانتقائية التي تقطع شرايين ما تبقى من فلسطين (وهو موضوع يكرر كثيراً في السينما الفلسطينية)، فإنه - أبو أسعد - في «الجنة الآن» وصل إلى موضوع أكثر جرأة بكثير. فهذا الفيلم

أتى، ولكن على طريقته الخاصة ليصاف إلى سجل سينما فلسطينية، شابة وجوية ومتميزة فنياً أيضاً، وراحت تقرض حضورها بقوة على مهرجانات السينما في العالم الأوروبي على الأقل وتنتج تحفاً صغيرة تعمل حيناً لتوقع ميشال خليفة وحيناً إيليا سليمان أو رشيد مشراوي أو مصرية أو تونيق أبو والي. بيد أن الصورة هذه المرة تختلف لأن «الجنة... الآن» نفسه فيلم مختلف. مختلف في موضوعه الجديد، والراهن الخارق، مختلف في ديناميكية لحنه السينمائية، ومختلف في قدرة مخرجه على إدارة ممثليه بحرفية محبشة، مختلف حتى بترجمة ردود الفعل التي يجتذبها، فهنا تحت دائرة التعاطف المسبق يجد المتفرج نفسه أمام عمل يجمع الدراما بالتقصير، السياسة بالكوميديا، الواقع بالتأمل الفكري. وكل هذا من حول موضوع يعمن جوهر ما يشير اهتمام العالم أجمع، موضوع الإرهاب، كما يطلق عليه في الغرب. «الجنة... الآن» اختار أن يطرق هذا الموضوع، مباشرة ومن أوسع أبوابه، هو الانتحاري؟ كيف يصبح قنبلة متحركة، جاعلاً من جسده، سيارة مفخخة، لماذا يصبح انتحاريًا، وليس من ناحية الدافع السياسي والديني فقط؟ كيف يصبح؟ هل هو إنسان من لحم ودم أم مجرد ماكينة قتل؟ ثم ما هي مشاعره الخاصة إذ يقدم على ما يقدم عليه؟



هذه الأسئلة التي من الواضح أن لغة من الناس تطرحها أو تتجرعها على طرحة، جعل منها هاني أبو أسعد، مركز الصدارة في فيلم، كان عليه في نهاية الأمر أن يسير على حبل مشدود. إذ لم كل ما يعمن هذا الموضوع يبدو - قبيلاً - من المحظورات أو المسكوت عنه. والمشي على الحبل المشدود، هو النتيجة المنطقية لرغبة قول ما لم يكن يقال. حيث أن الإنسان في الانتحاري، يقفني عادة بين توثيقية. أي بمحاكاة ظاهرة تصامم في أعين مؤيديه، وبين سطحية في نصيبه لدى ضحاياه أو اختار أن يكون واضحاً أن هاني أبو أسعد، اختار أن لا تظهره إلا هذه ولا تلك. اشتغل على الشخصيات الصغيرة، ينسج حبكة درامية ذات خدع تقويق. أي بمحاكاة مميزات خدع فيلمًا يمكن، في قشرته الأولى التعامل معه على أنه فيلم مغامرات ذو مواقف تقترب أحياناً من الكوميديا الطليقة، وتوقس غالباً في لغة أدنى إلى الوثائقية.

وهذا الأمر الأخير ليس جديداً على هاني أبو أسعد، إذ نعرف كيف أنه في فيلمه السابق والأول عرض رنا، قدم من خلال بحث رنا عن خطيبها، تفاصيل الحياة الشخصية له، القدس، هذه المرة تنتقل كمبراً إلى أبو أسعد إلى نابلس... ويدل رنا لدينا خالد وسعيد، شبان فلسطينيان أصبحا فجأة متعطلين من العمل. وما هو أستاذ المدرسة الموقر وهو أحد قادة تنظيم إسلامي يرايون النضال من طريق تجنيد الانتحاريين وإرسالهم إلى المدن الإسرائيلية، ما هو يحتارهما للقيام بعملية انتحارية مزودة في تل أبيب، حماسة الشابين تبدو كبيرة أول الأمر... ولكن سرعان ما تبدأ الشكوك تساور أحدهما فيما يقبلي الآخر على حماسته، قبل أن تحدث نكبة في الانفراج لاحقاً. المهم الآن أن الشابين يتكلمان في ضروب التهميش والإبعاد النفسي واللوجستي والديني متقبلين، بضاوت في الضامير، فكرة أن الساعات الأربع والعشرين المقبلة هي آخر ما سيعيشان.

## الجانن والبطل

يرصد الفيلم، إذاً، تلك الساعات، حيث مطلوب منهما ألا يخبرا أحداً بالطمع، ولا حتى أحببتهما ما هما مفيلان عليه. وهما خاضعان طوال تلك الساعات الحادة إلى رقابة صارمة. ولا يحين وقت التوجه إلى تل أبيب، حيث سيكون في انتظارهما متواطئ يعمل بالأجرة مع التنظيم - وهو اليهودي الوحيد في الفيلم - تركيب القنابل على جسدي سعيد وخالد وقد افقت في شكل معقد يجعل من المستحيل على أي كان فكها. إلا فكها إلا الذي ركبها... ما يجعل معقوليها حتمياً... إلى بالنسبة إلى الانتحاريين. وفي اللحظة المخطط لها من جانب زعيم التنظيم، ومن بعد مشاهد طقوس مرمية على حقا تتشبه بمشهد رمزي يتناول فيه الشبان طعام العشاء مع ١٢ من أفراد التنظيم (العشاء الأخير لتسديد المسيح ليس هذا)، يتطلعون ويعبران الحظة قبل حاجز الشريط الغامض بين العيش الطريفة وإسرائيل. ولكنهما ما أن يعبرا أمثاراتاً قليلة متتكرين في قياب عرس لتسليمه وقد حلقا ذقنهما، ما يجد حتماً تسليمهما في مواجهة دورية إسرائيلية، فيهربان ليقترقا منذ تلك اللحظة كل في طريق. والد عند خالد إلى الخلف، يصبح زعيم التنظيم بالسؤال عما إذا لم يكن سعيد هو الخائن الذي جعل الدورية الإسرائيلية تصل.

ومند تلك اللحظة يتخذ الفيلم

والمرافقين. وصدت يوماً من التواصل بين فتيات من الخيم، ومواطنات إهلى في مخيم الدهيشة الفلسطينية عبر الإنترنت في البصيرة توثيقاً في المرعى بالكاميرا، لتصور ذلك التواصل، لكن الذي حدث هو أن الإسرائيليين كانوا انسحبوا أثناء ذلك من جنوب لبنان، ما فتح المجال أمام لقاء، عبر حدود الخوف، بين الصغار الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً إلا عبر الإنترنت وغير الأحلام والآمال والآسى المشتركة. وإد رقتى من الحدود اللبنانية - الفلسطينية، تبدل فيلماً تاماً. اتخذ حياته الخاصة، بالقرى التي حدث فيه جدرى في علاقة الصغار والمرافقين. من الجانبين بعضهم بعضاً. وأصبح صارت السينما، هي الصغار بين السينما في قدرتها على إعادة تشكيل الواقع اختلافاً من عناصر الطبيعة، وليس من طريق عناصر تخيلية مضممة عليه. ولكن هل يمكن القول هنا، قد، إنه يمكن الحديث عن حدود تشخص بين الواقعي والتخيلى؟ هذا ما يمكن العثور على جواب عنه في الفيلم الثالث (الثاني زمين)، أطفال شايلا، إذ هنا تصيح للصبة أكثر وضوحاً، ليعبر الكاميرا والتصوير في المشهد الأبعد والحركة، والكاميرا جزء من الفيلم العام أفلا يقترح علينا هنا كله أن ما نراه في، ثلاثية، من المرعى ده، هو سينما عن السينما؟ سينما تستبدل. ولو بشكل غشوى - بما كان قاله الأثاني/ الفرنسي جان - ماري شروبي يوماً من أنه، بدلاً من أن يحقق فيلماً عن هامانت، يفضل أن يحقق فيلماً عن الممثل العلائى وهو يلعب دور هامانت؟

## أدوار فلسطينية

إن ما تشاهده على شاشة الأفلام من المرعى، إنما هو أطفال فلسطينيون يلعبون أدوار أطفال فلسطينيين أدوارهم الحقيقية في الحياة لكنهم هنا، وذلك هي نقاط القوة الأساسية في هذه السينما الحقيقية، يعرفون أن المطلوب منهم أن يجاهوا الكاميرا، كممثلين يشركون في لعبة مرايا لا بدائية لها ولا نهاية. لعبة مرايا تقودها وتخوضها عين مخرجة ذكية، قد لا يصح أن نقول إنها تعرف مسبقاً ماذا تريد، ولكن يصح القول إنها تعرف كيف توظف ما قد يفتأ غيرها بحسبه أمام كاميراه. ومن هنا، يمكن أن نفهم من المرعى حين تقبلون إنها لا تستعمل، مجردات الواقع هنا، ذلك أن

وأدهش أمام عالم اتسبل إليه، تسبل المتسلى لا تسبل للتصنع كانت الأحداث سرعان ما تتصاعد من أحداث صغيرة إلى أحداث كبيرة، كأل كانى أن تكون كاميراي هناك لتصور ما لم يكن نوقفه، ما كان ولا يزال يضى على فيلمي أبعاداً تخرج به عن إطاره المحد لا أصلاً.

## من يصور من؟

وتكنوذج لهذا تتوقف عند فيلمين من الأفلام الثلاثية، أطفال جبل النار، وإلى الأفلام الكبيرة، كأل كانى يجب أن يتخذ شكل موسيات، لتكثي ما المرعى بالكاميرا، هي وصف زيارة تقوم بها لمدينتها الأصلية نابلس. كانت زيارتها الأولى للمدينة وأهلها بعد غياب ١٧ سنة، وكان في وهما وفريق العمل المرافق لها - أن يصوروا الحياة في المدينة. ولكن فجأة تدهشت الأحداث، الانتفاضة الأولى، سقوط الشهداء، امتلاء الأرفقة بأطفال يقاومون، وجنارة جاز استشهد، وهكذا، من عرفت في المنزل العائلى، من خافضة سيرته، في مطبخ بيت هادى، وسط أطفال يلعبون لعبة الموت والنضال، تحول فيلم من المرعى من فيلم عن لقاء امرأة بمدينتها بعد غياب، إلى فيلم عن فيلم يحقن عن المدينة. صارت السينما هي الموضوع؛ صنع السينما وسط استحالة صنع السينما. ومن هنا صارت الكاميرا الشخصية الحورية في الفيلم، صارت المصور بقدر ما هي المصور؟ الفيلم الآخر هو، أحلام المنى، من المرعى، خلال عملها على، أطفال شايلا، الفيلم السابق على هذا الأخير. كانت تعرفت إلى مجموعة من الصغار

أطفال جبل النار، وأطفال شايلا، وأخيراً، أحلام المنى، تنتمى من الناحية الشكلية إلى، السينما التسجيلية، حتى وإن كانت هي المرعى نفسها ترفض هذه التسمية لأنها لا ترى أنها مخرجة تحمل كاميراي، تسجل، بها وألها ما. وهذا صحيح، بالمرعى، ذلك أن الأفلام من المرعى لا تنتمى قطعاً إلى ذلك النوع السينمائي الذي يهجم أن يصور الواقع، حتى وإن كانت الفتحة التي يراها المتفرج في نهاية الأمر على الشاشة، ولكه ساعة عرض الفيلم، صورة نواقع ما. فكاميرا من المرعى ومواضيعها واشتغالها على هذه المواضيع هي أكثر مروعة وكأه من أن تكثي حرصد والعب معين، وليست الصالة، حتى، مسألة توليف كما يحدث في أفلام تصور عشرات الساعات، لتنتج في نهاية الأمر في غرفة أمام طاولة التوليف عبر اختيار اللقطات الأكثر ملامة لا قول خطاب ما. ذلك أن سينما من المرعى، هي جوهرياً، لا تسعى إلى قول خطاب معين. إنها ويضمر في الاختصاص سينما تعيد ترتيب الواقع. وإلى حد ما تكفل السينما الروائية، ولكن هنا من، ممثلين، تطلب منهم المخرجة أن يلعبوا أدوارهم الحقيقية في الحياة، أما غاية من المرعى من تصويرها هنا، الواقع وقد أعيد ترتيبه، فلا تبدو واضحة تماماً للوهلة الأولى، بل لعل المخرجة نفسها، حين تدخل بكاميراهها عالماً أو موضوعاً ما، لا تكون على علم مسبق بما تريد من ذلك العالم. إنها تكتشف، تسير أغوار الأشخاص، من دون أن تتوقف لدوياً لتحليل الأحداث. الأحداث تحدث من تلقائها، نقول من المرعى، مخرجة، إذ هي يمكن أن القول إنها محظوظة، إذ هي مرات عدة وفيها كتبت أصور وأبحت

خطوطاً عدة أبلغ هانى أبو اسعد في التقاطها والسير بها حتى نهاية الفيلم المقتوح، خط السجالم عن الصفاة الفلسطينية - الغربية التربوية سعى، حول جدرى هذا كله. خط البحث عن سعيد، خط التبدل الذي يحصل لدى أبو اسعد، وخط محاولات سعيد إكمال التعامل مع المناضلين وصولاً إلى اتهام هؤلاء سعيداً بالخيانة لأن أباه أكل ما، ومتأوداً، وخط محاولات سعيد إكمال مهمته، ليس عن اقتناع تام وإنما من يأس، وريماً لنواظع عميقة لديه، هو الذى كانت نظراته منذ اختيار للمهمة تقول كل ذلك التصرق الذي يعيشه المواطن العربي العادى السبيلت تجاه ذلك النوع من العمليات وجدوها... هي اختصار (الجنة... الآن، شانى أعمال هانى أبو اسعد فيلم كبير جداً... فيلم يجمع المهارة التقنية بالصواب السياسى... من دون أن يزعم إيجابه الأجوبة لكل الأسئلة المطروحة. وهانى أبو اسعد يؤكد على هذا ويقول إنه يكتفيه صغر الأسئلة التى لا يريد أن أن يعترضها حقاً... الأسئلة التى أن الأوان لكن تلعن من دون أفكار مسبقة ودينية مسطرة... لأن هذين شخصتان الحبل المشرود إياها في نهاية الأمر وإذا كنا حتى الآن قد تنازلنا السينما الروائية الفلسطينية أو بعض علاماتها البارزة، فإن الأفلام قد، جان حتى نختصم عن سينما قد تكون تسجيلية، لكنها من الخصوصية بحيث يسهل وصولنا إلى الروائية كما سرى. وهذه السينما هي سينما من مصرى التى تحمل، الفيلموغرافيا، الخاصة بها، منذ أواخر سنوات الثمانين من القرن الماضى وحتى اليوم. أرمية أفلام حققها وحدها مخرجة، بعدما حققت مجموعة أفلام أخرى شراكة مع زوجها المخرج اللبناني جان شمعون ومن بين الأفلام الأرمية واحد ينحدر عن - ومع - الصيدة حنان عسراوى، يمكن الآن وضعه جانباً، طالما أن الأفلام الثلاثة المتبقية تبدو، إلى حد كبير، متراصة في ما بينها لتشكل ما يشبه الثلاثية. ويزيد من حدة هذا الترابط أن المحور الذى تدور من حوله هذه الأفلام - ولو هي قراءتها الأولى - هو الأطفال، أطفال فلسطين من الذين يعيش بعضهم في نابلس والبعض الآخر في مخيمى الدهيشة في فلسطين وشايلا في لبنان. والأخيريين أفلام هذه الثلاثية، هو، أحلام المنى، الذى تأخرت من كثيراً قبل أن تحقق من بعده فيلماً التانى الذى أتى سياسياً ولكن لبنانياً، ما يجعلنا مهالين إلى وضعه خارج السياق الذى يهمنى هنا.

الأفلام التى نتحدث عنها هنا، وهي





## تجاه الكاميرا وتجاه الشخصيات وتجاه القضية نفسها، لا تفر من مصرى، عادة، بأى حيادية. إنها شاهد متورط، إن عجزت عن أن تكون كلياً جزءاً مما تصوره

الواقع كما تصوره ليس الحياة نفسها، بل حياة أخرى مستقاة من الحياة لكنها تتجاوزها، فمثلاً حين تقول منى، طفلة مخيم شاتيلا، «أحلام المنفى، عند بداية الفيلم إنها أفضل أن تكون عصفوراً يطير على أن تكون فراشة تتوضع داخل كتاب تزيينه، تعرف منى وتكتشف من المصرى التأتلى - أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يقال هكذا في حياة كل يوم، يمكنه أن يقال أمام كاميرا، أو في رسالة، أو في قصيدة شعر، وحين يجلس فادي (طلح جبار النار، الواقع) ليبحث عن الشباب المقاتلين، قللاً في النهاية وهو يتسمسح ويملأ منة مستقالت، ماذا حرق الضاف إلى ما نهاية، يعرف فادي وتعرف منى أن هناك كاميرا تصور أن هناك سينما تصنع للتو. سينما تحاول أن تلتق من الواقع صاصرته الاستثنائية.

سينما تنبيه مهوم جويس لـ العمل قيد التحقيق، وشاعرية الواقع، وسينما تصور أناساً يلعبون السمينما، تلك هي العناصر الثلاثة الأساسية التي يمكن رسمها في السينما التي حققتها هي المصرية، متفرقة، حتى الآن. ومع هذا،

ليست هذه السينما سينما عشوائية معلقة على موضوعها الفني. إنها، بعد كل شيء، سينما تقول قضية. وقضية سينما هي المصري الجهورية في فلسطين، فلسطين كوطن لا يزال قيد التكون، وقضية يجب على الصورة أن تعظمها من الاندثار، وهذا العنصران يؤمنهما هنا، تتألى الأحداث كل فيلم من الأفلام. وبالمثل خلال زمن التصوير والكاميرا المنعشة، بمرارعة لذينة - أمام ما يحدث، فمثلاً، تطلب منى - ابنة شاتيلا في «أحلام المنفى» - من منار - ابنة مخيم الدهشة، ورقيتها بالانترنت من بعد - أن تصف لها، بعد زيارة قرية أبائها الأصلية شمال الضفة الغربية، فتزور منار القرية لتجسد خراباً، لكنها ترسل إلى منى حفنة من ترابها. وهذا التراب، يصبح لدى منى كناية عن فلسطين. وروما البديلي المنطقي الوحيد لتجول المقاتل الذي كانت كاميرا هي المصري رصده في أزقة مخيم شاتيلا، وسط مستقالت تصورها حين تبتدى منى - ورقيها - بهوء رقيتها إلى أن تعيش البحر وقصاه. وهذا كله يحدث أمامنا هنا، ويبدو الكاميرا وكأنها تكتشف لحظة اكتشاف شخصيات الفيلم لـ، ومرة أخرى حين يأخذ الكاميرا حبيده ليزور القرية التي كانت مسالمة رأسه ويكتشفها بيته الحقيقي الأصلي وما تبقى منه. هنا، الكاميرا موجودة أيضاً تسجل لحظة الاكتشاف.

## لحمية المراسية

إن مثل هذه المشاهد واللمحظات هي ما يخلق ذلك التداخل بين الأفلام والمواقف، ويعطى إجراء التلاشية وجهاً الجانبية أما الوحدة التلاشية فيكونها حضور من المصري كمرحلة للأفلام ولكن هل هي هنا مخرجة وحسب؟ من الصعب تصور منى، ذلك أن المخرجة هنا وهذا سبب إضافي يتعدى بنى في عالم التفسير - شخصية أساسية في الأفلام. ليس فقط لأنها تصوره وراء الكاميرا دائماً وأحياناً أمامها كمراسية، بل يفرد تسجيل ما يحدث، متى وإن كان غير قادر على قيادة الأحداث نفسها، بل أيضاً لأن الأساس هنا، وفي كل لحظة، هو قيمة المراسية التي توهمها، فالحمود بين المصور والمصور نعد هنا، تماماً كأنعدام الحدود بين الممثل والواقعي، وبين فلسطينيين وخياليين، واللمش في هذا كله أن هذا التوحد بين العناصر والشخصيات يبين تماماً إذ أن كل شيء يبدو وكأنه أت من البهامة ليتحمس في بؤقة واحدة، العنصر الوحيد الدخيل

في الموضوع هو الجندي الإسرائيلي (في «جبل النار») فهو يبدو بعيداً، دخيلاً، غريباً... وأحياناً مشيراً للشفقة. لا يعرف ماذا يفعل هنا. وبالتأكيد يعرف لماذا عليه أن يقتل أو يقتل، فهم هنا، أن كاميرا هي المصري تصوره عرضاً، من دون أن تبني أنها تفعل ذلك، إنه الواقع الوحيد غير المشتغل عليه، ووجهه الوحيد الذي لا يبدو أنه يريد أن يقول شيئاً. في المقابل واضح أن أطفال الخيماء، إذ عرفوا أنهم أمام كاميرا تصورهم، أرادوا أن يقولوا أشياء كثيرة، وليس فقط الحرب والمعاناة (كما يحدث دائماً في الأفلام الفلسطينية الروائية). إنهم يتحدثون عن الحب والزواج، عن الجمال وعن السمينما، يضحكون ويسخرون وكانهم في برامج حوارات تلفزيونية... لكنهم، ولأن التجربة علمتهم كيف يعيشون جيداً، ولأن عمويتهم كشفت لهم أنهم هنا في خضم لعبة مراهبة، يرضاه عليهم حضور المخرجة وفريقها بكاميراتهم وألته، يبرقون كيف يزينون كلامهم، فأمر هنا غير ممكن. لفظاً وتعبيراً عن العواطف، وللتذكير كيف إن منى، مرة إذ تذكرت موت أبيها، ومرة إذ راحت تقرأ رسالة وصلتها بفتاة من رقيتها، سمرت إلى سائر من دون إخطار إلى لندن كاتبة الحياة والصدقة - أعادت وجهاً عن الكاميرا تماماً، ذلك أن لها صورة لا ينسحب أن تكتشف أي ميلودراما في عواطفها، ولأن كاميرا هي المصري، غير لتصصية، حتى حين تدخل الحميمات، أتحركت هذه الكاميرا رغبة منى في البكاء خفية، مركزة مرة أخرى على جانب حادق ستقول لاحقاً أنه في الوقت الذي كانت فيه مستسلمة لدعواها خفية عن الكاميرا، كنا جميعاً نكي وراء الكاميرا، ألم توصل من المصري لعبة المراسية هنا إلى أقصى حدودها؟



تجاه الكاميرا وتجاه الشخصيات وتجاه القضية نفسها، لا تفر من المصري، عادة، بأى حيادية. إنها «شاهد متورط، إن عجزت عن أن تكون كلياً جزءاً مما تصوره، ولعلها تجد نوعاً من هذا العجز في تلك العلاقة التي تقضيها مع شخصياتها، بعد إنجاز الفيلم وعرضه فيها، وفادي (في جبل النار) وطفلاً وأطفال شاتيلا، النريسيان، ومنى ومنار ومصر وعيسى والأخضر (في «أحلام المنفى») صاروا جزءاً من حياتها، تهتم بهم وتؤلم لهم،

## The Ethnic Cleansing of Palestine

التطهير العرقي لفلسطين

by Ian Pappé

Oneworld Publications, 2006, 320 pp., \$10.17



إيلان بابيه مؤرخ إسرائيلي شهير ومحاضر بجامعة حيفا. يورد في كتاب التطهير العرقي لفلسطين تقريراً مشغلاً عن تهجير الإسرائيليين لفلسطينيين من أراضيهم في عام ١٩٤٨. يستشهد بكلمات ديفيد بن جوريون - قائد الحركة الصهيونية من منتصف العقد الثالث من القرن العشرين حتى السابع منه - الذي صرح بما يلي في مذكراته المنشورة عام ١٩٣٨، «أريد الترحيل الجبري، ولا أجد أي شيء غير أخلاقي فيه». مما يناهض الادعاء الصهيوني العلني بأن إسرائيل كانت تصادر أرضاً بلا شعب.

يتوخى بابيه منتهى الصراحة في كتابه: فهو يتهم إسرائيل بالتطهير العرقي وارتكاب جرائم ضد الإنسانية بدءاً من حرب ١٩٤٨ الرامية إلى الاستقلال ووصولاً إلى الوقت الحاضر. يركز بالأساس على «الخطة دي» (تسمى داليت بالعبرية) المتطورة في ١٠ مارس ١٩٤٨ لينتهي إلى القارئ أن التطهير العرقي لم يكن وليداً لطموح الحرب بل هدفاً مستمداً من أهداف القتال التهجته الوحيدات العسكرية الإسرائيلية بقيادة بن جوريون. وهنا يطلق بابيه على بن جوريون اسم «مهندس التطهير العرقي». لقد حاول بابيه البرهنة على أن الطرد العرقي لـ ٨٠٠٠٠ فلسطيني في عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ كان جزءاً من خطة صهيونية طويلة الأمد لمساندة دولة يهودية نقية العرق في إطار حجيجه بتعريفات دولية معترف بها للتطهير العرقي ويتبجح سرداً مفصلاً كل التفصيل للتهجير العسكري الإسرائيلي في تدمير مئات القرى وإخلائها من سكانها وعزل مئات الآلاف من السكان العرب.

إن هذا المجلد مورد سياسي سهل المثال يزيد القارئ بسبل مهمة تلتهم إلى الأحداث التاريخية لصراع اليوم إلا أن نتائجه على سهل على الجميع تحملاً، إذ يثبت بابيه أن التطهير العرقي لفلسطينيين يتواصل حتى اليوم ويدعو إلى عودة غير مشروطة لكل الإسرائيليين والصهيونيين ووضع حد لاحتلال الإسرائيليين. لا مراء أن رواية بابيه سوف تثير غضب الكثير من القراء الإسرائيليين، لكن الأهم هو أنها سوف تشمل المناقشات بينهم.

## All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948

كل لا نبقى، قرى فلسطين التي احتلتها إسرائيل وأخلتها من سكانها عام ١٩٤٨

by Walid Khalidi

Institute for Palestine Studies, 1992, 636

pp., \$49.00



ولد وليد الخالدي في القدس وتخرج من جامعتي لندن وكسبرود. يدير مؤرخاً بارزاً وخبرة معترفا بها في الشؤون الفلسطينية. يعمل زسلاً باحثاً في مركز هارفرد لدراسات الشرق الأوسط. وقد ألف هذا مرجعاً جديراً بالاعتماد عليه، كتاباً يصور بالتفصيل أكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية دمرت أو أخلت من سكانها خلال حرب ١٩٤٨. يكرس الخالدي أغلبية النص للقري نفسها، إذ يشمل كل باب معلومات إحصائية عن إحدى القرى وصد أجزاء ورائية عنها. يستخدم أبحاثاً ميدانية أجراها السكان المقيمون وشخصون كي يعين بدقة الموقع الصحيح لكل قرية وأسماه المستعمرات الإسرائيلية القائمة على أطلالها وأراضيها. كما يلجأ إلى تشكيله واسعة من المصادر العربية والغربية حتى يلخص تاريخ القرى قبل ١٩٤٨ ويؤلف المعلومات حول طوبوغرافيتها ومعمارها ومساكنها وحالة مواقع القرى أثناء إجراء البحث (١٩٩٠-١٩٩١) ونشاطها الاقتصادية والتعليمات العسكرية الإسرائيلية المؤدية إلى سقوطها عام ١٩٤٨. تركز الروايات الإسرائيلية والعربية على العمليات العسكرية المؤدية إلى غزو القرى. تشمل الأبواب أيضاً على وصف

لوضعية الموقع الحالية بما فيها مستوطنات شيدتها إسرائيل على أراضي القرى الصادرة بعد عام ١٩٤٨. سوف يجد القراء عدة مئات من الصور (ثمة صور تجسد ما تبقى من مباني القرى مصاحبة لكل باب) وعدد من الخرائط المصعدة الفيدة وخمسة ملاحق. كلها تمزج نضاً أعده ما يروي على ثلاثين مشتركا في غضون نحو ست سنوات. بين يدى القارئ بحث علمي لا غنى عنه لكل المؤرخين المهتمين بتاريخ فلسطين. إنه جهد هام وإنجاز ضخم، على حد قول روجر أوين الأستاذ بجامعة أكسفورد.

## Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948

طرد الفلسطينيين: مفهوم «الترحيل»، في الفكر السياسي الصهيوني، ١٨٨٢-١٩٤٨

by Nur Masalha

Institute for Palestine Studies, 1992, 236

pp., \$15.95



يتمحور تاريخ تكوين الدول بحالات تبادل السكان والمردود والتطهير العرقي، والترحيل الإيجابي. وقد توخى قيادة الحركة الصهيونية الصراحة، كما تعرض تلك الدراسة الدقيقة، في اعتقادهم بأن إنشاء دولة يهودية بفلسطين لن يتاح سوى بإقناع السكان العرب القميين بالهجرة. وتصور الجدول حول الترحيل، عند حدوثه، حول عملية وما قد يحدث من أثر على علاقة الدولة الإسرائيلية مع الدول الأخرى. وفي ضوء عملية تبادل السكان بين تركيا واليونان عقب الحرب العالمية الأولى، شكك قلة من زعماء الحركة الصهيونية في الأخلاقية الترحيل. ويدل على ذلك ردوا إليه باعتباره حلأ عملياً تشكله جلية بين شعبين يعيشان على أرض واحدة فيما تراثت ميرور هذا العدل - البالفة ذروتها بين أوصت لجنة بيل بالتقسيم عام ١٩٣٧ - ذات أساس وطيد. يتحاطى مصالحة في حادثة موجزة مع القضية الخلافية المتعلقة بأصول أزمة اللاجئين الفلسطينيين في عام ١٩٤٨ فويتبين صلة واضحة بين الأجل للترحيل وهروب اللاجئين. وسواء قبل القارئ ذلك الاستنتاج أو رفضه، الجين أن النقاش المحول حول مزاياء الترحيل السابق على عام ١٩٤٨ أفتح العديد من الصهيونيين بأن اللاجئين الفلسطينيين لا يجب السماح لهم بالعودة أيأ كانت دواش رحيلهم.

إن كتاب مصالحة يتكل بالكمال على مواد أرشيفية إسرائيلية ظهرت مؤخراً إلى النور لتبين مصالحيه المحكمة بما لا يدع مجالاً للشك أن «الترحيل» كلمة مدبلة تخفف من وطأة كلمة الطرد. كان من البداية جزءاً لا يتجزأ من الصهيونية. إن كتاب مهم بلغ القراء في الوقت المناسب ليشعل بينهم الجدل، لا لأن ما توصل إليه من نتائج قابل للتنفيذ. فالصادر لا تخلف في نفس القارئ ريباً في الحقائق: بل لأن الكتاب يعرض تفصيلياً فكرة المكية الصهيونية والوسائل التي تحققت بها.



## The Question of Palestine

by Edward W. Said

Vintage, 1992, 320 pp., \$10.85

قضية فلسطين

تبدو كلمات إدوارد سعيد وكأنها صادرة من قومي فلسطيني وتبدو كتاباته وكأنها صادرة من أستاذ في الأدب الإنجليزي، والحق أن كلاهما. إن كتاب قضية فلسطين دفاع بليغ اللغة عن الشعب الفلسطيني وحقوقهم في تقرير المصير. ولو حدث وأقرط سعيد في سرد الدلائل العرصة على حجتة وفي رسم إسرائيل والصهيونية بما ألية ملاحح إيجابية، ربما يعود ذلك إلى قوة





السنوات الأخيرة مناقشات عامة لا تحلّف من الأعمال وكتابات مستعمدة، وهنا ينفذ الرواية الإسرائيلية الرسمية لولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين جمع من التواريخ الإسرائيلية يسعون إلى المؤرخين الجدد، أو التعديلين، أو جمع هذان وهما، دارسان باران للشرق الأوسط الحديث في جامعة أكسفورد. في هذا الجدل المثير أثار مؤرخين فلسطينيين قهريين من إسرائيل بأبوصة إلى دارسين عبر غربيين، المعزى التاريخي العاصر لسن 1٩٤٨ من وجهات نظر مثباتية، وعلاوة على المحررين فوسها، يضم المساهمين في هذا الجدل طاقم المعرفة بضم خالدي ونور سمير، وتشارلز روت، وجوهوا لاندس وليلى بارسونز والوارد سعيد وفواز جريس. وقد أجمعوا صوماً على أن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين لم تنتج من الهروب الإرادي الفلسطيني بل من سياسات محددة انتهجتها السلطات الصهيونية في غضون تأسيس دولة إسرائيل. وهنا ينعج كتاب الحرب من أجل فلسطين في جميع عدة مؤرخين من خليات مختلفة لتدبيد قهريهم على التواصل ودعوى التاريخية. والكتابات يبرز بذلك تقابلياً في البحث التجريبي وإصراراً على استخلاص النتائج المثبتة. وهكذا نعلم من تلك الأثار كتاب على في عوده التاريخية وأفكاره المثبتة وما يبرزه بوجاهة لنجد الجذور التاريخية للصراع العربي-الإسرائيلي. لا نقاب له في حقبة الكتابات العامة والأكاديمية بما يستعزم من نقاش وجدل، دليل بحث المثابر على القول في المؤرخين الغربيين السياسية والعسكرية لحرب ١٩٤٨ فيسبس صامرة جديدة للتاريخيين التالبيين

**الحرب العالمية الأولى -** حين باع ملاك الأراضي المتفيلون في بيروت أراضي الفلسطينيين إلى جمعية الاستعمار العنيدية. لكن بينما يتشارك تاريخ الفلسطينيين بتاريخ الصهيونية تشاكياً لا ملاك منه، فإن الخالد بنينس القدر على فتوحات أخرى للهوية الفلسطينية الحديثة المشتملة على امتشاق وطنية وأرض وحمل والحركة العربية وأحاسيس دينية ومستويات أخرى من التعليم والثقافة، وفيه الدليل على أن تأثير حركة الحداثة طويل الأمد وانها في الإمبراطورية العثمانية والنظور الأوروبي المصاحب لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وما لحق به من خيانة كل من الفلسطينيين والفرنسيين من العرب المماثلة كلها في الحركة القومية الفلسطينية بعد إسماعيل وعد بلفور عام ١٩١٧ والهجوع الصهيونية، الغيب حينها هو انطلاق الخالد السريع عبر آخر ١٠٠ سنة من تطور الهوية الفلسطينية، لكنه حتى ما بعد تحطيم أورشليم لمسيب تحول القومية الفلسطينية إلى «الاستجاب» بعد الحرب العربية الإسرائيلية الإسرائيلية الأولى وبين إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤. في ١٩٦٤، بين يدي القارئ اذنا مقدسة عمقا مثيرا، اراقفها وثائق اهل للثقة تبرز الجوانب الاساسية من تطور القومية الفلسطينية، في وثائق تاريخيا شاملا للحركة الفلسطينية الحديثة و هجوعا عديدا للصهيونية واسرائيل ينشئ من يصفير إلى كتاب آخر.

ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين

by Benny Morris  
Cambridge University Press, 2003, 664  
pp., \$42.80

يعمل يميني موريس استاذاً في التاريخ بقسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة بن جوريون. و متحدث صريح عن الصراع العربي-الإسرائيلي وواحد من أوائل المؤرخين إسرائيليين التمددانيين. يصحح كتابه «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، حقيقة أو ...» خلال الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٤٨. الطبعة على وجه التحديد الجماعي. صفح ١٠٠ أو وقع في القدس ويافا وحيفا، وكيف أتت هذه الأحداث. يكشف الكتاب النقاب عن معارك وعمليات وحشية سارية. وهنا سوف نلقي الضوء على الصراع مرعباً. بعد أربعة ملايين و نصف الفطنين ضحية رئيسية أمام كتاب ذو قوة استثنائية ونزاهة هي معجزة الفناء يروي هي تلك الحقيقة المظلمة عن التطهير والفرار من قبل: نهاية دافعية وإجبار أدبي وتقسيم عربي وكتاب عملاً رائداً يناقش إجلاء الفلسطينيين عن أرض. يتدفق يميني الأسلاك ليحكي قصة اللاجئين شعب صفحت عن المتطوعين.

وإلا، مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، حقيقة أن ٧٠٠٠٠ فلسطيني باتوا لاجئين خلال الحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٤٨ م. وعلى عكس عيظ كل ذلك، يطبق على الحرب والتهجير الجماعي، تتنوع مواد إرشيدية جديدة النظرية، بل وعلى القدس ويافا، وكيف أدت هذه الأحداث إلى انهيار فلسطين المعنية. يكثف الكتاب النقاب عن معارل وممارسات وحشية صامتة على تفكك المجتمعات العربية، وهنا سوف يلقي الضاهن الرصد سريعاً، تفاعل هذه الأحداث الآن إلى الأبد، الرامية، ولما لا تنفك، فضائهم عقبية رديسية أمام تحقيق السلام في المنطقة. إن كتاباً ذو قوة استثنائية وتزاغة غير مهمودة أدق سوف وسحلي إسرائيل، يروي على الحكاية العظيمة عن الهروب والخوف ويروها كما لم يروها أحد من قبل، ملحة ملقية وإيجازاً على تفاصيل مريعة وإمالة بالغة. وهكذا يلبث الكتاب معلماً رائداً يناقش إجملة الفلسطينيين عن أراضيمها ما بين ١٩٤٧ و ١٩٤٩ ويتدفق بمسئتي السلاسة لتجكي قصة التلاحم شعب من جنود حتى وإن غاب عنه صوت الفلسطينيين.

الحرب من أجل فلسطين، إعادة كتابة تاريخ 1٩٤٨  
by Eugene L. Rogan and Avi Shlaim  
Cambridge University Press, 2001, 310  
pp., \$6.23

لقد انصرم ما يربو على نصف قرن منذ نهاية حرب فلسطين عام ١٩٤٨، تلك الحرب التي يسميها الإسرائيليون «حرب الاستقلال»، ويشير إليها الفلسطينيون بـ «الكارثة». وقد تحوَّرت حولها في

البحث عن فاطمة، قصة الفلسطينية

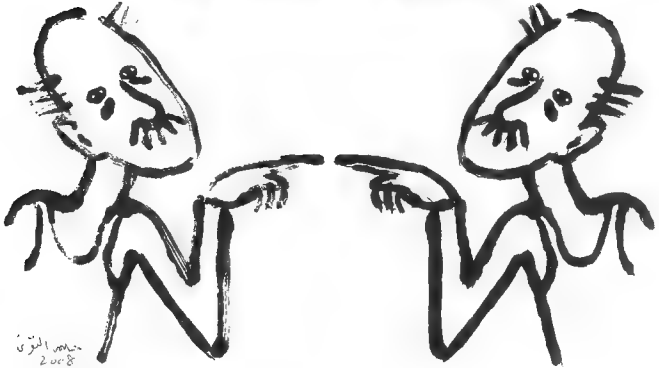
by Ghada Karmi  
Verso, 2004, 451 pp., \$12.21

تسرد غادة الكرمي حكاية سعيها إلى الإحاطة بيهويتها الثقافية بعد مقادير أسرتها المشقة تسعة الحظ، للتمسك إلى بريطانيا خلال تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. تكمن الحارة في استقرار أسرتها في أحد أحياء لندن اليهودية، وسرعان ما بدأت الكرمي بعد العرس تسعة أعوام في الاندماج مع محيطها - إذ صارت قارئة نهم لأدب الإنجليزي وصاحبة جيرانها اليهود - على الرغم من إصرار أهل على ألا يدب المصلي الفلسطيني التقديري وأعراف مقابلة الشبان والقوانين العائلية. وخلال ما تلا من قديمين، طغمت أحداث التأسيس سلوك جيرانها غير العرب إلى العدائية وتزايدت غيب أسلافها اليهود الموالين لإسرائيل، وبعد أعمال العنف التي لجأ إليها الفلسطينيون في العقد الثامن من القرن العشرين، على بعض الأطراف التحدث إلى ما لبثت الكرمي أن صارت ناشطة متحمسة فريدة للفلسطينيين من منطلق تمارس مهنة الطب في عام ١٩٧٧ بمسكو لأجنين فلسطيني يتجوز لبنان لتكتشف أن تربيتها الغربية وعادتها جعلتها في وضعية أسوأ من وضعيتها في إنجلترا.

تكتب الكرومي بقلم جذاب لتسجح كروايتها الشخضية تاريخ فلسطين السياسي والاجتماعي تسبق على معضلات المهاجر الأتلية كتيبة خاصة، وعلى الرغم ان روايتها خرجت في النهاية الى قضايا فيما يتعلق بالاعتداء الاسرائيلي- الفلسطيني، قد تروق بين الكتاب المبشرة القراء ذوي العقول الوطنية، السياسية، والمثقفين الحائذين بين افكار متبصرة عن تجربة الحياة الفلسطينية، سوف يجد القارئ في تلك المكاسا لتجارب قترارهم بين الحرية والخسارة والحنين لتحديث يلسان ملايين الأشخاص حول العالم من تلكت طحيات حيوانهم الى الأبد بين القديم والحديث.

إن البحث عن هاتمة سيرة ذاتية مهمة مكتوبة بـسرة جميلة الإيقاع بقلم امرأة ذكية حساسة ليملأ فراغاً في دراسات الصهيونية ويحيى بكفاءة منقطعة النظير مشاعر الخوف والتردد والهميرة التي تتخالج الفلسطينيين. ها هي قصة من قصص الإبداع والشتات منسوجة بلهجة فلسطينية حادة. إنه سرد ممتع لخلافات متصنع على الحل من وجهة نظر امرأة، على غير العادة.

# نحن المسنون



تاسيس المبنى  
2008

## قصدى حفى

باستحالة المستحيل فيلبثون في امكانهم، مطمئنين لآلامهم كاشد ما يكون الاطمئنان، سمداء زواهم كاشد ما تكون

السعادة

وقد نجد شير هؤلاء وهؤلاء من البشر من لا يكسبون عن محاولة بلوغ ذلك المستحيل، فيفشلون مرة ومرة، وتتعدد مرات فشلهم، وهم لا يستطيعون تخلياً عن حلمهم بعد ان اطمأنوا إليه، ورغم كل ما يشير إلى استحالة بل وإلى عدم جدوى تحقيقه ايضاً، نجدهم ورغم كل شيء يمسسون في وقوع محاولاتهم، دون ان يغيثوا الأمل في وقوع المحرزة، وتحقق المستحيل، ويعيننا من تلك الأحلام والرؤى حلم عرفة الإنسان واستحال عليه أن يحققه ورغم ذلك فقد ظل دوماً يدايع خياله، ومن حين إلى آخر يقدم على محاولة تحقيقه أملاً في وقوع المحرزة وتحقق المستحيل ويتمثل ذلك الحلم في محاولة الجمع في الفرد الواحد بين مزايا الشياطين والشرع جميعاً، أو بالتجديب في محاولة أن يلبس الشيخ لباس الشباب لشغفها وعاطفة وقدرعة احتفاظه بعقل الشيوخ وحكمهم.

وتأخذ تلك الصورة أشكالاً عديدة تطالعنا على مستوى الأمنيات والآمال والحكايات الشعبية التي تدور عن أكسير

أكسير الحياة كما إن للشريرة علوماً تحزنتها ومازالت تعمل على إثرائها، فإنها قد عرفت عبر تاريخها الطويل الكثير من الأحلام التي كانت تجسد أحياناً شوق الإنسان إلى المعرفة بالكون، واستباقاً بالأماني إلى منجزات العلم الطبيعي، كما كانت تجسد في أحيان أخرى شوق الإنسان إلى العدل الاجتماعي، واستباقاً بالزمان إلى منجزات العلوم الإنسانية، ويعد تاريخ الفكر الإنساني بما يحويه من أساطير وحكايات، وما يتضمنه من تصورات لدن فاضلة، مميلاً لا ينصب لمن يرغب في التثقيب عن تلك الأحلام والرؤى التي تحقق منها ما تحقق، وبقي منها ما بقي محققاً بقدرته على حفر البشر إلى تحقيقه، وتحطم منها ما تحطم على صخور الواقع العلمي، فألفا قدرته على الحفز، قائماً بدوره كحلم مستحيل ترويه الجذبات المسجانية لأطفالنا عند النوم، أو تسجله صفحات قصص الخيال العلمي، وطمعنا إليه أولئك المختلفون إلى المعرفة أو إلى العدل الاجتماعي ممن تقعد بهم أكتافهم أو عزائمهم عن جهد محاولة الإنجاز، ويحول طموحهم وتطلعاتهم دون اقتنائهم

الحال عن تخصص العلمي، محاولاً ما وسعني الجهد إلا أكون ذاتياً فادافع بحسب ويصير حق عن جماعتي من المسنين.

وعادت من مشكلة الصراع بين الحديث بضمير الغالب والحديث بضمير المتكلم إلى خبرة لي وقعت منذ سنوات بعيدة حين استعزفتني فضول التعرف على الجذور التاريخية للعلم الذي تخصصت فيه: علم النفس، وفادتنى تلك المحاولة إلى نقد للعلماء الذي خلفه هذا العلم وكشف للانتماءات السياسية والمكرية لرواده، وكنت ما انتهيت إليه مما لا مجال لعرضه في سياق اهتمامنا بتقصية المسنين: غير أن واحداً من كبار أساتذتنا جازاني حين قرأ ما كتبت ملاحظته بالغة الأهمية، إذ قال لي، «أراك تتحدث عن علماء النفس بضمير الغالب كما لو كنت لست بما نرى هل في محاولته منك للتبرؤ من تخصصك؟»، وأثنت على همة أساتذتي التحليل الذي كشف لي ما لم أكن واعياً به حين كتبت ما كتبت، والذي كان استخداه في لضمير الغالب يكتب وحق محاولة للتخلص من تاريخ أعترض عليه<sup>(١)</sup>، استعذت هذه الخبرة القديمة ثم شرعت في كتابة هذه السطور

■ من أنا؟ اكتشمت وأنا اقتررب من المسنين انشئ احمل هويتين هويتى المهنية كمتخصص في علم النفس وهى الهوية التى راقتنى فى كتاباتى طيلة نصف قرن، وهويتى كواحد من «فئة المسنين»، واكتشمت أنه قد جرت العادة فى مثل ذلك السياق ان يستخدم الكتائب ضمير العائد، فيشير مثلاً إلى خصائص الضعفاء، أو سمات الاطفال إلى اخره، غير اننى لو استخدمت ضمير الغالب فى حديثى عن المسنين سوف أكون واحداً من الكثير، إما مدعياً لحياة غير حقيقية نزع من انشئ الشاؤل طاهرة لست جزءاً منها، أو مستحلاً صفة الشياطين الذى وعدته منذ سنين، ولذلك فقد حصلت ان يكون حديثى صادفاً ان يكون بصفة المتكلم، وهمسى ذلك الإحساس إلى الخروج عن النمط المألوف الذى ائتمره عادة فى كتاباتى العلمية من حيث البدء بطرح التساؤلات ثم عرض الدراسات السابقة ثم استخلاص العروس واختيارها ميدانياً والانهاء إلى النتائج والتوصيات، حيث انشئ جزء من المادة الميدانية التى ينمى ان اشغلها دراسة متخصصة عن المسنين وهم ثم فإنى يتشكل أو بأخرى اقوم بإطلالة من الداخل محاولاً ألا أخطئ طبيعة

## أصبحت الشيخوخة حالياً تكاد تشكل تخصصاً علمياً قائماً بذاته يتناول النواحي الثقافية والاجتماعية ودراسات النوع والتغيرات الاجتماعية والديمقراطية، وكذلك النواحي الفيزيولوجية



الأبيض مبتسماً مردداً ما معناه أن الأمر لا يحتاج إلى دليل.

لم تكن نادية بتشكيل وعي بدوري الجديد مقصودة بشكل مطلق على ذلك الرسائل التي تبثت لها المحطون، بل شمة رسالة أو لنقل خطاباً رسمياً مهيباً يحمل العديد من الأختام والتوقيعات، يتلقاها أستاذنا من المسنين العاملين في وظائف الدولة. أعتنى خطاب انتهاء الخدمة أو بلوغ السن القانونية للإحالة للتقاعد أو العاش، ورغم أن ذلك التاريخ تاريخ محمد منذ تسجيل واقعة الميلاد؛ ومن ثم فإنه معروف ومتوقع. يتقنياً للجميع وأهم صاحبه، فإنه يكون لنا بالبررة الصاعدة المؤلة لدى العديد منا نحن المسنين إذا ما قرأناه باعتباره يقول: قد انتهى دورك ولم تعد في حاجة إلينا، وقد لا تخلو تلك القراءة من حقيقة، فعلى تلك الخطابات الرسمية، تحرس ربما من باب الوقار أن تكتب بصيغة شديدة الجفاف خالية من أية تشاؤم، إنسانية تضاعفت حتى ولو كانت مجرد كلمات، لقد تليفت ذلك الخطاب الجاف ولكنني لم أحس حياله بصدمة أو أسى. ربما لأنني أعتدت نفسي لتلقيه، وربما أيضاً لأنني أعلمت في الجامعة حيث لم يتغير شيء متعلق بالعمل سوى بتركي المنصب الإداري التي تغيرت بشكل تكويني، التغيير أصبح بنا كغيرنا، رغم أن الأعمال الأهم في ظني أنني كنت محاطاً بجموعة من الأبناء/الأستاذة الذين أحاطوني بكيل يوم الإحالة للمعاش، وما زالوا يجمعونني بما لا أستطيع التعبير عنه من مشاعر المودة والفرحان. كانت مشاعري بلوغ سن التقاعد مشاعر إيجابية دافئة، ولعل خبرتي الشخصية تلك تنفع مع ما أشرت إليه العديد من الدراسات من أنه رغم الطابع العلمي العام لخبرات الإحالة للمعاش بالنسبة للمسنين؛ فقد أشرت دراسة هابيليب وبليك<sup>١</sup> مثلاً إلى أن بلوغ سن التقاعد قد تكون له آثار إيجابية إلى جانب الآثار السلبية.

حسناً لقد أصبحت مثلاً، إن، وتوالت الخبرات تؤكد لي ملاحج الدور الجديد، أنني قد دخلت في رزمة المسنين، ولحسن الحظ فقد كانت رسائل نهاية تجربة تعبر من ميزان التقدم في العمر ووترك لي استنتاج المآل والمعاملة معها.

### صورة المرأة والعلم

وبالإضافة لهذه الواقعة الرسمية المعلنة ذات التوثيق الحاسم، فتمهذ ولقاح ربما تكون أكتامهم لكنها تعطين في نفسها رؤيا، رؤيا من خلال خبرتنا لأفصنا في المرأة، إذ اكتشفنا

أن شمة دوراً جديداً له مواصفاته، وتوقعاته من قبل الآخرين، محاطوا منا أن تقوم به؟ أعود إلى ذاكرتي محاولاً البحث عن إجابة لهذا السؤال من خلال خبرتي الشخصية:

• أذكر يوماً زكيت فيه مواصلة عامة مزدحمة، المقاعد كلها مشغولة وهناك عدد من الواقفين، وكنت أتملك كقريب العهد بالوقوف لأدعو مسناً للجلوس مكانى، وإذا بشباب من الجلوس يقف ويدعوني للجلوس مردداً: أفضل يا حاج، لقد تغيرت الأحوال فأصبح الشباب يقفون لى لأجلس كما أخفت الألفاظ كان ذاتي به مسناً باعتبارك تسخر منه؛ وأصبحت أنادي بالحاج وهو نادى يطلق في مصر على المسنين عامة بصرف النظر عن ادائهم فريضة الحج، ماداموا لا يتلقون ما يدل على أنهم غير مسلمين.

• كنت في الولايات المتحدة في زيارة علمية، وحين دخلت معطماً خلال فترة المقاهة لأتناول وجبة سريعة فوجدتني قائمة الحسابات تسمن خصماً لم أعلمه بطبيعة الحال وتذكرت على الفور أنني أصبحت «مواطن» مثلاً كلمة Senior citizen. وحين داعيت النادل متسائلاً: لماذا لم يسلطني من وثيقة تثبت استحقاقى لذلك الخصم، نظروا لي ملاحى وشعروا



## إنني بشكل أو بأخر أقوم بإطالة من الداخول الأعلى بطبيعة الحال

## عن تخصصي العلمي، محاولاً ما وسعني الجهد ألا أكون ذاتياً فأدفع بحق وغير حق عن جماعتي

## من المسنين



خالصة القول إنه إذا ما كان شمة خير في التصنع العقلي إذا ما جازو حده، فليس شمة خير كثير في نضج الفعالي وجاهد تلك الحدود. إننا لأصبح في تلك الحالة الأخيرة حيال استيقاق لمراحل النمو، بقدر مراحل ذلك النمو.

### مضى أصبحت مسناً

لقد شمت ظاهرة النمو النضج اهتمام المستعالمين لعلم الإنسان منذ زمن بعيد، وكانت محلاً لبديد من دراسات علماء النفس ولقد تطورت هذه الدراسات جميعاً حتى أصبحت علماً مستقلاً يبحث في سيكولوجية نمو جميع مظاهره وهي جميع مراحلها. واتصلت هذه المظاهر جميعاً وتداخلت مع بعضها البعض في المساق النمو النفسي. وهذا يعني أن الخصائص الجذلية لمظاهر النمو النفسي أصبحت واضحة الحدود والمعاليم، وتمايزت في اختصاصها على أطوارها، واستقامت كمبادئ مستقلة من مبدئين علم النفس الحديث، والنمو النفسي وفقاً لتعريف العلمي المحدد هو سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة، هي اكتمال النضج وبمضى استمرار وجوده استحداره، فالتنمو وبمضى المعنى لا يحدث فجأة ولا يحدث بشكل عشوائي، بل يتطور بانتظام خلوة إثر خلوة، وتضعف أطوار النمو لتتابع منظم، وتآلف مظاهره في سلم متعاقب المراتب لا تتقدم فيه خلوة ثم أخرى، فالتنمو يعدد ثم يحو ثم يقف ثم يمشى، ويصير صرحاً الجهد قبل أن يناهى، ويناهى قبل أن يتكلم، ويجيد رسم المحتياض قبل أن يجيد رسم الخطوط المنطقية، ولكن لا ينبغي أن يرضى هكذا بل نهاية، فنكس على نهاية، فلا يلدت هذا النحني الصاعد للمو في الهبوط، ويوماً ويوماً لتزد عبارات مثل: «لئس أحكاماً، ويوماً أخرى قد أصبحت صوغاً، وبها الله حسن الختام، ويوماً لتلقظ أذاناً عبارات من نعت، بسم الله ما شاء الله لا يبيدو العلم، وأن وال شباب القلب إلى، آخر تلك العبارات التي لا تقال إلا لأمانتنا من المسنين لتؤكد لهم حقيقة كونهم مسنين وتحوال في نفس الوفاء طماننتنا ولو بشكل مبالغ فيه.

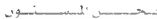
ويؤتى سؤال بالغ الأهمية من الناحية النفسية، متى يتكشف المسن أنه أصبح مسناً؟ وترجع أهمية هذا السؤال إلى حقيقة أن الوعي بالذور الاجتماعي يعد الشرط الأساسي لتوافق الاجتماعي؛ ومن ثم فإن احتلال هذا الوعي يكون مصدراً لخلل ذلك التوافق ولا يرتب عليه من آثار نفسية واجتماعية بالغة الخطورة. الطفل يكتب وبمضى بدوره الاجتماعي طفلًا مراهقاً من خلال الأسرة التي تقوم على تربيته؛ إنك ما قد صيرت ملا ينمى أن نصل كما وكذا، أو لا ينبغي لك أن تتصرف هكذا فقد كبرت ولم تعد طفلاً، ولكن ماذا عنا نحن المسنين؟ كيف لتكتشف

للحياة الطريق إلى شاق، وطويل وملء بالصعاب، إن استطاع تحمل مشاق الطريق، ويبلغ الغاية، ورشف من ذلك الأكسبر لم تعرف الشيخوخة إليه سيلا، وهصل على شباب دائم، ولتقصص كثيرة تجل من واقع ما نشهده الآن من شعب العديد منا نحن المسنين، يتتبع بل وترقب ما يمكن أن يقدمه العلم في هذا الصدد من عقاقير وأدوية تعيد لنا شيئا من شباب وكفاءة قدراتنا العقلية والجسمية، أو على الأقل تقلل من سرعة التدهور الجسمي لتلك القرارات؛ يمثل إشكالا جديدة لنفس الصورة وإن كانت على مستوى محاولة الإحسان.

إننا قد نشهد بالفعل في حياتنا اليومية مظاهراً يشي إلى الفران، أو يتمكن من نطق الكلمات بليهم، أو يسبقهم في الإسماك بالفعل أو في التحكم في عادات النظافة أو ما إلى ذلك، كل ذلك قد نشهده دون أن يثير دهشة المتخصصين من بيئنا ولكن أثار شدة وحده ومقداره الذي لا تجاوزه أثار تساؤل المتخصصين ودهشة غير المتخصصين أيضاً، ولتصور مثلاً طفلاً في الثانية من عمره يستطيع نظم شعر مثلاً، أو طفلاً في الخامسة من عمره يستطيع حل المعادلات الرياضية، عندئذ الحمد لتثبت الدهشة وتثار التساؤل إذ تصبح حيال ماذا يسمى العامة، الطفل المجرة.

والأمر بالمثل في يتعلق بالانضج الانفعالي؛ فكل مرحلة من مراحل النضج لخصائصها الانفعالية التي تميزها عن سواها، أو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة في هذا المجال يحكمه ما يحكم النمو عامة من القوانين وقواعد، قد يكون النضج العقلي أمراً مرغوباً اجتماعياً وأخلاقياً، أما فيما يتعلق بالموافق من النضج الانفعالي المبكر فإن الأمر لا يلبس على ذلك القدر من التقبل الاجتماعي والأخلاقي، ولتصور ما طفلاً لا يلعب ولا يشرى ولا يتقافز ولا يندفع، يضم ما يلاجلوز سبب الانفعال، فيضجك إذا ما صرحت صرعه بمقدار، ويصير إذا ما حزن يفسدوا ويبيى إذا ما يبتسم بمقدار، ويتحدث أحاسيسنا نحن المسنين، ويسعمل تشعل ما نفضل به وبشعر الافتلاذ، قد نبغضنا هذا الطفل، ولكنها دهشة إشفاق وليست بحال دهشة النهار.

خالصة القول إنه إذا ما كان شمة خير في التصنع العقلي إذا ما جازو حده، فليس شمة خير كثير في نضج الفعالي وجاهد تلك الحدود. إننا لأصبح في تلك الحالة الأخيرة حيال استيقاق لمراحل النمو، بقدر مراحل ذلك النمو.



۵۲ بحار انوار



## نحسن المسنين

### لستنا أقلية، نحن قادمون

كان عام ١٩٩٩ هو عامنا وهذا قرار الأمم المتحدة التي اعتبرته العام العالمي للكبير سنًا تحت شعار: نحو عالم لكل الأعمار، ووفقًا للبيان الصادر بهذا الشأن فإن حياة الأفراد وكذلك البيئة الاجتماعية تتأثر بالتغيرات الديموجرافية، فشهدت

انخفاضًا في متوسط أعمار البشر عشرون عاما خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ونظرا لسرعة وحداثة ذلك التغير فإن المجتمع لم يكن مهيأ لاستيعاب هؤلاء القادمين الجدد. لقد تغير بنين الأسرة بحيث كان يعيب ذلك التغير الهولاء التقليدي الذي تستلزم قاعدته كثرة من الشباب ولا يوجد على قمته سوى فئة من المسنين. لقد انقلب شكل الهرم فاصبح من المألوف أن تتشكل الأسرة من طفل أو طفلين وأب وأم، وأرملة جدد، وربما بعض أباء وأولئك الجدد، أي أنه يكثر للأسرة في عالم اليوم أن تضم أكثر من جيلين من نفس المسنين الذين تتجاوز أعمارهم ٦٠ عاما. ووفقا لبيانات الأمم المتحدة أن العالم يدخل في الـ ألفية تصبح فيها نحن المسنين ثلث البشر خاصة في الدول الأكثر تقدما، وأن حوالي ٢١٪ من المسنين تتجاوز أعمارهم الثمانين وأن تلك النسبة سوف تصل إلى ٢٤٪ عام ٢٠٥٠، وأن غالبية هؤلاء سيكُونون من النساء اللاتي يشكلن ٦٥٪ من تجاوز أعمارهم ٦٠ عاما و٦٥٪ من تتجاوز أعمارهم ٨٠ عاما، وأن الغالبية ستكون من أبناء الشرق. وتشير بيانات منظمة الصحة العالمية أيضا إلى أنه منذ عام ٢٠٠٠ وحتى عالم ٢٠٥٠ سيزيد عدد من تبلغ أعمارهم ٦٠ عاما فأكثر من سكان العالم أكثر من ثلاثة أضعاف، أي من ٦٠٠ مليون نسمة إلى مليار نسمة، وأن معظم هذه الزيادة ستكون في البلدان النامية، حيث سيزيد عدد المسنين من ١٠٠ مليون نسمة في ٢٠٠٠ إلى ١.٧ مليار نسمة بحلول عام ٢٠٥٠.

وقد صاحب تزايد ديمويتنا العديدة، وتطور أساليب الرعاية والوقاية الصحية، أن أصبحت البيئات الاجتماعية في الفترة الممتدة بعد التقاعد أفضل مما كانت عليه، وهي ضوء التغيرات التي طرأت على طبيعة سوق العمل بحكم التطورات التكنولوجية فقد تراجعت الاحتياجات إلى الأعمال التي تتطلب جهدا بدنيا لا يقدر عليه إلا الشباب، وتزايدت الاحتياجات إلى الأعمال الذهنية والمكتبية، ومن ثم فلم تعد نحن المسنين نمثل بالضرورة عبئا اقتصاديا على الأجيال الشابة كما كان الحال في الماضي، ولم يعد الغرض من عالم اليوم أن نقوم نحن المسنين بالجدات والجود بتقديم الدعم الاقتصادي لابنائنا الأبناء والتكليف الأخلاقي.

ولعل تلك الحقيقة تذكرنا بأن ما قالت به سيمون دي بوفوار في كتابها الصادر عام ١٩٧٠ «الجنون والتقدم في العمر، إن مكانة المسنين ليست حقا لهم بقدر ما هي منحة تقبلها بها عليهم المجتمع باعتبارهم أقلية غير منتجة، ومن ثم فإن مصائرهم محقة على إرادة أبناء المجتمع النشطاء الذين يمثلون غالبية المجتمع». لقد تغير المجتمع عما كانت تصممه سيمون دي بوفوار فالعديد منا أصبح يشهد إسهامه فعالا في العملية الإنشائية ويؤكد بيانات الأمم المتحدة أن تحول نظرة المجتمع إلى المسنين لكي تصبح أكثر إيجابية وتطورا إنما هي نتاج لجهود المسنين أنفسهم من خلال تزايدهم عددا وتأييدهم ووعيهم الاجتماعي بذلك.

ولكننا نبالغ كثيرا إذا ما عمننا تلك الصورة المتفائلة، فلكل شيء نهاية، ومهما طالت الحياة هاووت يقى وكل نفس ذلقة، وكثيرا ما لا تتحقق آمينتنا بسمن الختام، بمعنى أن نمضي في هدوء دون أن نقبدا الفرش والحصن، ونعوزنا الحاجة، وتشهدنا مرضنا على التواضع فضلا عن العناية بالفسنا، ونصبح عبئا قويا على من حولنا من الأجيال وعندها تزايد حاجتنا بأن نازلنا لنفقد كثيرا في العديد من بلداننا العربية حيث ما زال الكثير من

كلما تقدم بنا العمر زادت إحساننا باقتربها أو اهتراننا منها، وتفاوتت تعبيراتنا ورود أفعالنا حيال تلك الحقيقة، البعض من يميل إلى تجاهلها والاندفاع في ضراوة محاولة كسر تلك الفجوة الموضوعية التي اشترنا إليها بين القدرة والرغبة محاولا التخلي عن الموت بأدءاء ذوب شبابه والقف ما يطلق عليه تصوير، المراهقة المتأخرة، وقد يفصل البعض منا وقد خلا عالمه من الأصدقاء والأقربان أن يتجمد مكتنفا عازلا عن الحياة منتظرا الموت بل مستعجلا فهو، وقد يجد البعض منا - ممن أوتى حكمة- سيلا واقعا متوازنا بين هذا وذلك للاستمرار في الحياة متأقلا حقيقة أنه قد أصبح مسنا، محاولا قدر ما وسعه الجهد استبدال الخبرة والفكر بالوقت والفضل.

ورغم كل ما يجمعنا، ورغم أننا بالتصوير الضمني لنرى فئة عمرية هي فئة المسنين، فإننا لا نمثل حالة نفسية متطرفة واحدة، إننا مثل أية مجموعة بشرية، لكل ما حالتها الخاصة التي تتشكل وفقا لتفاصيل تاريخه من تعليم وتربية وعمل وروح وأمراض وإصابات وأفراح وأتراح ومكاسب وخسائر وأمال وأحباطات وإنجابات وخفايا، وطبيعة البيئة الاجتماعية المحيطة به، فضلا عن ينشأه النفسي الخاص، وقدرته على التكيف أو الصراع، وكذلك كيفية استجابته له هذه المرحلة وكيفية وقوعه في مقتدرات مثل فقدان العمل أو الزوج أو ابتعاد الأولاد أو عدم الأمان الذي قد تطرأ للمجتمع والبيئة وماكاسب ونفسي، فهو في قمة الدور الذي يلعبه المسن وأهمية هذا الدور لنفسه ولآخرين وفقرها الإيجابية أو السلبية في هذه العلاقة بين المسن والمجتمع يقدر ما قد ينعكس الحالة النفسية.

وقد قدم مالك هادين McFadden (٢٠٠٥) في بحث له بعنوان علم الشيخوخة وسيكون في القرن العشرين دراسة مشيرة للاهتمام إلى قارن بين مجموعات ثلاث من المسنين لتدريج أعمارهم بين الأصغر سنا (٦٥-٧٤ عاما) ثم (٧٥-٨٤ عاما) ثم (٨٥ عاما فأكثر) فلاحظ أن الفرق بين المجموعات الثلاث من ما هو معروف من العمر والوظائف نتيجة للشيخوخة حيث قد تجد فرق بين مسنين في نفس العمر ولكنهم يختلفان تماما من حيث قدراتهم الذهنية والفيزيقية. غير أن كبار السن يشكل عام الحرب إلى المحافظة في حين أن الشباب أكثر اندفاعا نحو التغيير السياسي والاجتماعي وقد أشارت نتائج دراسات مالك هادين إلى ارتباط ذلك بتزايد ميل المسنين إلى الاعتماد على الدين في مراحلتهم منضوط الحياة.

يعانين من التحمل والتهميش والحرمان، ويصعبون الأكثر حاجة لبرامج الرعاية الصحية والتأمين الاجتماعي، حيث مازالتنا نجد مخامرة من الصنفا ومنهم من يصر منها أحيانا سطحية كثيرا ما ننظر إليها باعتبارها دليلا على ذكرا الأسرة للجمل وتخليها عن كبارها، وهي نقية يصر منها أحيانا سطحية الحال رغم عجزهم الموضوعي عن رعايتنا رعاية كاملة، ونفاوسا نحن منكريين أن عجز هؤلاء الأجيال عن تقديم ما نطمح إليه ونستحقه من رعاية لا يقوم دليلا على ما يرجع لشغلهم بأعمالهم ونفاسيل حياتهم اليومية، وأنهم في الغالب قد لا يرضون علينا بعوائد عملهم ألسد تكاليف دور رعايتنا

خلاصة القول إن الشيخوخة لا تعنى بالضرورة الانكسار والتهميش على الشباب الذي لم يمتدح شيوخة سديدة، صحيح قد ندرج مع الفشار كلمنا، ليت الشباب يعود يوما فأريه ما فعل المشيب، أو ننسى عار حال الشباب فندم على الشاهر، يعزىنا بالشيب وهو وقت لنيتها عبرت بما هو عار، ولكن يعل ذلك مثارا للمكافأة وباعثا على الانتماس. ❖

### ❖ النظم

براي في نشأة علم المسن - الفكر المعاصر  
القاهرة، العدد ١٢، أبريل ١٩٧٠  
نظرة على نشأة علم النفس، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٢٤، يونيو ١٩٧٠  
علم النفس بين الطبقة والموضوعية، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٦٨، أكتوبر ١٩٧٠  
موقف فوري في علم النفس الأمريكي، فيثام، الطبقة، القاهرة، يونيو ١٩٧٢  
الأسس التطبيقية لعلم النفس المعاصر، الأمانة العامة وجدها، دراسات عربية، بيروت، نوفمبر ١٩٧٥

فولتس، فيلسوف، وسياسي، وعالم، مجلة علم الشيخوخة، العدد الأول، يناير ١٩٨٧  
Haystack, B., & Panek, P.E. Adult Development and Aging. New York: Harper/Collins, 1994  
Stanley Hall, Senescence The G (r) Last Half of Life, D. Appleton & Company, New York, 1922 P  
(١) فؤاد السيد، الأسس لفهم للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨  
(٢) The (٥) Psychology of Aging, London Jessica Kingsley  
McFadden, S. (2005) Gerontology (١٦) and the Psychology of Religion In R. Paloutzian & C. Park (eds.) Handbook of the Psychology of Religion and Spirituality, New York: Guilford  
Simone de Beauvoir, The Coming (v) of Age, p. 85

## البعد الفائب!



# الإخوان والصوفية

## حسام تمام

لقد تكونت لدى الشيخ حسن البنا فتاعة أكيدة بأهمية التصوف؛ فليس أفضل من الصوفي لتقوم عليه نهضة الأمة، إذ الصوفي عنده «متخفف يجب عليه أن يقطع علاقته بكل ما سوى الله، وأن يجاهد في هذه السبيل ما أمكنه من ذلك، ولكنه ظل قادراً على وضع يديه على ما رأى أنه مواطن خلل وضعف تحول دون قيام التصوف بما يمكن أن يعول عليه في نهضة الأمة من عثرتها.

لقد كان الشيخ البنا على ثقة كاملة بقدرة الصوفية على قيادة الجماهير إذا ما خرجت من عزلتها وتفاعلت مع مؤسسات الأمة خاصة مؤسسة الأزهر الشريف بقوتها العلمية والجماعات الإسلامية العملية، ومن ثم فهو يسعى إلى أن يكمل ما بدأه مصلحو الصوفية من أمثال الشيخ توفيق البكري والشيخ عبد الله عفيفي من إصلاح التصوف منهجياً لتأهيله لقيادة الأمة.

ويبدو أن حسن البنا عانى في بداية

في اتباع الوظائف والأوراد لكنه وضع شروطاً لسلامتها أجعلها في ثلاثة، البعد عن الأعجمية، والبعد عن الفلسفية والبعد عن الشطحيات.



ورغم أن الشيخ حسن البنا حسم بوضوح انتماءه للصوفية ولكنه ظل يأخذ على المتصوفة أمرين لم يحصهما في المباشرة في الصمت والجوع والسهو والعزلة رغم أن لها أصولاً في الدين، وكذا خلط التصوف بالمواجيد والفلسفة.

ورغم ذلك فقد أقر للتصوف بالفضل في نشر الإسلام في بلدان وجهات كانت غالبة عنه خاصة في أفريقيا وآسيا، كما أقر بعض التصوف في ناحية التربية والسلوك لما له من «الأثر القوي في النفوس والقلوب والكلام الصوفية في هذا الباب من صولة ليست لكلام غيرهم.

المباينة، وسماحة هؤلاء الدافكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشركوهم ذكر الله تبارك وتعالى، كما يرى في مذكراته، مذكرات الدعوة والداعية، والتي جس في مطلع شبابه للطريقة الحصافية الشاذلية وواظب على الوطيدة الزروقية وهي الوظيفة التي زكاها والده الشيخ عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي صاحب كتاب الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، والذي كتب عنها أيضاً رسالة خاصة أسماها «تقرير الأهلدة الزكية بأدلة لذكر الزروقية» أكد فيها مواهقتها للكتاب والسنة.

أخذ الشاب حسن البنا العهد على شيخ الطريقة الحصافية الشيخ عبد الوهاب الحصافي وطيفة ووردا، وشارك في الطريقة أوراداً ووظيفة واحتفالاً، وتطورت علاقته بها فانتقل من محب إلى تابع مبالغ، وظل مؤمناً بأن لا حرج

■ تقارب هذه الورقة قصية العلاقة بين الحركة الإسلامية والتصوف تاريخياً. وتتل بحالة الشيخ حسن البنا ومشروعه في بناء جماعة الإخوان المسلمين، كما ترصد كيف تراجع الحضور الصوفي لحساب الرافد السلفي، وتطرح في الأخير التساؤل حول إمكانيات استعادة الحركات الإسلامية للمكون الصوفي التريوي الذي كان عاصماً لها من تعول السياسة وتحكم منطقتها وأحلافها.



نشأ الشيخ حسن البنا نشأة صوفية خالصة، متأثر منذ طفولته بدروس شيوخ صوفية التي كانت تعقد في المسجد الصغير ببلدته المحمودية (بمحافظة البحيرة بدلتا مصر) بين الغرب والعشاء، واجتذبتة ميكراً «حلقة الذكر بأصواتها المسمة وشبهها الجميل وروحانياتها



حياته الدعوية ترددا حول أي الطرق يسلك في طريقه إلى الله؛ وكان يقارن بين طريقتين أولهما التصوف الصافي الذي يتخلص من الإخلاص والعمل وصرف القلوب عن الاشتغال بالخلق خيرهم وشرهم وهو أقرب وأسلم، ولذانهما طريق التعليم والإرشاد، الذي يجمع الأول في الإخلاص والعمل، ويرافقه في الاختلاط بالناس، ودرن أحوالهم ومُشايان مصامحهم ووصف العلاج الناجع لهم. وهذا أشرف عند الله وأعظم.

وتكتشف نقاشاته المطولة مع شيوخ الصوفية الذين عرفهم مثل الشيخ عبد الوهاب الدردراوي والتفكير حسن عبد الله المسلي والشيخ عبود أستاذي والسيد محمد الحافظ التيجاني؛ أنه كانت لديه ميول حركية مبكرة لكن من دون رفض للتصوف أو جرح عليه، بل رفض لأسلوب الطريقة أو نشر الدعوة على أنها طريق خاص، وكان يرد على الشيخ عبد الرحمن سعد أحد خلفاء شعبة الحصاني ما كان يناقشه في جدوى أسلوب الطريقة، «إنني لا أريد الدخول في خصوصية مع أبناء الطرق الأخرى، وأنني لا أريد أن أكون مصورة في نظر من المسلمين، ولا في ناحية من نواحي الإصلاح الإسلامي، ولكنني حاولت جاهدا أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد، وفي أركان الدعوة الإسلامية الجامعة، ومن أراد بعد ذلك تربية خاصة فهو ما يختار لنفسه». وحين بدأ العمل تردد الشيخ حسن البنا كما يبدو في سيرته الذاتية كثيرا بين التصوف والتنظيم الحركي، وكان يراه بأهمية التصوف وفاعليته مع رفض أسلوب الطريقة المخلق سببا فيما انتهى إليه من نهج جديد للعمل الإسلامي هو ما يمكن أن نسميه «الصوفية الحركية العسكرية».

لقد بدأ الشاب حسن البنا بتأسيس جمعية (إصلاحية - جمعية الحصانبة الجيرية) واتبع سكرتيريا لها ولم يرز طلبا بل يغادر بلدته بعد، ثم ما إن استقر في مدينة الإسماعية للعمل مدرسا بها حتى أسس جمعية الإخوان المسلمين الأخيرة التي بدأت على غرار الجمعيات الصوفية قبل أن تتطور سرعيا لتظهر فيها الروح الحركية الجديدة. حين أسس البنا جمعياته الجديدة كان يتحاور الطريق الطري المخلق على أنشاء الطريقة لتؤسس لتنظيمه الحركي باعتباره امتحانا على الأمل ولكن دون أن يعاثر برفض التصوف، فقد تحول حسن البنا إلى الدعوة العامة بدلا من الدعوة الطرية، وحشد قوام دعوته - العلم والتربية والرفاق

لقد صاغ حسن البنا جماعته لتكون جماعة إسلامية شاملة هي دعوة سلمية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية، ولكنه كان واعيا أن نظامها كجماعة يقوم على قوامين أساسيين هما الصوفية والعسكرية. وقد قال هذا نصا في رسالة التعاليم حين أدار وصف أهم جوانب دعوة الإخوان، «وظفان الدعوة في هذا الطور صوفي بحث من الناحية الروحية، وعسكري بحث من الناحية العملية».



حين أسس حسن البنا الجماعة الإسلامية الأولى في العصر الحديث كان يؤسس لها يمكن أن يسمي بالعسكرية الصوفية العسكرية، وهي حركية استحصرت فيها روح التصوف ولكن من دون أطرها الطريقة المخلقة، ويمكن القول



أن البنا في مثاله لجماعته استمد من التصوف على ثلاثة مستويات: البناء التنظيمي، التأثير الثقافي، والتكوين التربوي العملي.

#### أ - البناء التنظيمي

لقد أسس الشيخ حسن البنا جماعته شمولية جاءت مزيجا يجمع ما بين شكل التنظيمات السياسية الكلية والشبوعية التي كانت قد انتشرت في تلك الفترة (الربع الثاني من القرن العشرين) وبين الفضاء الصوفي الذي نشأ في ظله، ويظهر الأثر الصوفي واضحا لا لحقله العين في عدد من المكونات التنظيمية في جماعته.

فهناك «الأُسرة»، التي هي أصغر وحدة تنظيمية تتأسس منها الجماعة، وهي يمكن أن ينظر إليها كتطويع لـ «الخلية، الشبوعية ولكن بتأجه صوفي. فقد اختار البنا اسم الأسرة بدلا من الخلية تعبيرا عن أنماط العلاقات التي

تقوم أو ينبع أن تكون بين أفرادها، هي تحيل بالضرورة إلى معاني التكافل والترابط والارتباط الوثيق الذي يماثل رابطة الدم في حين تحيل، «الخلية، إلى ضغط من علاقات الإنتاج المنضبطة ولكن دونما إشارة إلى الجانب العاطفي والإنساني.

إن وحدة الأسرة في البناء التنظيمي لجماعة الإخوان صارت تحيل إلى نمط من العلاقات التنظيمية ولكن في إطار روحاني وفي ظل افتراض علاقات إنسانية خاصة تكاد تقترب مما بين إخوة الدم، هي تطوير لإطار الشبوعي، «الخلية، في انضباطه وفاعليته ولكن من بعد يحد مضطوا روحها صوفية متقدما.

يرتبط أعضاء الأسرة الواحدة برابط صوفي تروى معنى قبل أن يكون رباطا سياسيا تنظيميا. فهناك الأرواد اليومية (الجماعة) (مثل الوظيفة الكبرى والوظيفة الصغرى) والأذكار (مثل أذكار الصباح والمساء) وحفظ القرآن الكريم وفق مقررات ثابتة ومتصاعدة، وزيارة القبور وقيام الليل وعبادة المرضى

وجلسات التفكير. وكثير من الممارسات والطقوس التي هي إما ذات جذر صوفي أو متأثرة بروح التصوف فلا تخلو من لحاحه.

ثم هناك، «الكتيبة»، وهي لنشاء تنظيمي شجري يجمع عددا من الأسر دون أن يعترض تدريبها أو عملا عسكريا بالضرورة، على ما تبدو مقبوضة من هضاء العسكرية التي لم يكن غريبا عن التنظيمات السياسية التي تأسست وقتها والتي كان لها أهدا أو أجنحة عسكرية في غالبيةها خاصة إذا استحصرتا نظرية الاحتلال الإنجليزي للبلاد وأجواما بين الحريين العربيتين.

ورغم طلالها العسكرية فقد أعطى البنا لـ «الكتيبة» حمولة معنوية مستخلصة ولم يندخلها في الجانب بناء تنظيمي إلا بعدما أعطاها معدا صوفيا واضحا فصار العظام جزءا منها فصار يمكن أن ينظر إليها كتطويع لـ «مناوشة» بل وبالعنف التفتيش، وتكون هناك صلاة فلكم الليل لفترات طويلة، أو السير مع القادر عدة كيلو مترات، أو صعود

الحيالي في الليالي القمرية للجمع ما بين شقة التدريب البدني وسنة التفكير والتدبر في خلق الله، وهنا يجب أن نتوقف أمام حقيقة أن البنا أعطى للمصموم الصوفي في تنظيمه بعدا جهاديا أو استعاده من جديد بعدما غاب في الممارسات الطرية التي تقل عليها الطوقسية.

لقد جاءت «الكتيبة»، في بعض تجلياتها لتطويعا للحصنة العامة المعروفة عند المتصوفة، ولكن بعدما انقلبت من الممارسات الطوقسية إلى الممارسات الجهادية التعبدية.

ومن بيئة التصوف اقتبس الشيخ حسن البنا أيضا لقب «المُرشد»، وهو اللقب الذي اختاره لنفسه واتبعه فيه كل أسلافه، وهو لقب ينشئ للفضاء الصوفي بامتياز والذي عرف ما يسمى بـ «المُرشد الكامل» على نحو ما يؤكد الأستاذ سعيد حوى.

لقد فضل البنا أن يتمتد بتنظيمه وجماعته عن الألقاب التي يمثل بها هضاء التنظيمات السياسية الأخرى (الرئيس والمخير والزعيم...) وأقر أنها للفضاء الصوفي تمييزا لجماعته وإبعادا لها عن الدلالات والظلال السلبية لثل هذه التسميات التي تحيل إلى حالة سياسية صرفة غير ما أراد.

وقد كان للقب المُرشد أهمية قصوى أيضا في قدرته على نمط سيطرته على أعضاء التنظيم الذين صارت سيطرته على تجمع بين الانضباط التنظيمي من جهة والخضوع لسلطته الروحية من جهة أخرى ومن ثم فلم تشهد الجماعته صراعات سياسية على هذا المنصب كالتي وجدت في التنظيمات السياسية الأخرى، وما يمكن أن يكون وقع فيها، ساهمت هذه الدلالة الروحية للقب في الحد من اتثاره وصهره في حدود ضيقة. وهي تحديده لمراتب العضوية في جماعته وتوجيهها لمعبرها استفاد حسن البنا ما ألفه وعرّف عليه في طبيعة العضوية ودرجاتها في الطرق الصوفية فالبنا الذي بدأ في الطريقة الحصانبة مبحثا ثم أصبح قابعا مباحيا استفاد من هذه التراتبية فقسم مراتب العضوية في جماعته على غرار ما وجدته في الطرق الصوفية فصار تبدأ من «الأخ» فالعالمات فالمتدين فالمنتخب فالعامل فالجاهل، كما أعتمد البنا في جزيه كثير من آليات ومبررات الصعود داخل التنظيم مبحثا ثم أصبح قابعا مباحيا استفاد من نفس الآليات التي يمررها العضاء الصوفي والتي تتدرج حسب درجة البنا بواجبات الجانب الروحي من أداء الصلاة وقيام الليل والإكثار من صيام النوازل. وغير ذلك.



## مرت الجماعة بحالة من التحول للسلفية الوهابية منذ الخمسينيات وتعززت مع اشتداد الحملة الناصرية

### الإسلام والصوفية

خروجها جماعة التكسير والهجرة والجماعات المسلحة.

كانت هذه التطورات مما ساهم في تأكل الحضور الصوفي داخل جماعة الإخوان كما كان هناك تطور آخر لا يقل تأثيراً وهو الله السلفي الوهابي (تعزيزاً عن سلفية حسن البنا التي هي امتداد لرشد رضا) الذي ابتاع جماعة الإخوان منذ بدأت حقبة المنافي فحاصر المكور الصوفي فيها.

لقد مرت الجماعة بحالة من التحول للسلفية الوهابية منذ أوائل الخمسينيات وتعززت مع اشتداد الحملة الناصرية على الجماعة وفراق عدد من كبار قادتها واستقرارهم بدول الخليج وخاصة المملكة العربية السعودية محصن التيار السلفي الوهابي، ثم تأكدت تماماً في حقبة السبعينيات التي شهدت أقوى العلاقات للتيار الوهابي دعمها بعد انكسار المشروع القومي الناصري بعد هزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ ثم موت جمال عبد الناصر ١٩٧٠، ثم المفطرة البشورية وارتفاع أسعار النفط عقب انكسار أكتوبر ١٩٧٣ انفتحت الجماعة منها دول الخليج وكانت مما ساعد الدعوة الوهابية على ما نفوذها الدنيى في كثير من أنحاء العالم الإسلامى ومنها مصر.

وفي هذه الحقبة أيضاً ظهرت الجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية والتي كانت في معظمها لها زلف سلفى قوى، ثم لم ينج الإخوان في ضم القطع الأكبر منها كانت السلفية تلبث أقدامها وبثمل أفرع المنظومة الإخوانية التي لم تعد صوفية.

لقد جرى تحول كبير في المنظومة الإخوانية على مدار نصف قرن فلهذا، من الإجماع الصوفى الذى يعطى أوبوية للجانب الروحى إلى الإطار السلفى الوهابى الذى يعطب الانتماء بالنسبة للعقائدى وما يمرضه على من حجاج وصادم مع التيارات والأفكار والممارسات، التى لا يراها متفقة مع الكتاب والسنة، كما تراجعت مساحة التربية والدراسة لحساب العمل السياسى الذى توسعت فيه الجماعة بشكل جعلها أقرب إلى جماعة سياسية ذات مرجعية إسلامية منها إلى جماعة إسلامية دعوية لها اهتمام بالسياسة.

وفى كل الأحوال تعيش الجماعة حالة تحولات كبيرة كما تشهد نقاشات واسعة حول مستقبلها، وكما يكون القاسم المشترك فيها هو وزن الجانب الروحى وموقعه من مستقبل جماعة الإخوان، هل بالإمكان استعادته وفى أى صورة يمكن أن تكون الاستعادة بعدما ضلّت السلفية بجنازير راسخة في الجماعة؟ ■

العدد المائة وأشا عشر - مايو ٢٠٠٨ م

عليه الصلاة والسلام لم يأت للمسلمين فقط.

كما يروى الأستاذ محمود عبد الحليم أحد أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان شينا قريبا من عدا فيقول فى كتابه الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، وكذا ذهب جميعا كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب فىنودى صلاة العشاء، ثم فخر من المسجد، ولصطف صوفيا، يتقدمنا الأستاذ المرشد حسن البنا، يشد لشدنا من ألبشيد المولد النبوى، ونحن نردد من بعده نصوت جهورى جماعى يلفت النظر.

كما سمى حسن البنا إلى أن تكون الأذكار والأوراد وسيلة لجمع التظيم، بل وجعل الاجتماع اليوسى على الذكر جزءا من أدب الأخ المسلم، وهو لهذا الغرض وضع للتظيم مجموعة الأوراد اليومية الخاصة التى يجتمع عليها، وهى ورد الوظيفة الكبرى الذى اختصره فى الوظيفة الصغرى ليكتز به الأخ المسلم فى حال عدم تمكنه من أتام الأوراد وحرص البنا على الاستفادة من

### ٢ - التأثير الثقافى

استحضر حسن البنا خلبيته الصوفية وما تفتحت عليه عيناه من ثراث التصوف وأدبياته وهو يبس جماعة التى نشأت كحركة تغيير ثقافى ومجتمعى قبل أن تكون حركة سياسية.

تجلى ذلك فى الورى الكبير الذى احتله التصوف فى المقررات الثقافية للجماعة. فقد أدخل فيها مكررا عيون كتب التصوف مثل شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى، ورسالة المسترشدين للملحات الحاسبى، والمواعظ اللبدنية للسلطاني، والأوراد المحمدية للنهناتى، والرسالة القشيرة، وأحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى ومختصر منهاج السالكين لابن قدامة المقدسى. ولكنه حرص على التزام ما يتناسب مع التنظيمات العامة وتجنب ما تحسّن به الطريفة أو يقتصر على مريدبها فقط.

كما عمد حسن البنا إلى ثرات التصوف للاستفادة منه فى صياغة زاد روحى لحركته الوليدة كان يمنح فيه من سحر التحريك المشفوح دون التبرج على طرفة الوعة، حيث وضع للحركة رسائل سالماثورات والأوراد (الوظيفة الكبرى والوظيفة الصغرى). كما كانت له رسالة صوفية (مناجاة) لم يقدر لها الانتشار ولكنها تكشف عن متصوف كبير له فى علوم التصوف ومسالقه قدم راسخة. وقد جرى البنا فى هذا الزاد إلى يخرج على السنة والمأثور سواء فى الأدعية أو الأوراد

### ٣ - التكوين التربوى والعلمى

استدعى حسن البنا خبرة الطرق الصوفية ووطنها كالبعض ما تكون فى التكوين العلمى والتربوى لجماعته، فقد اهتم بالأعمال الصوفية مثل المولد النبوى وعمل على توطيئها فى عمل التنظيم فحرص على الاحتمال بالمولد النبوى، ويروى الحاج عباس السيسى من الرعيل الأول الذى حضر فتره التأسيس فيقول عن كتابه فى شقائه الإخوان المسلمين، دعنا الإخوان المسلمون بإسكندرية إلى الاحتمال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى حمل يصحبه هزيمة المرشد العام حسن البنا معتمد نبي الله فانيان... وبعد الأستاذ

حسن البنا محاصرته، ثم دخل فى موضوع الذكر، فقال، نخبى ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن حق الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين أن يحتفلوا بهذه الذكرى المباركة، فسرسلنا



التراث الصوفى فى صبط نية تنطعية والارتقاء بها روحيا فوضع له ورد المحاسبية فى اليوم والليلة ليكون أداة تصبب مدى التزام الفرد بواجباته سواء فى العبادات أو الدعوة، كما لجأ إلى الترقية الروحية بممارسات وطرائق من صوفية، فقد كان كتاب التوهم، للحارث المحاسبى من المقررات التربوية الأساسية فى الجماعة واستمر حينا من الدهر يدرس فى الأسر ويطبق فى المجالس التعتبية فى لقاءات الكتائب وهو كتاب صاغ الأحاديث وما تدل عليه الآيات من المهر مواقفهم العظام بأسلوب يجعل القلب يحمر وكأنه يشاهده هذه الوقائع عينان تتحدثن المعاشية ويحدثن التأثر.



أسس الشيخ حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ كجمعية خيرية على غرار الجمعيات الخيرية ذات التوجه الصوفى المعروفة وقتها، ولكن ما

والتربوى فى جماعة الإخوان، وهو ما أدركه الشيخ حسن البنا فكان يبدي اسمه بعد أن انتهى مشروعه السياسى بالصدام مع السلطة وحل الجماعة وكان يردد فى قلبه قائلا ووفق ما رواه عنه الشيخ محمد العزالى: لو استقبلت من أمرى ما استقبلت لعدت إلى أيام المناوذة. وفى أثناء سنة إلى العيد الصوفى الروحى الذى كان حاضرا فى بدايات الجماعة، لكن على كل حال لم يترك القدر لبنا فرصة لتسبيل من أمره ما فات وليريد الجماعة إلى مهمتها الأساسى التربية والدعوة، فقد اغتيل بعد أسابيع قليلة من قرار حل جماعته ١٢ فبراير ١٩٤٩، وتحققت أزمة السياسة بعدما فقدت السقاية ربانها، ثم استمحلها من دخلت الجماعة فى صراع وجود مع ضباط ثورة يوليو راح ضحيته عشرات الآلاف من السجون والمعتلات والمنافى لتضلع الأزمة بذور العنف، ويخرج جزء من تيار المدرسة الإخوانية الوضعية ويؤسس لتيار العنف والتكفير الذى وضعت بذره فى السجون والمعتلات لتثمر بعد



# دراما الأطراف العربية!!

تستولي عليها إيران الشيخ (حزعل) كان حكمه يتسم بالديكتاتورية، وهي صمة احتفظت للمنطقة بشخصيتها العربية، ولكنها قطعت الصلة الطبيعية بين الحاكم والمحكوم فاستعمل (رضا خان) رضا شاه الموقف واجتاح الإقليم عام ١٩٢٥ قاتلاً، «إن مدعي الوحيد في تحمل المشاق والمناصب واجتياز هذه المسافات البعيدة هو الاستجابة لطلب موافقيا ورعاياا الذين استنجوا لتحليصهم من الظلم والإرهاب والتعديت».

فيض على الشيخ حزعل وأرسل إلى طهران ومات عام ١٩٣٦، وكتب (جاز جاك بيروني) في كتابه، الخليج العربي، يقول: «مات الشيخ حزعل في طهران محاطاً بكل مطاهر الشرق، محروماً في الوقت نفسه من حقوقه كأمير مستقل، أما أراضيه فقد ضمت إلى الإمبراطورية الفارسية، واضطرت الشركة الإنجليزية الفارسية إلى التعامل بعد ذلك مع حكومة طهران».

الإمبراطورية الفارسية تعنى النزعة القومية المتطرفة من الشاه والتي ظلت تتعاقب حيل الشاهات، إمبراطورية تعادى بشكل صريح الاتجاه القومي العربي المجاور أو في رأياها المناس بادرت إلى تحويل ما وقع في يدها من العربية إلى الفارسية، (الحصرة) صارت خرمن، وعربستان صارت خورستان، وأرسل علماء الدين وسادات عريستان إلى علماء التجف في العراق عام ١٩٢٥ يقولون: «إن علماء وسادات عريستان يشكون أحوالهم من ضعف أمراء الدولة الإيرانية التي كاد يقضي على العرب، فاضطربهم إلى الهجرة عن الأمطن مستتين، وقد فتكت منهم كل حرمة، وأخذت الأموال منهم بلا حق، فلا مانع يمنعهم ولا قانون يدهقهم، والباقون يستعشون طالبيين المساعدة الإسلامية».

وهي عام ١٩٢٧ استلمت الأحلام الفارسية إلى البحرين فكتب رضا خان وصيته لابنه يقول: «لقد حررت الشاطئ الشرقي للخليج من العرب، وعليك أن تحرر الشاطئ العربي».

اتجاهات رضا خان كانت تتمتع ومصالح الإنجليز، وحينما انقلب عليهم انقلبوا عليه، واستخدمت إيران المنطق الإنجليزي لتبرير التوسع «منطق تحميل الآخرين المسؤولية»، قال سمير إيران في القاهرة للأمين المساعد للجامعة العربية عام ١٩٧١ بعد دخول إيران جزيرة أبي موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى: (عندما قرر الإنجليز الانسحاب من

■ عاد الحديث مجدداً عن أطراف العالم العربي المتأكلة، عاد الحديث عن جزر أبو موسى، وطنب الكبرى، وطنب الصغرى، هي مشرق العالم العربي، وعن سبته ومليلة في غرب العالم العربي، وما زال الحديث متوارياً عن شمال العالم العربي في الإسكندرية.

هنا نذكر فقط بأطراف العالم العربي وما نعلمه من حالة دراسية في الوجودان الشعبي.

إذا سألت شاباً عراقياً مسلماً عن الصراع العراقي، الإيراني الذي دار في ثمانينيات القرن الماضي، مع من تلقف. مع إيران المسلمة أو مع العراق العربي؟ فسيجيبنا إلى القول: طبعاً مع العراق العربي.. ولكن إذا افترضنا أن العراق هو المتمدن كما حدث في الكويت وأعدوا السؤال على الشاب، مع من تقصد؟ فأعتقد أنه سيجار، وحيث أنه تشبه الموقف الدرامي الذي وصفه، هاملت، بين مشاعر الأمومة ورباطة الدم وبين إحساسه بمنطقة الارتباط لمشاعر عقيدة الحق. هذه الحيرة الدرامية، حيرة تاريخية أولاً، وحيرة نظام حكم ثانياً. تاريخية نتيجة للانتماء من مرحلة التكمير بمنطق الدولة الإسلامية إلى منطق القومية، وسياسية نتيجة للوقوع في سرائل الانتساب لنوع الحكم الحاكم والانتماء إليه بصورة شبه قبلية لأسباب عديدة. هنا يعني العودة إلى السؤال المطروح دائماً، والذي لم يجد إجابة شافية إلى الآن عند النشوق، فما بالك بالشباب، هل هناك تعارض بين الإسلام والقومية؟

والسؤال الثاني: ما هو البديل لعدم الانتماء لمنطق الدولة الرسمي.. ومن يختار هذا البديل؟

حينما أخذ الشرق بمنطق القومية تحولت فارس إلى إيران «شعبية»، وجاورت العراق العربي، وتحولت الدولة العثمانية أو اتكملت إلى تركيا «شعبية»، وجاورت سوريا العربية، وتحولت بقية البلاد العربية إلى المنطق القومي.

وفي أقصى الغرب العربي جاورت حدود القومية العربية دولة إسبانيا المسيحية، وكاثوليكية، القائمة أيضاً على الإطار القومي.. فماذا حدث؟

## عربستان

تتأمل هذه الأطراف الثلاثة من العالم العربي على سبيل المثال ونرى النتيجة عريستان كان يحكمها قبل أن



ج  
المر  
٢٥٠٤

## الانفراد بالسلطة وعدم شرعية الحاكم أدوا إلى قيادة الفكرة العنصرية بطريقة توسعية.

يسعى صاحب السلطة إلى نسبتها لعنصر وليس - على أضعف الإيمان -

استغلالها لتنمية تعسود لشعبه



جوار الحقن الاستثماري الرغبة في جند الانتباه لحد إبسانيا خارجها إلى قوة المعسكر بعدما اتفقهم من خزانة عديدة. نمت في داخلهم الفاشية أو القومية المتطرفة المتعدية. وتصوروا أن صمودهم مستحق بسببوة في منطقة مفككة محاورة لاحتاج إلى مغامرة بحرية وأ بريرة أو منافسة من دولة استعمارية كبيرة.

تقدم الإسبان من قواصدهم في محلية، في الشرق وسمنة، بالقرب من مضيق جبل طارق، والعرالرش، جنوب طنجة. وبدأت المقاومة الغربية القبلية تقوى بمقبعيتها المتطرف الدعوى الحظية. ألقى الإسبان القبض على المناضلين العرسي عبد الكريم الخطابي، ولكنه هرب وبدأ ينظم المقاومة بصورة أوسع. حوضر أوسعد وحاول الجنرال سلفستز، الإسباني أن يخلص قواته، ولكنه اضطر إلى الانسحاب فكانت موقفه، «أنا»، عام ١٩٢١. هزم الإسبان هزيمة ساحقة، كانت أول هزيمة لجيش أوروسي في القرن العشرين.

استمرت المظاهرات تتوالى على القوات الإسبانية إلى عام ١٩٢٤. وبملت الصلابة في الستة أشهر الأخيرة من هذا العام ٢٠٠٠ جاضية زادت دراسة الأهم الإسبانية في مدريد. فصيرت الطائرات القوية الغربية وعينت الأهلالي، وقال المارياتال (ليوني) أن العالم الإسلامي ما جمعه يعرف بالعدالة في منطقة الإسبانية الإسبانية بكل اهتمام. وأن الثورة الملونة هناك تهدد نفوذ كل الدول الأوروبية ذات المصالح الاستعمارية في البلاد الإسلامية. تهدد فرنسا في شمال إفريقيا بأكملها وتهدد كذلك بريطانيا في البلاد الإسلامية.

تعاون الإسبان والفرنسيون ووجهوا صيرت مصاصفة لقوات عبد الكريم الخطابي فاضطر في يوم ٢٥ مايو ١٩٢٦ إلى التسليم. وراقتته القوة الفرنسية بإجلال قائد كريم يصلم سيمه ثم لنوه إلى جزيرة ريونيون.

ظل المغرب في صراع بين قوتين: الإسبان في الشمال والفرنسيين في الجنوب. ودفعه صلف ودعوات التجارة الإسبانية بنزعها القومية المتطرفة انتقاماً من الوجود العرسي بإسبانيا، وبساحة الاستعمار الفرنسي من الاستقلال المباشر لثروته دون ولو مريض. دفع هذان العاملان المغرب إلى تبيين هويته القومية العربية فكان خطاب الملك محمد الخامس في طنجة في عام ١٩٢٧ الذي أعلن فيه أن بلاده

جاءت اللجنة وأعدت طبخة انتخابات المجلس التشريعي بإشراف قوات تركية وفرنسية. جرت مصافرات واضطرابات واحتجاجات في حلب ودمشق والألافة. في ٤ يوليو ١٩٢٨ صدر البيان المشترك بين فرنسا وتركيا يؤكد النتيجة المتوقعة. جاء فيه (أن تركيا تعترف كما جاء في معاهدة أنقرة العقودة في أول أكتوبر ١٩٢١ بأن سنجد الإسكندرية مستقل وليس ملحقاً بها ويسعى الطرفان إلى تطبيق نظام سنجد إسكندرية والقانون الأساسي الصادر بتاريخ ١٩ مايو ١٩٢٧ من قبل عصبة الأمم ويقومان بتفقد مواده. وفي أثناء هذه التفتيات يضمن تفوق العنصر التركي في السنجد). وصعدوا العنصر التركي التفوق العددي، فحصل في الانتخابات على ٢٢ مقعداً من ٤٠. وتكونت سلطة تنفيذية من وزراء أتراك وطرد المظوم العرسي وجرم استخدام العرسيه أعلن المجلس المحطوط قبل النهائية. تحول اللواء إلى جمهورية (هاتاي) أي بالاسم التركي للمنطقة. وجاءت معاهدة النهاية وهي لتسار فرنسا الهلاني عن المنطقة لترتبط للتحارب يهدد فجبل العرب العالمية الثانية فيها حلف مينها هاد الطبعي. وفقت البلاد اتفاقية النارية.

هصة الإسكندرية تسمى تاسيد اهتمام الجار السليم بالتحلق القوي التوسعي أكثر من المنطق الإسلامي أو الشرعي.

### ملكية وسبعية

وتتأمل المثال الثالث من أطراف العالم العربي. المغرب العربي وصراعه مع الجار الإسباني الكاثوليكي. قبلت فرنسا في مطلع القرن العشرين اشترك إسبانيا في السيطرة على المغرب العربي، قبلت وصول إسبانيا إلى الشمال الأفريقي أو منطقة (الريف) في مقابل تواجدها في الجنوب. فبوهل إسبانيا ليس لسواد عيونها. ولكن تعصبا لموقفها في موقف فرنسا أمام ألمانيا. وكذلك لاتأثيرها الأودي مع إنجلترا في مصر ومع إيطاليا في ليبيا.

وجبت فرنسا طريفيها في الجنوب العربي معصومة الطبيعة المتسوقة والراسمية الوطنية. أما في الشمال (الريف) فقد احتلت العصية لقبلية في مواجهة الثورة الإسباني. الفرق الإسباني كان عصبي أيضاً تحمل في داخله إلى

العرسي على سوريا بعد الحرب الأولى ذكرت إسبانيته إلى أغلبية السكان (٦٣ بالمائة) يتحدثون العربية في اللواء وأن الكثيرين يتحدثون الفرنسيين. ونتيجة للتحارب الفرنسي التركي، وهدف فثقت سوريا على الفرنسيين بطريقة الإنجليز في فلسطين إلى نهضة الوسائل لحلع اللواء عن سوريا. عقدت معاهدة عام ١٩٢١ باسم وزير الخارجية الفرنسي (فرانكلين بويو) ونصت على منح لواء الإسكندرية نظاماً إدارياً خاصاً، والمقصود هو عدم إخضاعه لحكومة مركزية قد تنشأ في دمشق. وتعهدت فرنسا بحماية الأتراك في المحافظة على كيانهم الثقافي والاعتراف باللغة التركية كلغة رسمية.

وكما حدث أيضاً في المصصبة الفلسطينية عندما اندر اسساحات الإنجليز بقر الانضجار. حدث عام ١٩٣٦ أن عقدت معاهدة انتهت الانتداب العرسي ومهدت لوحدة سوريا واندرت بقر الانضجار. خشيت تركيا أن تشمل هذه الوحدة الإسكندرية فخرجت تصريحات تنين بالتحرق القومي. قال وزير خارجيتها تركيا هي عصبة الأمم عام ١٩٣٦ (أن خارجي الحدال يسامع أن الإسكندرية وموقعه الحضاري المعروف هو مسألة شرف وكرامة أم لا الأكرها العامة التركية لا تتحمل أن ترى إخوانها الفاطنين بالهواء تحت الحكم العربي) ثم يأخذ حماسه أكثر صراحة فيقول «الترك هي لواء الإسكندرية يستندون على دولة قوية في الشرق الأوسط، هي الدولة الحرة التي سماها أتاتورك». ثم يؤكد رئيس الجمهورية (عصمت إينو) نفس الملقى في خطاب ألقى. اتفتت تركيا مع فرنسا على ألا تثار القضية من الناحية القانونية. والاكتماء مطرحها سياسياً، طرحها سياسياً يحميها لتقليلها لعصبة الأمم وهناك يمكن التلاعب بعيداً عن سوريا التي لم تكن عضواً في العصبة. في عام ١٩٣٧ قدم المشروع الذي يحدد الأهداف التركية. وإنشاء وحدة إدارية تتمتع باستقلال داخلي تام وتشترك هذه الوحدة مع سوريا في الشؤون الخارجية والعمله فحسب، وتكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية، ويتولى مجلس العصبة اختيار المفوض العرسي في اللواء. وتكليف لجنة لدراسة الوضع.

الخليج. كانوا يعملون معنا وصندا، ولعمول على حبال متعددة. لقد حملوا لنا مشكلات مع البحري وتنازلا وقتيلنا الاستقاء. ثم استقلت قطر واعتزتها بها. والحقبة أننا لم نحمل الخليج، بل مع الدين احتلوا. أما عصبة الحزب فبعمولها جازر إيرانية وبعمولها أنها لنا. لقد كانوا يتحدثون عليها ويحتالون عليهم. ولو قالوا منذ الأيام الأولى إنها جزر إيرانية، لكان لنا حديث آخر. ولو قالوا أنها عربية لتغير الموقف. قديما صوروا الصراع بأنه صراع مذهبي بين السنة والشيعة، فكانت هناك تحرية معاهدة (ارصوم) الثمانية التي عقدت عام ١٩٢٧ بين الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على العراق وبين الدولة العارسية اعطت المعاهدة منطقة السليمانية للدولة العثمانية، وعرضتاً للعربي على أسس سيادة الذهب الصني في الأولى والشيعة في الثانية، مع التنازل عن مظاهر الظلم الواقع في المتطفقين، الطلم الفارسي في عربستان والترك في السليمانية، طلم أوجد تراصدا قويا بين المتطفقين العربيتين. رابطا قومي يسمى للتحزب في مقابل ترابط قومي يسمى إلى التوسع. وفهشت المعاهدة في حل المشكلة واتضح الموقف موضوع في الربيع الأول من القرن العشرين. وقصصة عربستان تؤكد أن الاهتمام بالمنطق القومي التوسعي كان أهم من المنطق الإسلامي أو الشرعي لدى الحار المسلم (إيران).

### الإسكندرية

وتتأمل المثال الثاني من أطراف العالم العربي.. الإسكندرية في شمال سوريا مع الحرب العالمية الأولى خلعت عنانهم وطراريسش الإمبراطورية العثمانية، وأغلق الباب العالي، وشرح السناجق. وأعلن أتاتورك، قيام تركيا الحديثة صاحبة اللغة التركية، والحرف اللاتيني، وعلمانية الاتحاد، وغربية الحضارة تركيا الديكتاتورية التي تخلت قسراً عن ملكاتها واستقامت على انتالاق الواقع بالمنطق القومي، قومية ليس بقدرتها مد الأرب بالطريقة العثمانية فاكتمت بمقاتلة اليونان في أوروبا والبحث عن النقايا على الحدود العربية لاتتلاعه وجدت فرنساها إلى لواء، كالتعلم أن غالية سكانه من العرب. عند قيام الانتداب

## كتاب الزاوية



### الفرح.. عندما يخون!

محمود درويش

علموك أن تحذر الفرح، لأن خيانتها قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تفرك الأيام بذكريات لا تشبهك، كنت خارجاً. للثو، من الخامس عشر من مايو (ذكرى النكبة)، وكنت عاجزاً عن الالتصاق بالأشياء التي ابتعدت عن مسام جلدك. وقد مات جدك الذي أوصاك بمراقبة الرابية المظلة على مصادر موته. أخوك يحب الخطابة، فوقف على الأطلال ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. لم تبلغ الثلاثين، ولكن معاذة الموت تعطليك الحكمة. ومن الحكمة ألا تبدو عاطفياً في حضرة الآخرين.

تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تتسل من الجنازة الثانية وتمد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة. قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشد العلاقة بين الموت والحركة. وكنت خارجاً، للثو، من ذكرى الخامس عشر من مايو. كنت مسرعاً إلى البيت لا لتسقي الشمس الغاربة، وإنما لتهرب من الأضواء المتجبرة في الشوارع في عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون.. خيالهم أيها العرب.

الحار لأسباب قومية متطرفة. من هنا بدأ المؤلف الدرامي.

لم يحطم الشعب لحاكمه شرعية تعطيه الحق في التوسع. وإذا توسع فإنه توسع لا يعود عليه بنفع، ومع ذلك يجد نفسه مسوفاً إلى قتال جاره في العقيدة إما قسراً أو دون تساؤل، أو خداعه بنصرة قومية متطرفة من وسائل إعلام الحاكم، أو بتبعية قبلية تحت أسماء عديدة.

لو توفرت شرعية الحكم عند الطرفين المتجاورين لأحسن قيادة الفكر القومي دون تطرف ولظهر حسن الجوار الشعبي الوثيق وليس الرسمي مع من ترتبط معه بمقيدة. وحسن الجوار المقان مع من تختلف معه في العقيدة. وما حدث في إيران من التخلص من نظام قديم متعفن على نظام جديد لورى لم يغير من وضع الأنفراد بالسلطة شي، وبالتالي غابت الشرعية الشعبية المقتنة وليست العصية أو الفوقية الخادعة وما يتبعهما من مأس على الشعوب وعلى الشعوب فقط.

وهذه الصورة ممكن أن تتكرر على جبهة تبدو هائلة الآن بصورة مؤقتة بين سوريا وتركيا حول الإسكندرونة. ولماذا يتعد. إنه درس يجب أن نتأمل إبعاده بطريقة ميكروسكوبية بين الحدود العربية نفسها. لم تسلم من أفة الجيران، ولكن للأسف فيما بينها، فكتيرا ما يشتمل القتال على الحدود ويدخل الحندي العربي مقاتلاً لأخيه العربي، إما بالصدفة التجنيدية أو بالفسر أو بالخداع أو التبعية. ويقع الشاب المدني في الحيرة الدرامية حينما يواجه المسؤول التالي. هل هناك تعارض بين عربيتي وميشتيتي أو مغربييتي أو جزائريتي أو سورييتي أو مصريتي... إلخ؟

حيرة درامية أشد هولاً من حيرة هاملت، إنها حيرة «أوديب» الذي أنجب أطفالاً من أمه ولا يدري ما يفعل بهم... أقتلهم حتى يصحو العار، أو يتركهم بماطمة الأبوة أو يسلم عينيه ويسبح في البلاد كما فعل أوديب. أقول لهمالعب. وأقول أكثر لأوديب: لا تعمل عينيك، افتحهما جيداً وتأمل هذا القول... ضريبة الحكم تزيل التعارض اليادي أمامك بين الإسلام والقومية.

غياب الشرعية أو انفرادية الحكم في الدول المجاورة حولها من إسلامية (في الواقع الشعبي) إلى ابتلاعية في (الواقع القبايلي). وهو داء يهددنا من الداخل أيضاً ويوجدنا ناكراً أطرافاً بأنفسنا في أحيان كثيرة وملئنا نستفيد. ■

عربية. ومن الطبيعي أن تنجح أنظارها إلى بقية إخوانها العرب.

قصة أطماع إسبانيا الكاثوليكية في أراضي الجارة المغربية العربية المسلمة تعيد تأكيدها في الطرف الثالث من العالم العربي... كيف كان الاهتمام بالمنطق القومي والتوسعي والانتقامي (مع فاروق) اختلاف العقيدة بين الجارين) أهم من المنطق الشرعي. تساوت الدولة الكاثوليكية (فرنسا) وإسبانيا) مع الدولة البروتستانتية (إنجلترا) مع الدولة الإسلامية (شعباً) في منطق التوسع، فهل كان الفكر القومي هو المسبب؟

السبب ببساطة ومباشرة. التطرف القومي وما يستتبعه من ديكتاتورية. من يتخذ القرار وما يستتبع ذلك من عدم شرعية الحاكم... تركيا دولة شعبية مسلم وفي فترة ابتلاعها اللواء كانت علمانية الاتجاه ديكتاتورية الحاكم. وإيران دولة شعبية مسلم ولكنها زمن الشاه كانت غربية الوجه ديكتاتورية الحاكم.

الأفراد بالسلطة وعدم شرعية الحاكم أديا إلى قيادة الفكرة القومية بطريقة ضمنية توسعية. يسمى صاحب السلطة إلى نفسها لعصره وليس. على أضعف الإلهام. استغلالها لتنمية لقود شعبية، وغياب الشرعية تلبس بالثمنية غياب الرقابة أو المحاسبة الشعبية بطريقة صحيحة دون شكلية أو تزوير. بالتالي بدت الدول الغربية الاستعمارية التي حصلت على التشريعات من شعوبها بدرجات متفاوتة. إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا. أي الدول التي شاركت في ابتلاع بعض أطراف العالم العربي قبل رحيل الاستعمار. بدت هذه الدول أكثر انسياقاً مع منطقها الاستعماري... لقد حصلت على الشرعية الشعبية للتوسع والغزو والحصول على ثروات الغير لصالح الشعب الغاري. ولكن الدول المجاورة للعالم العربي أي الدول التي شاركت شعوبها الشعوب العربية في مسيرتها التاريخية وهومها وتعتبر متوازية معه في درجة تطوره. بدت هذه الدول كأنظمة سياسية بعيداً عن الاتفاق مع نفسها، وذلك لغياب الشرعية. لم تستفد هذه الشعوب حول هذا التوسع ولو استفتت بحرية لتعير النتيجة. لو استفتت وزووت النتائج فإن العائد المادي لهذا التوسع لن يعود لمصلحة هذه الشعوب، ولكن لمصلحة الحاكم المطلق وجماعته. الشعب في عالم الحاكم في عالم الإبراسي والتركسي مسلمان يشتركان مع الجيران في العقيدة ولكنهم يختلفان

## سامي كمال الدين



تقلبه كيماها شامت، لكنه ما يتعلم منها تحارب لا حصر لها.

عاش السعدني تجربة مريرة في بلاط صاحبة الجلالة ولأقلى الويل والهوان وقهرض لأشياء لم تكن في حسبانته على الإطلاق. وقد قدم أكثر من مرة لالتحاقه ببلاطها. فممن عام ١٩٤٦ قرر الخروج خلف صديقه الرسام طوغان الذي كان قد سبقه إلى العمل في الصحافة.. وكان السعدني يعتقد أن الصحافة سلطة حقيقية وإن لها صولجان.. وأنها حفلات وحللات ونجم صفني شهر يكتب وهو جالس على كرسي أنيق في الشانزليزيه، ونساء رافعات الجمال كما هيما وهو يصرير خلفه طالبات لرصاء، وزمعا يستيقظون

■ من المقر المقع والحياء البائسة والارامت الطاحنة وتجاوز منحنى الخوف وعدم انتظار الجمول.. أيا كان هذا الجشع - تحرج كشتيات الساخر الكبير محمود السعدني الذي يقضى شبوخه سبله في بيته نضاجية الهرم، والذي أصر على استعارة أصابع البسطاء ليكتب بها وأمن أن الأديب الذي يضع نفسه في برج عاجي ويعزل نفسه عن سطحا الناس يتحول إلى كاتب نحوي. أما الأديب الحقيقي فهو الذي شرب عصير الحياة وجالس البسطاء وحمل همومهم ومشاكلهم والأوراق.. ومن هنا أقيمت المحامير العربية على كتبه لأنها تتحدث عنهم بصوت دون موازنة وبراعة دون حدود لها خاصة في كتابه، مذكرات الولد الشقي.. الطموحة والصحافة والسحن والنهش، «وشر كالاته»، «المكسوف في بلاد

السعدني في مكانها الحقيقي حين تعرف إلى مأمون الشناوي في مجلة «كلمة ونصر»، وكانت مجلة ساخرة، واستقبله مأمون بعدم ميلاد، ولم يرحب به، وقال له: «مازلت تكتب؟» ولما أجبت بالإيجاب أجبتني على تحكم، واستعمر لكشف؟ ولما أجهلت نعمتي، أضاف على مكتب أمامه وقال القعد كده وزينى. ورغم ارتباكى الشديد وخوفى من الفشل في أول امتحان حقيقي أوأجهه. فقد كتبت عدة أوراق بسرعة.. وعندما اتقى عليها نظرة قال وهو يتخصصنى، انت اسمك إيه؟ وهتمت على الفور، محمود السعدني، فسألتني وهو يشعل لنفسه سيجارة السعدني ولا السماوى؟ قلت: السعدني، قال آه، انت عارف السعدني؟ يعني إيه؟ ولما أجبت به بنفسى، قال السعدني أنت قره.. ولا والسعدني يعنى القرداني هاهاها! وهمت ماجرى من أمام مأمون الشناوي، وفكرت أيضا في أن

مصر من البلاد العربية لينشر ليهم صورا على طول الصفحة، «وبئيدة» عن تاريخ بلادهم وقصصا عن كفاحهم.. وكان يستزق من هذا العمل بما يكفيه. وكان هؤلاء الصيغوف من النفاضة وقلة القيمة لدرجة أنهم كانوا يشهرون حقا بالباعدة لأن صنف مصر في التفتت إليهم.. واستأجرتنا مجلة السحاب من كامل برقيق، وأصدرنا منها عدة أعداد رافعين عليها شعار: «مجلة الشباب والطلمة والجيل الجديد، وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كامل برقيق.. ولقد كان كامل برقيق نموذجاً لثلاث وألف من الناس كان يزرع بهم العصر. كان شديد الحول وشديد الدكاء.. وكان كثير المشاكل كما عائلته الكبيرة في بيته بالقلعة! ورغم أنه كان يكسب كل يوم خمسة جنيهات، إلا أنه كان يتنقل كل يوم أربعة جنيهات على المزاج. فقد كان مدمن

# العدو

العدو جودوه وأنصرف، ولكنني لم استطع التصرف وظللت وقتاً مشكولاً لا أتكلم ولا أتحرك حتى هفتا مأمون الشناوي، طيب أبقى فوت علينا تاني.. في العدد التالي من «كلمة ونصر»، وجد السعدني ما كتبه منشوراً.. وكان يوماً من أسعد أيام حياته، وتصادق مع مأمون الشناوي وتعلم منه الكثير، وأصبح محرراً براتب شهري ستة جنيهات، وبعد أن أغلقت أبوابها عمل في مجلة، وسامرات الجيب، والتي تعرف في خلالها على محمد عوده، كان عالمًا بحق، ومتشققاً على نحو رافع، وطيباً يمسح - رغم بؤسه وصياحه - على جراح الآخرين. فكان قد حفر وظفنيته الدائمة والمرتب المستقر إلى الصحافة، ولكنه فوجئ بعد شهرين بأن المينة التي اختارها هي مهينة صناعية وصفاية وعدم استقرار.. ولكن نصمة الغفلة وهي نفس أمارة الأسود، كانت تلح عليه أن يبقى حيث هو. وأن يعرض في طريقه وسط الأضواء والصخور. ومن هذا الرجل تعلمت الكثير في حياتي. وأغلقت الكتب التي قرأته تلك الأيام سراجاً من سراجها.. وكان هو أول من زرع الثقة في نفسي، وأول من جعلني أكتب بأسناني بمهينة الصحافة التي أتقنت بعد وعودة

حشيش. وكان يدخل باستمرار ويتسلح بالفتون كل لحظة ويحتسى فتناجيل الفتوة بلا حساب أو يبيد كانه يرغب في أن يبيع عن الوعي إلى ما شاء الله.. وكان فهمه السياسي ينحصر في الخلاف بين علي ماهر والسمراي. وفي التعديل الوزاري القادم.. لا تيسير في ركاية كما نطق! ولكن لسبب تافه للغاية.. فقد كان كامل برقيق يحصل على إعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيهات كل شهر. وكان هذا المبلغ هو مورد الثابت ولذلك كان دائماً شديد الحرس عند كل تعديل وزاري على أن يعرف من هو مدير المطبوعات الجديد، فإذا كان رجلاً سبق والتعامل معه، بدا شديد السعادة والرضا. وإذا كان شخصاً لا يعرفه، عاش في هم شديد قلق بالغ. حتى يقهر الرجل استمرار صرف مطبوعتيه من الإعلانات الحكومية. وعندئذ يعود سيرته الأولى، إلى ذلك الصحافة يلف سجاير الحشيش ويتسلح قطع الفتون، ويحتسى فتناجيل الفتوة بلا حساب! وتكتشف هذه التجربة ذوعية من الصالحين كانوا يتواجدون في وجود معالقة أمثال الشايعي والصادوي ومصطفى وعلى أمين.. وقد وضع موهبة

في أسرته المخلية هلعاً ووقفاً من قلعه. وأن هناك وزارات تسقط بسبب مقالات «الصحن»، وعبدال يقوم وظلم يحدرك إلى أسفل سافلين، وقد يمسجن الصحفي لأنه غفيل، ويخرج ليكتب للناس حول ما قاساه في السجون والذي ولد هذه الصورة في ذهن السعدني مقالات محمد التامى وأحمد الصاوي محمد وفجر جبران.. ولكن التشرد كان من نصيب الولد الشقي بسبب المجلات المصنف التي ذهب ليعمل فيها مثل الخيمس والكوكب والشهاب المصنف، ووجد نؤساء يعيشون بين جدران هذه الصحف، ولم تكن الصحف مثل اليوم في مكان راق وعامرة بها أسانسير ورفوف ومكاتب ولاتوب، فمات يمول السعدني عن جريدة الصحن التي عمل بها، في مكان بيت كان يوماً ما اسطبلًا لخمير أحد المالكات البحرية، ومن هذا الاسطبل بدأنا أول عمل صحفي. كانت المجلة اسمها السحاب، وكان صاحبها كامل برقيق يرحمه الله عامل طباعة. استطاع في أيام سطوة البوليس السياسي استئجار رخصة صحيفة باسمه، ولم يكن للصحيفة موعد محدد للصدور، وكانت معروضة دائماً للإيجار كانها شقة ممرضة. وكان يستقبل زوار

الصلوس، وسداد تشيل ويلاذ تحط، والصلوكي في بلاد الأفريقي، وبرحلات ابن عطلوة، وسداد على الرصيف، الذي جاء بمثابة تحولات مع التمس وأصداف التكوين والعرب مصور المرأة والجسد في كتابات السعدني، ونهش الأمر غريب على أديب عربي، وعلى جيل ينتمي إليه محمود السعدني، جيل من الكتاب العرب الذين يرون في الكتابة عن تجاربهم مع المرأة في مذكراتهم عيباً كبيراً، فتجدهم يكتبون عن فقرهم وميهم وأمراسهم وأولادهم، ولكنهم يتوهمون عند الحديث عن المرأة وعواطفهم وتجاربهم معها وكأنهم يصنعونها واقعية وطبيعية أفضل منها ورقة!! حتى أن شاعراً كبيراً مثل نزار قباني وصفه البعض بأنه شاعر المرأة، حين قرر كتابة مذكراته.. قصتي مع الشمر.. لم يزد على «خمس مربوب على جهازي العملي».. واحدة أهنته تشكراً ليضعه في سيارته، وأخرى مسحت له عرق حبيسه وهو يفقد سيارته!! لمذجات كتابات محمود السعدني مبهرة وعريضة وكاشفة دون خجل نتكتم عن مديح عبقير ذوق الحياة

الطريق! ولقد قدر لهذا الرجل أن يشق طريقه بعد ذلك بنجاح، وأن يتغلب على كل العقبات والصعاب، وأن يلمع ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتائبا الكبار. وكان الدور الذي لعبه في حياته هاما وجوهريا وخطيرا، وكانت علاقته به بداية مرحلة جديدة. وما أكثر المراحل التي خضت فيها خلال رحلتي القصيرة العريضة في الحياة... وكان محمد عودة هو أول من دفع السعدني للانجاء إلى الكتابة الساخرة، حيث قال إن أسلوبك ساخر ولو استخدمته بمهارة سيكون لك شأن.

وفي هذه المرحلة لا بد أن ينتهيه السعدني لوجود النساء في الحياة بطبيعة السن وناموس الحياة، وكما ذكرنا أن السعدني امتلك جراحة فريدة في الكتابة عن النساء اللواتي مررن في حياته، وهي «فريدة» لأنها ليست عادة للكتاب العرب، وكانت أول فتاة عرفها

## بقلم السعدني

تعمل خادمة كما ذكر في الجزء الأول من متذكراته وتقول له «يوسني يا حوده، لكن التجريبية الأولى بالسعدني الحرفي والانهرافي فكرها السعدني في الجزء الثاني من مذكراته حيث وجد واصداؤها امرأة في كازينو التفت قصصه معها فضيحة حيث يروى.

.... وبعد قليل خرجنا مع الست، خارج الكازينو في طريقنا إلى المنزل. ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزل لدى أحد من الشلة التي نتعقبنا. ورحنا نذكر أنا وغزالي في مكان نقصد إليه. ولم نعد في النهاية إلا إلى بيت طالع اهرى اسمه الصيرفي كان يسكن وحده في الجيزة في شقة في بيت له مظهر البيوت الأنيقة، رغم أنه في الداخل لم يكن يحتوي إلا على سرير شديد القذارة ومشتة عيش كانت دائما فارغة، وثلاثة كراسي كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الفتوات العتاة

وكان الصيرفي نفسه شديد الغرابة. مظهره يدعو إلى الإضحاك، كان قصيرا ومشوها ويتكلم بالفصحى ويصوت عال كأنه يخاطب على الدوام. وكان سعدنيا متحمسا وهي ظاهرة شادة

تأملتها كثيرا، ولكن لم أستطع تفسيرها على

العدد المائة وأشا عشر - مايو ٢٠٠٨ م



ويتداخل بعضها فى بعض. حتى إنى كنت أسمع الجيران يتكلمون فى البيت الرابع، وعندما أصبحنا داخل الشقة انشغل علوى بإعداد طعام الفداء، وبعد أن اتقينا من الطعام نهض ليعد لنا الشاي، ثم فتح الباب وراح ينادى بصوت مزعج، وسرعان ما لبى نداءه صوت نساءى فيه بحة ولسعة نفدت إلى عظامى، ولم تلبث صاحبة الصوت أن افتحت علينا الشقة فى جرة، وقد ارتدت قميص نوم رخيصا وأرسلت شعرها الأسود الناعم خلف عنقا وعلى كتفها وكانت جميلة رغم فقرها وجسمها يكاد يبرر من القميص الرخيص الذى ترتديه، وصدرها بارز بشكل مشير، حتى لجلى إلى أنه يبرز نواحل صناعية، وعندما مساحلتها فى أذن بصوت بصرى خفيا، وكنت علوى مد يده وبغت فى صدرها أمامى وقال وهو يصيح:

«بيستك مش سعاد تشفع فى السينما، ولما أعتك على كلامه، سألتنى فى لهفة، «صحيح والنسى».. ثم جلست تحكى لعلوى ما حدث لها بالأمر وكان علوى قد أرسلها بتوصية خاصة إلى مخبر صديقه لقتل «المومس» فى فيلم من الأفلام، واشتعلت طول الليل مقابل جنيه، واستدبره مرة أخرى مساء الأحد، واستعمل معهم كداسيس واستلهم عشرة جنهات كاملة، وقالت لعلوى بعد أن انتهت من قصتها على تصرفه بيدها على رأسه، اكتب بلى ينى وأشار علوى بخوى قال، ده اللي هيكتبك عنك صحيح هو صغير كده لكن ده رئيسى فى التمثل.

ونظرت لعلوى بخوى فخره خاصة أكرتكتي، وقالت وفى تقصص: رئيسك.. مش معقول، أنت عاوز تهرب منى.. وقال علوى وهو يقسم لكل القديسات رضى ما تقولك كده، أحكى له على قصة حياتك وهيتكبتها، وهيطعن صورتكى فى الجلة.

ونهض علوى وأرتدى ملابسه، ثم استأذن من الاستراف ولحق بى وداع، واكتشمت أننى أصبحت وحيدا مع البيت الستوى فى شقة علوى، وأمسحت بأبنى أرتعتش لى، وأضربت على لحمة فلم أعرف كيف تضررت منها، وفجأة، نهضت، ومدت يدي لأصاها وأستاذن، ولكن وجدت الجيرة شفت وتقصعت، وضربت صدرها بيدها وقالت، إيه يا لدعى، فررت مننا وإلا أيا عامل بلى ذاتك لى دور عليك، يلاقى الاست أمك كذا غسالة، كانت البيت مجرية وشحامة وتتمتع بشخصية قوية أجبرتنى فى النهاية على

المراة ولكنها لم تقبل. وطال غيابها جلسنا على قهوة الحريرى القريبة وطنينا بفطرا وشرينا الشاي واشترينا علبه سجاىر كاملة، وجلسنا ندخن فى هيو... كأننا نستقبل يوما جديدا من أيام كذا فى زفة. وفى الظهر خرجت المراة الصايعة الترام ريك، ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقه العزيزة وهى تبدأ رحلة ميمومة إلى باريس.

أغرب شيء أن الممت الصايعة لم تنقطع عن الجلوس فى كازينو شيراز، ولكنها كانت كلما رأتنى أنا وغزالى أصادت منا بوجهها. رغم أن الرجل الرئيسى أستاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعى وقضى معها ليلة بأكملها فى الكازينو يعتبر لها ثم افتحت الممت من حياتنا ومى الكازينو بعد ذلك، ثم علما أنها تزوجت: ومن... من أستاذ الجامعة الرئيسى نصدمة، ولدينا عجيبه وواقع... ولكن أهرب من الخيال!

لذلك كان عرض الرجل الطيب بالترام موضع دهشةى، فهو أعلم الناس بطروفي كما أنه يعلم تماما أنه ليس فى حياتى امرأة! وعندما سألته عن سبب هذا العرض قال لى الفور، أنت متحاج إلى امرأة إلى جوارك، موهبتك ينقصها التنظيم، هو أنك حصلت على كميائت من الموم وكمايتك من الملام لاستطعت أن تتج شينا أعظم، أنك مدام خادم طيبة وفى حاجة إلى ميميك!



وقصة أخرى للسعدنى حين ذهب مع زميل لى الحى السعدنى يكتب له القالات ونوطع باسم زميله هذه، ورغم أنه لم يكن يجب على السعدنى أن يفعل مثل هذه القطة لكن قسوة الزمن وأن من قسوة الزمن، شى جعلتني ذات مرة أسأل صبيح محفوظ لماذا قصت على محبوب عبد الدايم كل هذه القصة فى رواية «الماهرة ١٠٠»، فقال لى، ليس لى من المزم والحيادة التى كان يعيها. وذهب السعدنى مع الأستاذ علوى زميله إلى حيث يمكن حيث يقول وكان يسكن فى حى طولون فى حارة صيفه تقع على حديرة خلف المسجد، وكان البيت قديما تفوح منه رائحة عسنة، وتتراحم البيوت فى الحارة وتتشابك

هومة سدقية مستمدة للإطلاق والسبب هو المرأة الصايعة رفعت يدها أن يحتلى بها الصيرفى وكان هناك صفرافا ضيقيا من جانب المراة، فهكذا الفقراء دائما يبرسون فى أى مناسبة أن يؤكدوا لأنفسهم أن هناك من هم أكثر منهم، وهكذا الحقراء أيضا يبرسون أن يثبتوا ولأنفسهم أن هناك من هم أكثر منهم. وكانت تلك الليلة هى فرصة الممت الصايعة، وأصرت على موقفها وظلت متمسكة بأريائها لا تترحز، ورغم التوسلات والشماعات فإنها رفضت بشدة وبدا عليها فى لحظة أنها مسالة مبدئية، وإذنى على استعداد لتواجه الموت فى سبيل البدا العظيم!

ولما ضاعت كل المحاولات عبثا، قررنا تجاهل الأمر تماما، اتفقتا على ضرب الصيرفى لو أترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أى نوع. وكانت المراة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما ألبت بيننا تنصع كأنها ممثلة سينما... وبدت تلك اللحظة بشدة مزلة، ووقفت أمامنا فمأة ومعت ينها تطلب التقوى، همس غزالى فى أذنى أن الصايعة سيتمت هى والطارق وبينهم أمام الحبيبى الغاصب الخنزف الوطون فى كبريائه ولكن الصمت أصرت نصد لى تترحز خكوة إلا بعد أن تحصل على التقوى.

وبد غزالى يده مابلغ الموجود، ولكنها شهقت ونفصعت وألقت بالمبلغ على الأرض ونفصت عشرة جنهات لى تنقص مليما وإلا هاولول والتبور وعظائم الأمورا!

وصحكت أنا وغزالى، فلم نكن فى هذه اللحظة قد رأينا عشرة جنهات كاملة، وكان اليوم أكثر شهروا وأنا فتنا الجيزة كلها فلم نكن نشتر على عشرة جنهات. ولقد كنا متمين للجارية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة... ولم نكن قادرين على التناقش كما أننا لم نكن مستعدين لمواجهة امرأة مدبرة وفى بيت رجل أكثر نفرا! ولذلك، وبدون التفاد فتحنا الباب خاصة بعد أن جمننا الشقاق المبغرة على الأرض وأطلقنا هارين إلى الشارع، وكنا لم نكد يبعد كثيرا حتى وقفنا فى عرض الطريق نستمتع فى الصراخ الذى ألتفت داخل المنزل، ولم يكن الذى سمعناه هو صراخ المراة، ولكن صراخ الصيرفى! هذه إنى هى نهاية الصيرفى فى هذا اليوم المشهود! ليلة معنية بالشمسية به وصبح أغبرا ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم بدا كل شيء، وتوقفنا أن نخرج

الإطلاق! هلقد كان هناك وزراء سعديون، ونواب سعديون، وشيوخ سعديون، ولكن أبدا لم يكن هناك شبان سعديون. كان الشباب موزعا لكل الأيام بين الودع وعصر الفتاة والشيوخين والأخوار. وكان الصيرفى هو الشاب السعدنى الوحيد الذى قابلته فى حياتى وكنت دالم المراك معه، شديد السخيرية به، هارئا من معتداته، متهمأ إياه بالشراسة إلا لا يعقل أن يكون الإنسان سعديا بصميره، خصوصا إذا كان شايبا، وألبد أن يكون لهذا الموقف العريب لمن مدوه!

واعتقد الآن أن موقف الصيرفى كان مدفوع لشكى وإنه كان أجرا رهيدا، لأنه كان دالم الشكى من الإفلاس، وكان يبدو دالعا شيد الإهراق والشحوب. ولقد استسلمنا للصيرفى مصرح شديدا، وعندما وقع بصره على المراة التى منعت عيناها بريق غريب، واستقبلته المراة مصورا وحجافا شديدا، فقد كان يرتدى جلبانا مخططا وحافى القدمين، وكنت أنا فائتة تبرز من فتحة جلبانه وكان فيها من الشحوب أكثر مما فيها من القمائن.

وانعشت المراة انه خادم فى المنزل وعاملته طول المسرة على هذا الأساس، ولم تلت شاة الإسداء أن التفتت علينا المنزل، وكعادة الفقراء اردت أن تضحى المراة امرأ ونا خدع أحمسا، وأن نصنع على الجو مسحة من المشاعرية والخيال، واكتننا جميعا لنحصل على زجاجة رخيصه من الكوكياك اللرى، ومن جهاز الراديو العتيق الذى تشفى فيه الحارة، رسما نستمتع إلى موسيقى الصراخ، وصدغ غزالى على هذا أكتاف أحنا وأب حول لبنة النور قطعة من الورق الأحمر، ورحنا نسير فرحين فى هذا الجو الهيرى، جو لكثرة الأنا الشعر بدنى من مول ما كنا فيه، جو تجتمع فيه امرأة صايعة كبيحة وعشرة شبان ورجل زرب ونا جاحمة خرم رخيصه ورايدو كان لا يوايل الفاء إلا بالخيطة فى قوية تهر أجبرته العينية التى تود أن ترقا من هذا الشقاء الخمين!

كان كامل بريقق نموذجاً لمنات وألوف من الناس كان يضر بهم العصر.  
كان شديد الجهل وشديد الذكاء.. وكان كثير المشاكل  
مع عائلته الكبيرة في بيته بالقاهرة..



السياسية المهمة فرصة للتعارف بين الجنسين، وذات خلفة كنت التوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس في ركن قريب، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة لنقصد سحرها بعد من الخامسة والعشرين، وكان رأياً فجاً من شباب صغير عديم التجربة والخبرة، ولكن المرأة العربية الحديثة المسأة مأخذ الجد فاقترعت منى وزجرتني بنظرة حادة ثم تجاهلتني بقية السهرة وقررت أنا أن أخفى من دار الحزب، ومن حفلات السيدة الشريفة ولكنها التقت بي مصادفة بعد شهر، وسألني عن سر شبابي وأعطتني رقم تليفوني وعندما اتصلت بها دهشتني إلى منزلها، وسألتها في سذاجة، هو فيه هذا النهاردة؟

وأجابني هي بالإيجاب ووعدها بتبليتي الدعوة، وحظقت شمري الذي كان يفضيلى ففأى كالتحافس، ولملت الحناء مرتين وحرصت على أن اقترض ربيعة عنق ملائمة، وتوجهت إلى الحملة وفي نيتي أن ألقى على صيد ليمين يعوضني جفاف الأيام التي مضت منى!

ولما اكتشفت أنه لا حملة هناك ولا حيرتوني حتى بعد أن دخلت المنزل، وجلست وحيداً في حجرة الصالون وانتظر قدوم الست المصيبة وعندها حضرت غشوة كارهة لهدمها، فالتفت لجمال كأنها تمثال في متحف، سألته عن سر تأخر الصيوق فقلت ببساطة، مفيش صيوق، غيروك الليلة...

وشعرت عندئذ أنى على أبواب معامرة لنيدة، وأنى أقبل على القيام بدور لم يسبق لى القيام به من قبل، وجلست أمامي تمسب خمرى في كأس وهي في ثوب شعاف يتكشف على مفاتيحها وراحت تتحدث حديثاً فرباضاً في السياسة والأدب والتعليم وسرعان ما طرقت الخاطر المسكين الذى راودنى وشعرت في الحديث بطلاقة ورحت أرى كأننى بالعم راديو في أشياء شتى، ولكنها فجأة صككت وجذبته في شمرى نحوها وانحنى وقيلبنى وقالت وهى تضحك.

- دمك خفيف يا مضروب،  
وانتهزت الفرصة كآى ساذج وجديتها نحوى أنا الآخر، ورحنا نتبادل القبيات والمناق، ولما كنت وقتلنى والعشرين وهى فى الأربعين فقد كنت أصدق منها فى التعبير عما يجيش في صدرى، وكانت هى أقدم منى على قيادة نفسها بحكمة وحكمة ومعلمة ليس لها نظير،  
وعندها هممت بها رفعتى فى

ورجال المملك السياسى والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن وكنت قد ترددت على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب، وتعرفت هناك على بنت اسمها تهنانى كان أبوها تاجراً كبيراً فى وكالة البيع، وكانت بتيمة ومزينة وشاذرة على الدوام، ولقد دعوتها ذات مرة على الغداء وجلست معها على شاطئ النهر، وخيل لى أنها متبرعة وأنها واقعة فى حب العبد لله.. فمصمتها إلى صدرى وطمعت على فمها قبلة، ولكن البنت التى ظننتها متبرعة والواقعة فى حبى، بكت فجأة وعينها حاولت أن أسكتها دون جدوى وعندها قمت معها لتوصيلها (إلى المنزل غادرت التاكسى دون أن نظنر لها وجهى، ولم أرها بعد ليد، أذكر، ولم تعد ترددت على حزب نفضة مصر بعد ذلك، وهذا الحزب تعرضت على بنت بيبيعة وبعدها مشوهة كانت طالبة فى إحدى الكليات، وقد ظلت طالبة لمدة عشرة أعوام وقد وقع فى حبها الشان من أصفالنى وكان أحدهما خيالياً إلى حد بعيد، وكان الآخر عكسه تماماً، ولذلك فاز الرجل الآخر بالبيت الشوهة، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم، ولعلها لا تزال تلوذر فيه حتى الآن، ولقد عرفت أكلت المشافة وأكبت شبان مصر وأكثر رجالها، وألقت بنفسها فى أحضان الرجل توفيقية، ولذلك سجد فى دفتر قلبها توقيعاتها وهى الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبان وبعض الصبيان أيضاً، ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكلى وجسمها فى حجم جسم ولد صايع يتمسك فى مهبان الجزيرة كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المحبين؟

ولقد ناضلت طويلاً داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة فى امرأة مناضلة من مناضلات الحزب، كانت فى الأربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو أصغر سناً، وكانت جميلة جداً وخفيفة الدم إلى درجة تجعل من يروها مرة لا يستطيع أن ينساها أبداً، وكانت متزوجة أكثر من مرة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة، وكانت قد هجرت زوجها الأخير منذ شهر واحد وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من المجازل الأثرياء، ولقد خرجت من كل صفة زواج بريح مادي كبير، فأصبحت هى الأخرى من كبار الأثرياء، وكان لها نموذج كبير فى موالد الحزب، وقد كانت تدمد بالمساعدات المالية... وكانت تقيم الولائم لعضواتها، وهى ولأم كانت تجمع بين الترف والكرم، وكانت هذه الحفلات

الجلوس فى ركن الحجرة كالتيم الياس اعتد لها بكنما لا معنى لها، ولم أكن فى الخفية أقصد إهانتها ولكنى كنت أنجو بنفسى من مواجهة موقف لم أواجهه من قبل.

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكى لى قصة حياتها وجلسنا أنا أمامها الأهتمام الزائد كمن سيكتب هذه القصة يوماً ما واكتشفت وهى تحكى أنها لا تحكى شيئاً من الواقع، ولكنها تفكر فى قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة وفى نفس المستوى الذى شاهدته البنت فى أفلام تلك الأيام، وقالت إنها أحيث شأياً طياراً يسكن فى حازنها مع أننى أستطيع أن أقسم بإفراط الأيمان أن أحداً من سكان حازنها لم ير الطيارة فى حياته وأن ركوها ما نسبته لآى واحد منهم حلم لا يتحقق إلا بلقاء الحب أو المشور على خاتم سليمان! المهم أن البنت وقعت فى غرام الولد الطيار والولد الطيار وقع فى غرام البنت وتهما كانا يقضيان أغلب الوقت فى حقيقة الأورمان، وأحياناً فى حقيقة الأندلس، وعندما بدأ الزواج ثم سلبها أزع ما تملكه ثم ما فرحة ما تصت خدشا العرب وطار، وطار الولد الطيار، ولم يعد، سقطت به الطيارة واحترلت، واحترق أهلها الكبير مع الحمام!

ومن لفظتها قسمت إلى تتزوج، والا تحب، فقد مات الذى كانت تحبه، وهى لذلك تقترح ميدان العمل، ولذلك أيضاً اختارت السينما لكى تتمسك يوماً من إنتاج قصة حياتها على المشاش! واقتربت فى نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان، حبيب من غير أمل...



قلت لها إنها قصة عظيمة، وأنها ستحقق نجاحاً لا حد له، وأرياًها مائدة ليس لى نظيراً، فقبضت لصفحات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلست انتظر علوى وحيداً، ولما ليست من حضوره اضيرت تاركاً له وقلة بأذنى سافاه فى صباح الفد، ولقد استولت على المشقة عندما التفتت يعلوى فى اليوم التالى ولكنه لم يما تلتنى فى شيء مما حدث بالأمر، ولكنه قدم لى موضوعاً لأعيد صياغته من جديد ثم استأذننى فى الانصراف لأنه على موعد هام فى حزب النهمه... وكان حزب النهمه حزباً نسانياً تديره امرأة قبيحة شمهلاء... وكانت تتخذ من شقة فى شارع دويريه مقراً للحزب، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الدوات



اقترب منا وفى لحظة ناصحة "جلايا  
يا فتى ابدى أنتى وهو متونع الجهورية..  
كانت الثورة فرصة للعديد لكى  
يشرح قلعه من جديد ليكشف كل شيء  
دار به السويس خلال معركة القناة.  
وعندما تعرضت لرجل هناك اسمه سيد  
السايس وهو شئ اسأل بدأ حياته  
سائسا فى جراح ثم انتهى صاحب جراح  
ودار سينما ومتحفها للبحر  
البريطانى.. وفى حرب التحرير عام  
١٩٥١ اشترك فى المعركة ووضع جميع  
سياراته فى خدمة الفدائيين، وكانت  
السيارات تدخل المدينة كل يوم تحمل  
شحنات الأسلحة المصرية، هكذا كان سيد  
السايس يزعم، غير أن الحقيقة كانت  
عكس ذلك، فقد كانت سيارات سيد  
السايس لا تحمل فى الواقع إلا شحنات  
الحشيش، وفوجئت فى العدد التالى  
لتنشر الموضوع ببحر صغير فى الصفحة  
الأولى، فصل محمود افندي السعدنى  
عن وطنيته من الجملة، هكذا تحولت  
بخر من سطرين إلى افندي مفصول  
من وطنيته وبالجملة وعلمت بعد ذلك  
أن سيد السايس حصص من السويس  
ودفع ألف جنيه مقابل نشر إعلان  
ويشرط فصلى من الجملة.  
وما كان أسهل الفصل فى تلك الأيام.  
وبينما كان يلعب على سطح الحياة  
والصفحة عدة أفراد من الكتاب كان  
يعانى الخنا من الخبيرين والخبيرين  
الصفراء الغلق والعداب والطرده إلى الشارع  
ويلا مكافأة على الإطلاق. حتى مرتبت  
جشلة الذى اشتققت لم يقهره  
وهكذا عدت الثورة لم يجر عليها سوى  
شهر واحد إلى الشارع عاتلا مطسا وكى  
بأمل جديد.. إن الأمور لم تكن طويلا  
حتى تمود إلى الوسم المظيع الذى  
ينبى أن تكون عليه ولم لا وأنا من جيل  
الثورة. هؤلاء الكتاب الكبار تعفنا تماما  
وتطروا إلى النظام الذى أصبحوا  
جزءا لا يتجزأ من النظام الصحى الكبير  
الذى كان كل مجده فى الحياة أنه يرافقه  
الجلالة الملك فى رحلته للبحر، والذى  
تلك الألبسة سبته على أنه كان يوما  
عشيقا لجلالة الملكة الأم والصحى  
الكبير الآخر الذى كان يحسن على مائة  
التي يضحك على يستقبل الملك على  
قفاه. والصحى الكبير الثالث الذى أراد  
السلك أن يرمح منه قذيفة إلى حوض  
الملك وهو فى كامل ملاسبه.. ثم خرج  
من حمام السباحة يشكر جلالة الملك (!)  
على هذه الثقة الكبرى التى خص بها  
صاحبه الجلالة السامعة نواها من  
الهيئات. هؤلاء السادة اصحوا جميعا

طويلة من امت المشتاة إلى ذكر يوروى  
عشيقها السيد إلى الحسان وأجبا  
والمنعة والذكور سر انشغال زوجها عنها  
ويكشف السعدنى فى أوراقه معاصرتة لما  
حدث يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد أن سمع  
البيان الأول الذى انقاه انور السادات  
بصوته صار كالجنون، وخلق فرقة حدائه  
وقبلها بشدة من السعادة بل أصبح  
منديوبا جملته فى القياحة العامة!  
وهكذا أصبحت منديوبا للجملة فى  
القيادة العامة، فقد استقبل أصحاب  
الجلات الرجعية الحركة الجديدة قليل  
من الترحيب وكثير من الحذر. وأرسلوا  
أقل الحزبين شائنا لتلقاهما مع حركة  
الضباط. ولما كان هذا الصوف.. قبل  
الحزبين شائنا. ينطبق على العيد لله،  
فقد أصبحت واحداً من طاقم مندوبى  
القيادة ولما كانت حالة النداء ليست فى  
حاجة إلى أخبار، ولما كنت أنا الآخر لا  
أعلم بهذا اللون من العمل الصحى  
حتى تلك الأطلال.. هذ اكتفيته بالجلوس  
على باب القيادة أنفجر على الزوار  
والمرتدين على مقر السلطة الجديدة  
ولم يكن جهلى ما يجرى فى داخل  
القيادة أقل من عدم احترام بهذا العمل  
الجديد.. فلقد كان محمد نجيب يينو  
على الصورة على أنه زعيم الثورة، بينما  
كان السادات تهمس بأسماء أخرى وتؤكد  
أن أصحاب هذه الأسماء هم الحقيقيون  
للثورة.. ولكن أنا شخصيا كنت قد وصلت  
إلى قرار فى هذا الشأن وهو أن أنور  
السادات هو زعيم الثورة، هو الذى ادع  
البيان وهو الذى رايت بعينى رأسى فى  
كاريون شهربان يلعب سنسيفيل جندو  
العهد البائد!

ويوم خروج الملك فاروق من مصر  
خلعت قناع الوفاق الذى ارتدبه أحيانا  
كصحنى وقفت أرقص شعرا بلدى فى  
ميدان عابدين وسط الجموع العاشدة  
بمصر كانت البداية تحيط بالقصر  
الملكى من كل ناحية. ولأول مرة أصر  
أننى لا أحمى الديانة. لقد كان مظهرها  
دائما بيت العرب فى قمص، حتى يوم  
قيام الثورة شعرت بنفص الحوف وأن  
أنحولى فى شارع قصر النيل لأن الرايو  
كان حذر من التجمهر فى الشوارع.  
وعندما سمينا هذا الإذارة فى غمرة  
الفرحة وقمنا أكثر من عشرين شأيا تحت  
عمارة الأومبونيلا نكلم بصوت أنا  
الفتنة، اقترعت بمرأة عربية متصافا وأمرنا  
الصابط بالانصراف.. وانصرفنا فى  
سكون حتى انصرفنا إلى المصطفة، ثم  
لما إلى التجمهر من جديد وفى نفس  
الكان. ولكن عسكري الدورية الطيب

الصكرة عندما استطعت أن أصمخ من  
دائركى أحداث تلك الليلة العربية. ولكن  
علوى لم يقطع صلته بحزبى العربية  
كان على علاقات وثيقة وستينية بكافة  
الأحزاب الثنائية فى مصر وكانت هذه  
الأحزاب على التجميع الخصب الذى  
يحصل منه علوى على المواد الخام  
لسهرات الضالیه الذى يقع فوق الريوة  
عند الهرم.. وكانت سيدات السياسة  
المصريات يشعلن حقا بالسعادة لأنهن  
سيفضين السهر مع بعض.



وفصص أخرى عن النساء فى حياة  
السعدنى حيث يوروى. وفى تلك الليلة  
الأخيرة أيضا حدث للعديد لله حادث  
غربى للغاية. فكان يسكن فى الحجرة  
المجاورة لبحرنا فى اللوكائنة رجل فى  
حوالى الستين من عمره، يرتدى جلبابا  
ويأطو أصفر وطربوشا ويضع تحت  
الطربوش مديابا محلاويا عريضا،  
ويصك بيده مظلة. وكانت معه زوجته  
وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها،  
شابة مليحة ممثلة غنية. جمالها  
متحش. نظراتها وحركاتها كأنها لبوة  
تحت لها عن أسد جامد وقوى وحطير..  
وكان صديقى علوى الذى كانت تجذبه  
رائحة عطره على بعد ألف قدم  
لضم معها فى كلام ليس له مدلول!  
وجلسنا أنا ليلتها مستمعاً. وكنت لم  
أزل مصبى فى الثانية والعشرين من  
العمر. وقد لمت نظرى ليلتها أن المرأة  
الحية كانت لتخلص النظر نحوى تأبير  
الجن والحيث، وكان نواقع نظراتها تأبير  
عجيب على نفسى فقد كانت عينها  
واستعيت عميقتى سوداوين لامتصت  
كأنهما من الزفت الغلى! ولما انتهى كنت  
فى الليلة الأخيرة لتفتت بالمرآة فى يوى  
الضيق المتواضع كان البروج فى الخارج  
وكان من عادته أن يخرج كل صباح  
فى الماء، ويمل يمسح على تنصنع  
انفاسه ويستعمل يمسح عليه من شدة  
السعال! وتضاهنا بسرعة أخذت تشكو  
وتصعب بالتشوى مع النهاب فى الأعصاب.  
وزاحت تحت للعبد لله يوى تبيك كيه  
أرهقها المرض إلى حد أن الزوج  
اصطحبها معه إلى المصروفه لتتم الهواء  
وتسرى عن نفسها قليلا. ولتكنه جاءه  
إلى البندر وتركها فى اللوكائنة وأنشعل  
عنها بأصدقائه فى التمسوة. وخرج  
المت لها الوضع وصرت على  
كيفية. وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغوره

لطف.. ثم ردنى فى عصف. وانكسرت كما  
ننت بركر هاجها شاب ثابت على الطريق..  
واعترت لها من سوء سلوكى وقلة أدبى  
وفساد طوى وقيلت اعتدائى على الفور  
ثم فتحت حديثا أن غايه الجيد، وبخلت  
أنا الآخر فى موجه الأذى التى سلمتها  
ولكنها بعد قليل صحت صيحة أشعلت  
ثم مدت يدها وقمرستى ومدت يدي أنا  
ثم احتصنتها  
بشدة وقيلتها كالجنون. ثم همت بها،  
ولكنها مرة أخرى ردنى فى لطف،  
ردنى فى عصف. ثم اتباني بشدة خجل  
على مسلكى المتوحش.. واعتذرت لها مرة  
أخرى وجلست مسكفا كتفميد راسب عدة  
أصوام فى مادة وسدعة والسيدة السيدة  
الكريمة اعتذارتى ثم راحت تصب لى كأسا  
آخر. ومع الكأس راحت تتحدث فى  
السادة.  
وتكرر المشهد بعد ذلك أكثر من مرة،  
تبدا هى بالمناغشة ثم أبادلها ثم اندفع  
أكثر ثم أقفز محاولا الوصول إلى آخر  
الشوط.. ثم لنهزنى بشدة وتنهانى بعطف  
ثم اجلس مسكفا واعتذر.. حتى الصحر  
كنت أعتسر عشرين مرة. وأردت أنسى  
لعبة راسب الكريمة تلك الليلة، وأنها ترد  
على راسب بأسلوب عالى القلم الألب  
فى الحديث فى المستحق. كان الصخر  
على الأنواب عندما غارت الألبا سكان  
حزينا شديد الهم، مكسوف أكاد أظن  
من الإرض أن تنشق لتلقتنى وتخبينى  
بعينى عن الأنظار! ولقد طلفت أصواما  
طويلة بعد ذلك أعص من يصبرى كلما  
واجبتها فى أى مكان، ثم تحاسست  
لقاها بعد ذلك، ولم يتدنى منها إلا  
اخفاها عن نفسها من الحياة العامة.  
ولكى الدرس الذى علمتسى إياه كان رهيبا  
والقاسى على نفسى. ولقد أثر على نفسى  
بدا أننى جيتت عدة سنوات عن أن  
أخطو الخطوة الأولى مع أى امرأة.  
ولقدت لفظة مصص إلى حد أننى كنت  
أخشى معالجة أى امرأة لو كانت خدمة  
خشية أن ترفضنى بشدة، ولم تسمح المرأة  
الحبيبة لىلانى لتسبب لها هقعة،  
إسى كنت أحمى النظر فى عين أى سيدة  
فى حزب النضوة فقد كنت اعتقد أنها  
فقت قمصتى لكل من تطهرها! وبعد أن  
دار الهلال مضموما ولقد أريد أن أهرب  
من الدار ومن الفاهرة كلها. وحطرت لى  
أن اغادر، صمخ كلها على ظهر مركب  
وهرط لاجد أسبال كل من ألقى معه  
أسلوب العمل فى المراكب! وهل أصلح أنا  
للعمل فى المراكب وخصوصا أنى معتل  
والصحة ولم يوجد علم طهر المراكب  
عمل حميف لائق؟ ثم تحليت من هذه



الاستاذ مش موجود واعلق الباب وبرزلت  
مجرعوا أكاد أبكى وأنا أزعف على السلم  
ثم نزلت فجأة وأخرجت قلماً وانترعت  
ورقة من جيبى، وكتبت عليها بالحرف  
الواحد.. تابعى.. إن لى قلماً كقلمك ولكنه  
أروع وأرفع، وعندما يحين الوقت المناسب  
سأشهر على الناس قصة الذين يسكنون  
الزمالك ويكتبون عن الناس في ريشهم  
وحوش برقى.. وصعدت السلالم من  
الجديد وعممت بطرق الباب لأعطي  
الورقة للخدم.. ولكنى لم أعمل.. خشيت  
أن يصيرنى الرجل العملاق ويسلمنى  
للبوليس فنزلت من جديد أزعف على  
السلم والورقة فى جيبى.. ولعنت نفسي  
لأننى صليت الأستاذ وزرته وهما هو  
التابعى أمامى بلحمه ودمه على باب  
القيادة وأنا أيضاً على بابها. ولكن ما أعود  
الغارق.. رجل الحراسة الذى طردنى جاء  
مسرعا وضرب تعظيم سلام للتابعى  
بينما رحت أنا أزعف فى شارع الجيش لا  
أدري. ■

ولأنه كان يكتب به التابعى تلك الأيام..  
وعندما رأيته أول مرة فى عام ١٩٤٨ حين  
جاء يزور معرض طوغان، صافحته بحب  
وهممت أن أقبل يده.. هذه اليد التى تكتب  
مثل هذا الكلام يمثل هذا الأسلوب لايد  
أن تكون يداً من نوع آخر مختلف.. وعندما  
طلبت منه أن أراه دعائى لزيارته فى أى  
وقت أشاء.. وصعدت أنا وقبيلت الدمعة  
ذهبت بعد ذلك بأيام إلى بيته فى  
الزمالك، وصعدت السلالم وشأ فقد رفض  
البواب أن أصعد فى الأسانسير بحجة أنه  
معطل!  
وعندما وصلت إلى باب الشقة كنت  
قد نزلت آخر انشأسى وطرقت الباب  
بخوف وبأيد شديد، وخرج لى عملاق  
أسمر من الداخل وسألته عن الأستاذ  
فقال.. موجود.. مين أنت؟ قلت على  
الغور ويزهو شديد للغاية.. محمود  
السعدنى.. ونطقها كأننى أقول تاليلون  
بونابرت أو الجنرال ديغول أو المستر  
تشرشل وأجاب الرجل دقيقة وعاد ليقول،

«خرجت أجرى من القيادة وقبلى يدى  
بسرعة ويدينى كله يرتعش أنا ابن الجبل  
الذى كان يحلم بهذا اليوم.. يوم ٢٣ يوليو  
والذى ساهم بجهد متواضع فيه، والذى  
كان ينتظر أن يفتح أمامه الطريق لى  
يمضى على طريق الثورة إلى حيث تلتقى  
إرادتها وإرادته، أنا الذى تحولت إلى عاطل  
ومغسل ومطروود أيضاً من داخل القيادة،  
لأننى فعلاً بلا عمل، ووجودى هنا مريب..  
وعند الباب فوجئت بعربة سوداء  
كبيرة تقف.. ونزل منها الأستاذ الكبير  
محمد التابعى، فقد كان على موعد مع  
محمد نجيب وأنا كنت أصرف محمد  
التابعى معرفة جيدة، رغم أننا لم  
نلتق إلا مرة واحدة ولعدة دقائق لا  
تزيد.  
هلقد كنت ميمناً على قراءة مقالاته.  
واعترف أننى تعلمت منه الكثير، وأنه  
الوحيد من بين كتاب الصحف الذى  
يهرلى بشدة وخبلى لى وجعلنى اتبعه  
كأجنون! يا له من أسلوب رقيق وأنيق

بهوت وباشوات وبعضهم يحمل نديش  
محمد على.. لايد أن الثورة ستحييهم من  
الطريق لتفكح لجبل العبد لله طريقه  
فى الصحافة.. والأفلام التى سبحت فى  
بحر التفاف لجلالة اللففوت الذى يتربع  
على العرش لايد سقوازي الآن خزيًا عن  
عين الشعب.  
ولكن.. ما أغرب الحياة.. نفس الأفلام  
ميت تقاتل من مواقع الثورة وكأنها هى  
التي صنعت كل شيء وراحت هذه الأفلام  
تكتب بشراة من مجون الملك وجنون  
الملك، والملك على الشاطئ الآخر من  
البحر الأبيض المتوسط.  
وقد تتلمذ على يد التابعى الأستاذ  
والمعلم الأول العديد من الأفلام البارزة  
التي صارت نجومًا فى بلاط صاحبة  
الجلالة.. بل وقاربها مثل محمد حسنين  
هيكال ومصطفى وهلى أمين وأنيس  
منصور وغيرهم، لكن للسعدنى رأيا  
مختلف حيث يرى قصة محاولته لقاء  
التابعى التى منيت بالفشل الذريع:

## شركة المهندس للتأمين

MOHANDES INSURANCE COMPANY



مغطا تشترع با ذمان



أخطاركم



أموالكم



تغطا التأميناتكم



ممتلكاتكم

لم حازر حه عليك أمين يعنى التأمينى للعالمين

Call 19318

www.mohandes-ins.com

وثائق التأمين على الحياة  
وثائق تأمين المسافرين  
وثائق تأمين السيارات  
وثائق تأمين الحوادث  
وثائق تأمين الحريق والسطو  
تأمين النقل البحري والجوى

الاجتماعية ليس بالضروة أن يكون لها أساس ديني، بمعنى أن القيمة قد يكون لها أساس ديني أو مستمد من المعتقد الديني، وقد تكون اجتماعية محضة ومستمدة بالأساس من العرف السائد، ومتوارثة منذ الأزل من حضارات لا دينية، أو لا تعتنق ديناً سماوياً من الأديان السماوية الشائعة المتعارف عليها. لكننا لا نستطيع أن ننكر أن لها ثباتها ورسوخها الذي قد يوفق أحياناً تمسك الناس بالمعتقدات الدينية نفسها.

أولاً: مم يخاف المصري؟

- من السلطة بكل أشكالها.
- ومن الحسد والعين.. رغم أن أحواله هي مجملها لا يحسد عليها.
- ومن النكد والكبر والحزن.. رغم أنها تماثل حياته

يتصورون أنها يمكن أن تحميهم من شيء ما غامض يهدد حياتهم، أو تستجلب لهم شيئاً ما قد يجعلها أفضل، لذا يجب أن تعرف أولاً مم يخاف المصري العادي في حياته اليومية؟ الأمر الذي يلجئه إلى اعتناق هذه الأفكار الراسخة التي لم يستطع عبر قرون التخلي عنها.. لا بل وحتى من يتصورون من صعوة المصريين أنهم نحو هذه المعتقدات بعيداً عن أذهانهم، لا يلبثون أن يكتشفوا أنها مازالت كامنة في نفوسهم ومتغلغلة في وجدانهم، وأنهم بشكل أو بآخر مازالوا مؤمنين بها، وأنها مازالت تسيّر حياتهم وسلوكهم!!

ولنبدأ بتحديد عدة أمور تتحور حولها المعتقدات الشعبية التي تسيّر عقلية الإنسان المصري، ومصدرها تحديدًا، وهي: إما تخوفه أو تحسبه من

ولا يحاول أن يطبقه على قضاياها الحياتية، ولا تحاول حتى الصفوة المثقفة من المصريين أن تطبق على هذه القضايا نظام يحوط العمليات، فتفتت المشاكل إلى جزئيات، وتسحب في العوامل المؤثرة فيها: لتصل إلى الأسباب الحادية المؤدية إليها. كي تستطيع أن توجهها.. بل نجد هذه الصفوة تلجأ أيضاً كغيرها من العامة والجهلاء، للتصمس بكل صنوف المعتقدات البالية، كحل تراء أسهل من إعمال العقل والتحطيط العلمي الذي قد يتطلب جهداً جماعياً. لا يتوافر في المجتمع المصري على أي مستوى!!

هذا وحتى لو استطاعت هذه النخبة من المفكرين أن تضع صفتها وأن تعمل معاً.. وهذا في تصوري يبدو أمراً غاية في الصعوبة. لكنه ليس مستحيلاً على

■ يؤرخون منذ سنوات سؤال أمته قد ورد على أذهان الكثيرين مثلي، وهو: ما سبب تأخرنا عن غيرنا من الدول التي بدأت رحلة النمو معنا.. أو حتى معدنا بسنوات؟ وسبقنا بكثير، ونحى مازلتنا نراوح في مكاننا.. ولا أقول نتخلف عن الركب، نرى هل يرجع السبب إلى السمات الشخصية والنفسية للمصريين.. أم للعقلية المصرية ومبط تفكيرها بالذات؟

هنا ولما كنت قد رصدت في كتب سابقة صدرت لي سمات الشخصية المصرية من خلال الأمثال الشعبية، ثم تتبعت ملامح التحول فيها منذ منتصف السبعينيات من خلال لمة الشارع السائدة، والتي تعكس ما يقتنع به الناس ويمارسون على ضوءه سلوكيات غير مسنونة. فاجدني أعترف أنه قد أسيئتي إمكانية الربط بين هذه السمات وما لا

## محاولة للفهم!!

• ومن العراك أو الشجار، وهو يمارسه يومياً في كل مكان!

• ومن الفقر والعوز والدين.. ورغم فقره فيها حتى أذنيه!

• ومن فقد الأبناء، وموت الأزواء.. رغم أنها إرادة الله وهو المؤمن المتدين!!

• ومن العقم أو «قطع الخلف»، لأنه يهدد رغبته في الامتداد والخلود.

• ومن القطاع لين الرضاع، أيضاً لأنه يهدد ذريته التي هي امتداده في الدنيا.

• ومن الشور بالجرماني، لأنه كان حريصاً عبر تاريخه على أن يعيش من خلال

أمر معينها، وأورغيته هي استحلاب أمور تحقق له بعض الإشباعات النفسية والاجتماعية، وذلك كي تستطيع استجلاء أسباب تمسكه بهذه المعتقدات البالية، والاعتماد عليها في تفسير الكثير من مشاهير وصروف الحياة المحيطة به، ثم ممارسة سلوكيات معينة بناء على مثل هذه المعتقدات، تبعده عن أي تفكير علمي أو تفسير منطقي عقلاني لا يدور حوله.

### تحليل المعتقد الشعبي

لقد توصلت لهذه العناصر المؤثرة في العقلية المصرية بعد تحليل تم هائل من المعتقدات الشعبية التي يتوارثها المصريون، ويؤمنون بها كعامة عظمى، ويبنيون على أساسها سلوكياتهم، ونظراتهم للأمور، ومعاملاتهم مع بعضهم البعض، ومع كل ما يجابههم من مشاكل وقضايا.. ولكن لابد قبل الاستطراد في تشديد الأمر من وضع تعريف إجرائي دقيق لعنى «المعتقد الشعبي»، فال معروف أن كلمة المعتقد أو الاعتقاد تشعب غالباً على المعتقدات الدينية، التي قد تطوّر على قيم اجتماعية.. فني حين أن القديم

أي حال، لأن هذه النخبة يوجد بينها أزمة حقيقية، تعكس عدم نصح يمثّل في «الفردية».. الأول، حتى لو اجتمع نفر من هؤلاء النخبة لمراسة أي ظاهرة، سنجدهم في الأغلب أنهم ينحرفون كل في اتجاه: لإثبات ذاته وعلمه وإعلاء تخصصه، ومحاولة المزاية على وطنية الآخرين ومدى إخلاصهم، أو قد ينحرفون جماعة إلى إهدار الوقت في تحديد المصطلحات الإجرائية ووضع التعريفات، ويتقصر زمن طوول في التقعيد والتظهير في عالم طويل لي ينتظرن طويلاً «ولدا كان إرثاً بحق أنه لي يحدث تقدم هائل ما لم تحل النخبة أزمته، وأن تشجع وتخرج عن أفة الفردية، وتعمل العقل الجمعي، فإذا ما حدث ذلك، انك فقط يمكن أن نأمل في تغير الحال.



وقبل أن تبدأ في تعنيد المعتقدات التي كنت اتصورها السبب الوحيد أو الأهم فيما تعانیه من تخلف لابد أن تعرف في البداية الأسباب التي تجعل المصريين يتمسكون بقديم هائل من الخرافات الموقوفة لميرة قديمهم، والتي

إليه الحال أن تدهور وتدن في كل مناحي الحياة المصرية، فتبادر لديني أن السبب الذي يمكن أن تمسك المصريين بكم هائل من المعتقدات الشعبية البالية يتصهرون على قدر ما تشير عليهم به.. لكنني لاحظت أن معظم الدول التي سارقتنا فسيفسنا لديها أيضاً كم هائل من الموروثات الخرافية والمعتقدات الشعبية البالية التي قد تصل إلى حد الخزعبلات.. ولم يحل ذلك دون تقدمها وسبقها لنا.. هذا ليس السبب الوحيد والباشر الذي من أجله مازلتنا نراوح في مكاننا.. إذا لم تكن نتخلف ما فاعل!!

في يقول البعض إن الفقر والفقر والعنت وشئ صنوف الاضطراب التي عانى ومارال يعاني منها المصري هي ما جعله يركب المصعب فيزيد مثلاً من هلوله، ويزيد من المماق والمواهمة متعلوكة غير مصطر.. رغم أنها من أشد أفاعله الاجتماعية التي تحول ولا شك دون تقدمه.. وحتى لو سلّمنا جدلاً بأن المصري عبر عصور غامرة.. كان فيها مستعبد.. كان مصطر.. مثل هذا الذي يدفعه الآن لممارسة مثل هذه السلوكيات السلبية وغيرها؟ وما الذي يخبئها أو يبرهنها؟ فيجعله مثلاً يلقي التفكير العلمي من حياته،



حاصل الترتيب 2008 بيقوف عسلووة فرح زينة اللقنة - عبراظدر الحزا 1948





بالمال والاقتصاد.. ولكن بتطوير  
الدنيوية..

وطبيع اتفق معه تماما في كل ما  
ذهب إليه، وأرى أيضا أن الإصلاح إن يأتي  
بقرار علوي.. ولكن يمكن أن يأتي من  
الإصلاح الدائري: بأن يبدأ كل منا بنفسه،  
ومن حوله في إطار حملات إعلامية  
للتوعية في كل منحي، وبشاكل متعددة  
ومبتكرة مباشرة وغير مباشرة، ومن  
محطة النجاعات الفردية المبينة على  
الجيدة والعلمية، يمكن أن يحدث تطور  
ملحوظ في القوى البشرية، وفي نمط  
الحياة ولكن يحل هناك دور مهم  
للدولة، أن تسبق في هذه النجاعات  
للثورة، أن تسبق في هذه النجاعات  
للتوعية، وتوجهها وتحثيها، لتستمر  
في المعاء، وتكثف بها الآخرون.. كما  
يتمثلون أنفسهم في أبطال الثورة الذين  
تحثيهم بهم الدولة، والأهم كي تعود إلى  
تحديد الأدوات وتوزيعها بين الأفراد  
والدولة، وحتى يتم عطف نحن متناغم  
لا نشأ فيه، وحتى لا يستغفل الناجون  
من المصريين من انتمائهم لاجتماع  
متخلف لا يقدر قيمة العلم والعمل  
الجيد، فينسلخون منه بالتفوق  
والسروسة، أو بالهروب والهجرة، أو  
بالسخط المدمر على كل شيء.. ولكننا  
نعرف نتائج تولد السخط بين أفرادها،  
وكيف تكون في أحيان كثيرة نتائج غير  
محسوبة، وعواقبها وخيمة على الجميع.  
هذا وفي إطار تصورات المصورة  
المشفقة لمحاولات الإصلاح يحلص  
الدكتور محمد زروق حامد في العديد  
من كتبه عن: «إدارة الدولة»، «والقصر فوق  
العولة»، إلى ضرورة الأخذ بخصوصية أن  
المصريين يحبون أن يتعلموا، ثم اختيار  
الرؤية الخامسة لتوعية التعليم المناسب  
للمقدم، فالشعب المصري لا بد أن يتعلم،  
ويعبر في بحث مزيد من الإبداع، ويعبر في  
نظرة تمييز بخصوصية يمكن أن  
تساعدنا كمثقف لها من برائن التخلف  
عن ركب الحضارة والمدنية، خاصة مع  
اتساع ولب الشباب المصري الآن في ظل  
عصر العولة.

وقد تدعونا مثل هذه الاقوال وغيرها  
ما يصدر عن الصفوة المشفقة من  
المصريين إلى قدر من التفاهل حول  
إمكانية النهوض بهذه الأمة، ومحاولة  
تغيير واقعها إلى الأفضل.. ليس تتشاور  
البلهاء.. ولكن تتمايل محسوب بدقة إذا  
ما عقدنا العزم على اللحاق بركب  
التقدم، والتخطيط، العلمي لتحقيقه،  
الهدف

**الباحث العلمي  
المصري وراء خلفيات  
راسخة متغلغلة  
في نفسه، ولها أثرها عليه  
يعمق ويتوسع  
جغرافيا يمتد من أسوان  
إلى الإسكندرية،  
وأهم هذه المستندات  
ما يتعلق بالدين،  
الذي يعد صئصراً  
حاكماً فينا**



## تصورات الإصلاح

قد يتساءل البعض، وما هو طريق  
الخلاص الممكن.. الذي يمكن أن  
يساهم فيه كل فرد، كي تبدأ رحلة الألف  
ميل نحو العولة، ولكن ذلك بتعريف  
الناس بأول خطواته، إلى أن يتم  
التخطيط لخطوات التالية.. إذا قدر لهذه  
الأمة أن تتعود لتوضيح خططها  
واستراتيجيات ممتدة، بهدف النهوض  
نمط إسماعيل والبشر، وفي ذلك يقول  
دكتور إسماعيل سراج الدين: «إن التطور  
لا يتم إلا بتطوير البنية، وبالتعلم،  
والعلم والبحث العلمي، والعمل النديوب،  
والانصباط، وبالتخلي عن المنطق  
المحور، بأن الحكومة يمكن أن تحل لنا  
كل المشاكل.. فالنمو بالناس.. وليس

ولكن يعرف أن المصريين لا يستنفرون  
إلا في أوقات الأزمات والتضاليد.. لتكتم  
لم يتعودوا المشاركة بصفة دائمة، وقبل  
المشاركة كثيراً ما نجدهم غير مرتكين في  
الأصل أنهم بالفعل في شدة حقيقية، أو  
أن الشداك قائمة لا محالة.. فإذا رآهم  
غالباً ما يتأخر كثيراً عن تقدير فداحة  
ما هو قادم عليهم.. أو ما هم مقدمون  
عليه.. حتى وهو على مرمر البصر.. بل  
وأحياناً وهو شبه ملموس ومحسوس  
لهم.. ولا ما فشلت كل محاولات التوعية  
الإرشادية لإقناعهم مثلاً بجدوى تنظيم  
النس، ومخاطر زيادته.. رغم أنها بداية  
النس، ومخاطر هذه الخطورة قد  
أصبحت يعانون منها بالفعل، متمثلة  
فيما أحدثه الزحام في الحياة المصرية  
من صعوبات ومشكلات في فصول  
الدراسة، وفي الشوارع وفي المرور وفي  
التزاحم في المستشفيات والمحلات، وفي كل  
مناحي الحياة.. حتى التي يفقد بها  
الاستمتاع أو الشروع..، ناهيك عما  
أحدثته الزيادة السكانية من آثار مباشرة  
وقاسية على الأمة المصرية في أبسط  
حقوقها المعيشية المتعلقة بالثقوت  
البشري، أو الكساء أو الحق في التعليم..  
ومع ذلك لا يابون بما تحمله لهم الأيام  
من مزيد من المعاصي!

لا بل هناك أفة أخرى لعلا ترثبط  
بعدم إدراك المصريين لمخاطر كثيرة  
تحيط بهم وتحاصرهم، ويتعمدون لها  
بقدر كبير من التهاون، واللافتية.. ليس  
لما يتصفون به من تدني يصل أحياناً إلى  
حد الدروسة.. ولكن لأنهم أصلاً شعب  
من أهم سماته الصبر والرضا بالقليل..  
وبما هو يكفي بالكاد لسد الرمق أو حد  
البقاء، ذلك أن طموح غالبيتهم أصبح  
شبه منقول.. أو مقضي عليه.. خاصة  
على المستوى الفردي، وخاصة بين الفئات  
الدنيا التي ترضى بالفتات والعيش  
ناكد على حافة الفقر.. فلا يسعى  
أفرادها إلى تغيير واقعهم بكند وعمل  
وعلم.. وإنما يكتفي بعض الطماحين  
منهم بمجرد الحلم والعشم في تحقيقه  
من قبل ضرورة حظ في كثير من الأحوال.  
أو من قبل العناية الإلهية التي تهب بغير  
حسابه لمن تشاء في أحوال أخرى.

وقد أصبح عدم الطموح الآن حتى  
على المتعلمين الذين أصبحوا يدركون  
بما لا يدع مجالاً للشك لديهم.. أنهم لم  
يتقوا التعليم الذي يمكنهم من المنافسة  
مع غيرهم على نفس المستوى والتقدم،  
فأين نحن كمثال من الأوروبيين الذين  
يطمحون إلى العيش في رفاهية بل؟

٩٩ تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديده المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرؤونه من إصدارات. ٩٩

## الرقابة والتعقيم في الإعلام الأمريكي

لناشرة دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢١١ صفحة



ثمة تصور شائع لروح له أجهزة الإعلام والدعاية الأمريكية عن شفافية الإعلام الأمريكي وحريته المطلقة وديمقراطيته في التعامل مع كل القضايا مهما كانت حساسيتها. هذه الكتاب يكشف كذبة هذه الادعاءات من خلال أهم ٢٥ قضية إخبارية تناولتها الصحافة الأمريكية أو تعاملت معها بقدر معتبر من التجاهل المتعمد، كما يظهر هذا التقرير (مشروع مراف ٢٠٠٧) إلى الكيفية التي يتم بها إضفاء أوثنيات لتقصص إخبارية أقل أهمية من نوع زواج لجنسنا جولي وبرايدويت أو المرسوم الهاربة أو جولات برويتي سيبر الهائلة، فيما يتم إخفاء القصص الأكثر أهمية مثل التمدد المنهجي في ممتلكات جوناثان وسحق الفلسطينيين بواسطة الآلة العسكرية الإسرائيلية أو المخالفات الجسيمة التي يرتكبها جماعة المحافظين الجدد الجيئين بالرئيس بوش لتحقيق مصالح خاصة، ضاررين عرض الحائط بقواعد القانون الدولي، وحتى بالقرارات التي يصدرها الكونغرس والتي مهدوا هم بأنفسهم لمسورها، مثل الدور الذي لعبه نائب الرئيس بوش ذلك شئني من خلال شرعها هاتيلبرون، التي عمل مديراً تمهيدياً لها في بيع تكنولوجيا ذبوبة لإيران جعلتها قريبة جداً من إمكانية صنع قنبلة نووية، رغم قرارات الكونغرس بحظر التعامل التجاري مع إيران وليبيا والعراق باعتبارهم «مخبرو الشر» ويشير التقرير إلى المكاسب الكبيرة التي حققها تشين من هذه العملية، والتي تجاوزت ٣٠٠٠٠.

قصة من هذا النوع لا يجدها القارئ الأمريكي في إعلامه المقروء أو السموع أو المرئي، وإذا ظهرت فيطرحه مشوشة على علمه محدودة دون إلقاء اليوم مباشرة وراء حجاب الرئيس.

قصايا أخرى عديدة، مثل المبيدات المستخدمة في الزراعة والتي تؤدي إلى الإصابة بالعدايد من الأمراض، أو تبوير عشرات الآلاف من الأراضي الصحاح للزراعة في أمريكا الوسطى والجنوبية وتحويل السكان العائشين حولها لاستخراج الذهب أو الاستيلاء على مصادر المياه العذبة، أو حرق الغابات

للاستيلاء على أخشاب الماهوجني التي تحتاجها الصانع، أو الاستمرار في زيادة نسبة الكربون والمؤثات في الجو ومخاطمة كافة الفرضاء البيئية بما يهدد الكون كله بأفناء.

هذه القضايا المهمة كلها لا تجد لها صدى مناسباً في الإعلام الأمريكي، وتستحوذ قصص «أخبار الوجبات السريعة» ما يسميها التقرير على الاهتمام الأكبر، فإعلام أمريكا تحركه الشركات الكبرى من وراء ستار.

## ماتتا عام على الحملة الفرنسية

تحرير. ناصر أحمد إبراهيم الفاهرة: دار المعرفة للكتاب، ٢٠٠٨، ٧٠٦ صفحات



الشره اللات في هذا الكتاب، أن نحو ٧٠٪ من الباحثين المشاركين فيه (١٢ باحثاً ٢٠ باحثاً) هم من التخصصين في اللغة والأدب الفرنسي، وربما تكشف عناوين البحوث من هذه العلية لأسائدة اللغة: دراسة لغوية لسمية مشهورات صادرة باللمتين الفرنسية والعربية، قرارة نقدية لترجمة كازيان لحواليات الجبرتي وفيغولا الترك حول الحملة الفرنسية، لوحات دراسة الحديثة في كتاب وصف مصر، مراد تحليلية لنهاج مادة التاريخ في المرحلة الإعدادية (مصر)، فصوص الكتب المدرسية في المرحلة الابتدائية (فرنسا) صورة باديون من الدعاية إلى الأسطورة... وهكذا.

وترد أسحات الكتاب بشكل عام على فكرة روجت لها بحوث فرنسية نشرت في مناسبة الاحتفال بمرور مائتي عام على الحملة الفرنسية عام ١٩٩٨، وركزت في معطها على الدور الحضاري للحملة التي نقلت الحضارة العربية إلى الشرق الإسلامي المتخلف، أما بحوث الكتاب فهي على التقدير تعيد تعميم هذا الحدث المهم ووضع عام لأثره على آثار سياسية وثقافية على مصر والشرق العربي في جميعها الصامحة، حيث أبرزت اللفة الاستعمارية للحملة ضمن سياق أفضل من المشرق الاستعماري الأوروبي، كما نبذت الحوث ما للحملة في التعميم والخلف في مختلف أنحاء مصر. وكذلك مدري النمط الإبراري التي أخلفها الحملة مثل الدواوين، والتي استهدفت

استقطاب النخبة لدعم سياساته، كما أشارت إلى الدلالة السياسية للحملة التي أظهرت عجز السلطة العشمانية عن حماية التراب الوطني من العدوان الأجنبي، وإحساس المصريين بضرورة مشاركتهم في الحكم.

وتشير دراسات الكتاب إلى إشكالية على جالب كبير من الأهمية، هي أن ما كتب عن الحملة الفرنسية في مصر خلال القرن الماضي، استند أساساً إلى المراجع التاريخية المحلية الفقيرة، وإلى الكتابات التي أنتجها فريزون وتعمل بالضرورة وجهة نظر فرنسية، وهي المسلوقة عن شيوع فكرة الدور الحضاري والحضاري للحملة ليس على مصر فحسب، وإنما على المشرق الإسلامي كله،

## أشهر الفنتين من الصحابة والتابعين

مؤلى الجبراني

الفاهرة: دار الملتقى للنشر، ٢٠٠٨



تضم هذه السلسلة ستة أجزاء عن أشهر من السائل المدنية، أشهر من الأشهر، أشهر من مارسوا الإفتاء، أشهر القصاة، أشهر رواة الحديث، أشهر من دونوا الحديث، أشهر الخلفاء.

وفي موضوع الإفتاء مثلاً، فإنها تقتسم مجالاً ثجراً كثيرون عليه بعلم ويعبر علمه، لهاذا خلف إجراءات الصلايات ومطالعاتها ليريد من الإثارة والأجزاء والقيام أكثر المسائل إشكالية وغموضاً وربما لا جدوى، ومن ثم جعل الحديث عن إرضاع الكبير والحلال وتقديم القدم اليمنى على اليسرى عند دخول الحمام وغيرها من الموضوعات التي تبعد المسلم عن فهمه الحقيقي وتلويهم عن مناقشة القضايا الحقيقية. ويكتب المؤلف تعريضاً للمصطفى وشرطها ما يجب كثيرون عليه يتعدى لإثارة، والهامد أن يتساءل عنها من يتصدى للمسئول يتساءل، ثم يعرض لأسباب الاختلاف في الفتوى، ثم يعرض للمسيرة الشخصية والعلمية والمفاهيم والتمهيد للأربعة، أو حقيقة وفاء وان من خيل والشافعي، كما يعرض للمذهب الشيعي وشيوع التعميم الدينية، قبل أن يتناول أشهر من تصادوا لإثارة بلذا بالآثار من بين المهاجرين ومنهم عن ابن الخطاب وعثمان بن عفان

وعلى بن أبي طالب ومن الأنصار معاد أبي جيل وزيد من ثابت وأبي بن كعب، وتتوالى الأسماء السيدة عاشقة رضى الله عنها، عبدالله بن عمر، أبو هريرة، عروة ابن الزبير، الإمام زين العابدين وغيرهم، ثم يعرض لأشهر المفتين من أهل مكة والكوفة والمدينة والبصرة واليمن، وكذلك أشهر المفتين من أهل الشام، عارضاً لسيرتهم العلمية ومن تلمذوا على أياديهم وأشهر الموصوعات التي تصادوا لها.

## الخوف والمتاهة

نبيل عبدالفتاح

الفاهرة: دار مهريت، ٢٠٠٨، ١٧٠ صفحة



بينو عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكأنه إثبات لا فاع لهية (إنسانية مغارة عرق الكوكب الأرضي) كل شيء مختلف، العلاقات الدولية، المصالح الاقتصادية، مفاهيم الأمن القومي، مفاهيم التعاون واللواء، احتياجات الروع ومصالح الاحتواء ودلائل الدولة القومية والهوية الوطنية. إلخ.

هذا الكتاب يسبح في هذا العالم، مع التركيز على الحالة المصرية التي تتنازع بين العولة والديمقراطية والإسلام السياسي، ومن ثم يتولد عنف من نوع خاص، ليس جنائلياً ولا سياسياً ولا خارجياً، من أصاب العلاقات الاجتماعية والسياسية والوطنية، إنما من زعم خصوصيات طبيعة متقدمة، صنف مقص، تشارع الجماعات في مواجهة بعضها البعض لحسم خلافاتها وتحقيق ما أريها، وتمازج دول كبرى وإخضاع أعمالها من الجماعات والأفراد والنظم.

ثمانية عشر فصلاً موضوعها هو الصراع على روح مصر والمصريين بين الدولة والمتأسلمين والمؤسسات الدينية الرسمية والجماعات الإسلامية الأمريكية والتيارات العولة داخل مصر وخارجها.

الدراسة الأساسية بين عشتات الدراسات والمفالات التي يعينها الحكومات والخوف والكرامات التي اجتاحت العالم بعد الحادي عشر من سبتمبر، إلى تراكم مشاعر من الخوف المتبادل بين أبناء الأديان والثقافات الإسلامية

أنداك واحدة من الليبرالية. تمتع دراعيا لكل موهبة عربية هامة أو أدبية، لكن الألب الذي كان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، كان حقيقياً بالإنكليزية وصحافة والحوارات والكتب والشعور، لأنه تعلمها في الإنكليزية. وحسن عاد إلى دمشق أسس مصنعاً للحلويات التي اشتهرت بها الإنكليزية، معمل الحلوى في دمشق يحتل الفصل الأول من الكتاب، بعده وتحت عنوان بيتنا، يتحدث المؤلف عن هذا البيت العتيق في حي مئذنة الشح في دمشق القديمة، أبوابه وشرفاته وشجراته ثم قاطنيه، وخصوصاً الأم أم معتز، كما عرفت بس الأقباط والحبران، ثم واز هذا البيت من الأناضل الصائرين، ثم أيضاً من المسيحيين الكبار والأبهاء النابيين، ويحكى المؤلف تفتحاً من لسان الأب اليساري على مدى ربع قرن، ثم يورد بعد حصول سورية على الاستقلال في ١٩٤٦، ثم فصلاً آخر من الحيرة حتى الحصول على البكالوريا الثانية قسم الفلسفة عام ١٩٤٦، ولله بالفنون في صموهية، وتسميه لمراسة الطيب ثم الحقوق وانتشاله بالفنون والأدب من خلال الجمعية السورية للفنون دمشق، ثم عمله حوايي في الإذاعة ثم محترراً بعد ذلك، وسهره إلى باريس للحصول على الدكتوراة من السوربون، ثم عودته للعمل في الإذاعة والتليفزيون السوري والذي يعد هو والد من واده، وكان مديره إلى العام ١٩٦٠، من مذبات البث ثم عمله في السلك الدبلوماسي في النصف الثاني من القرن العشرين، مثقلاً بين نيويورك وواشنطن وعواصم عربية وأجنبية عديدة، محطات عديدة تنصرف خلالها على صاحب الصورة الرائدة الإعلاني والأدبي والدبلوماسي الذي شهت مسيرته انتماءات مهمة في الواقع العربي.

#### صناعة الكتاب في سورية

محمد كامل الخطيب  
دمشق: منشورات ٢١ - ١٩٩٤ صفحة



يعرض الأرقام في السطور الأولى من الكتاب تصميك مدشنة وصناعة حقيقية، منها مثلاً ٢٠٠٠ مبيعات دور النشر العربية في عام ٢٠٠٤ بلغت ملايين ونصف المليون يورو، وأن عدد النسخ المباعة بـ ٤٥٥ مليون نسخة، كما بلغ عدد العاملين المنشورة ٦١ ألف عنوان.

طبعاً لا يمكن الحصول على بيانات إحصائية دقيقة عن سوق القراء في أي بلد عربي، ولكن المؤكد أن سوق القراء في

اللاتينية، وهل قدمت هذه المشكلات الجديدة للحياة السياسية المصرية؟ هذه الأسئلة هي ما يبحث المؤلف عن إجابات لها، وهو يبدأ باستعراض تاريخي مختصر، فيشير إلى أن مصطلح الحركات الاجتماعية الجديدة بدأ في أوروبا عقب حركة الشباب والطلبة في عام ١٩٨٠، ويعتقد أنتمقلت الظاهرة إلى عالم العالم الثالث، وقد طرحت هذه الحركة مطالب جديدة لم يستطع أحد أن يصنعها ضمن الإطار الواسع واليمين، ورغم أن أصحابها بقوا في معظمهم معيدين من تلك التيارات، إلا أن انخراطهم في السياسة زادت وقاؤه من موالع مستقلة. ولا خلاف أن ذلك أن هذه الحركات في مجتمعات مثل أمريكا اللاتينية مثلاً عبرت عن نفسها خارج الأطر التقليدية التي يفترض أن تضمها، وهو يرى أنها انتهت مطالب اجتماعية اقتصادية تخرج في مطالبتين الأولى تتنسى مطالب اقتصادية وعينية فطنت مطالب اجتماعية جديدة، بعضها لم يعرف طريقه إلى التفتيش النقابي أو الاجتماعي من قبل، والثانية تتنسى مطالب الاقتصادية وعينية لجموعات سكانية لا تخرج ضمن إطار فئة اجتماعية واحدة من حيث التقسيم الاجتماعي للفعل.

ويلاحظ المؤلف أن الحركات الاجتماعية في مصر تتميز بمروريتها ومصر وسرعة في الخلق الفرص فضلاً عن أنها حركات غير أيديولوجية، كما لاحظ أن معظم هذه الحركات عمل في المجال السياسي، والتغلب منها عمل في المجال الاقتصادي الاجتماعي، ولم تظهر حركات اجتماعية واحدة في صفوف المهتمين برغم الأوسع دوائر هذه الفئات في مصر، ويؤكد المؤلف على أن هذه الحركات الاجتماعية الجديدة حملت فيه قيادة دعوات الإصلاح والتغيير، ويرى أن انتماش هذه الحركات سيؤدي إلى انتماش الأحزاب، كما أن الأحزاب يمكنها أن تتوسع في إطارها الأوسع هذه الحركات.

#### من أوقاص العصر

صباح هاني  
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧ - ٣٧٢ صفحة



كان والد الإعلاني الأدبي صباح قباني أحد الذين لاحظوا بأبي خليل القباني (الجد) مؤسس المسرح المصري العربي في الناحية، وكانت مصر

بمعزل عن الأخرى، وتبدو فيها مشكلات الشرق الأوسط حزمة واحدة من المشكلات تركت زواياها على الأخرى، وهو بهذا يرد على ما ذهب إليه الباحث الأمريكي روبرت سالتوف المدير التنفيذي لعهده واشغلت لدراسات الشرق الأوسط، والتي لا يرى ارتباطاً بين قضايا المنطقة، وينصح إدارة بوش بأن تحل كل مشكلة منها على حدة، فيما يرى المؤلف أن العمل بهذه النصيحة لا يخدم الهدف الأوسع لتحقيق استقرار في المنطقة.

وفي الشأن الأمريكي يشير إلى الجدال الدائري بين مرشحي من الولايات المتحدة الأمريكية، يدعو أحدهما إلى احتواء الصين وتنتظر إليها اهتماماً محتسماً فيما يدعو الثانية إلى تقليص إمكانيات التعاون على احتمالات التنافس ويتساءل عن الاتجاه الذي تستلزمه الصين. ويذهب بأنها ستنشأ علاقة مما لا يتعارض مع اختياراتها وقضاياها الحيوية، وهو ما يصر دبلوماسيتها الناعمة في التعامل مع العديد من القضايا، خصوصاً تلك التي تهمس فيها عن الولايات المتحدة. ويشرح المؤلف في الشأن المصري سؤالاً صعباً: هل تراجع دور السياسة الخارجية المصرية؟ وبعد استعراض سريع للبيئة الإقليمية والدولية منذ العهد الناصري حتى اليوم ينتهي إلى القول بأن القاديين يتراجع الدور المصري يتجاهلون التطورات الهائلة التي حدثت في بيئة النظام الدولي خلال العشرين عاماً الماضية. فضلاً عن التغيرات في البيئة الإقليمية، وهو ما يتطلب معالجة في مصرى يتركز أساساً على التعهية والتنسيق مع الأرواء الدولية والقوى الإقليمية، ويؤكد على احتياج السياسة الخارجية المصرية إلى شيء من الخيال والإبداع، كي لا تبقى خطواتها مجرد ردود أفعال لا يجرى حولها.

#### الحركات الاجتماعية الجديدة

فريد زهران  
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٨ - ٦٥ صفحة



تشير الدراسات والتحليلات والمطالعات الصورية والنقائعية عالية الصوت في مصر مؤخراً لمآلات مشروعة عن الحركات الاجتماعية الجديدة، وهل هناك فعلاً حركات اجتماعية جديدة في مصر أم لا الأمر لا يبدو أن يكون واضحاً، وهل تشابه هذه الحركات - في حالة وجودها - مع نظائرها في أوروبا وأمريكا

من جهة ثانية، وهو ما دعا إلى استعداء الصور والمركبات المبلية على الإسلام والمسلمين، وإباحت من جديد كبرى الحروب المبلية ومماهيم الجهاد وأخذت الدمة يدور السلام ودار الحرب، واختلت الرؤى - الصافاً مع هذه النظرة غير الموسوية - حول حروب التحرير من أجل نيل الاستقلال واستعادة الحقوق المشروعة كما هو الحال في فلسطين والعراق، فصار الطالبون بها من وجهة نظر غربية إرهابيين وقتلة، الإزهاق المولم ليس هو السبب الوحيد لإشاعة الخوف حول العالم، هناك السياسات الاقتصادية غير العادلة، والخصخصة بصيغتها المشوالة في عهد من دول العالم الثالث والتي وسعت الضجوة بين الأغنياء والفقراء، والتطبيق على الحالة المصرية فإن أسباً عديدة للفقر والبطالة والفساد في المستقبل تبدو جلية، لا تشجع حالة الجود السياسي وغير فكرة تداول السلطة والمشاركة في الحياة بين الجمهور، تضاد إلى اتساع مساحات الفقر والفساد وترهل الإدارة وتنامي الفساد ومعاوقات سلب روح المصريين بين مئذنة السلطة ومعارضة فصاعات الإسلام السياسي.

#### نظرات في العلاقات الدولية

السيد أمين طليبي  
أبو العتب، ٢٠٠٨ - ٢٨٤ صفحة



أربعة محاور أساسية يضمها الكتاب: قضايا الشرق الأوسط، قضايا أمريكية، قضايا دولية، قضايا مصرية، جميعها يشترك مع موضوعات أدبية أو كانت كذلك حين الكتابة عنها، مثل الأزمة السورية، الإيرانية، حرب لبنان، الحرب على العراق، صراعات الشرق الأوسط، أمريكا والصين، استراتيجية الأمن القومي الأمريكي، قمة الناتو، مصادر الإزهاق الدولي، مستقبل الأمم المتحدة، تصديت السياسة الخارجية المصرية، العلاقات المصرية الأمريكية.. وهكذا.

والمؤلف دبلوماسي مصري عمل في عديد من عواصم العالم شرقاً وغرباً، براج، لبيراء، موسكو، لا جوس، واشغلت، الترويج، ومدير إدارة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية المصرية في الفترة من ١٩٩٤ - ١٩٩٦. في شأن الشرق الأوسط مثلاً فضائل المؤلف عن حدود الارتباط بين قضايا الشرق الأوسط على اتساعه، ويشير إلى الطبيعة التبادلية بين قضايا المنطقة ومصر المثابة بحيث يصعب تناول القضية

السرى، وقد كان هذا النوع من العمل هو الذى افض مضاعف المحتل الإنجليزي وجعل وجودهم فى مصر عبثاً باهظ الكلفة.

**ويوزج المؤلف** ليداهيات هذا النوع من التنظيمات باغتتيال رئيس الوزراء بطرس غالى فى فبراير ١٩١٠، وكان آخر اعماله هو اغتيال السيرلى ستاك سردار الجيش الإنجليزي فى نوفمبر ١٩١١، وخلال خمسة عشر عاماً، بين عمر هذا التنظيم السرى، نجح هذا التنظيم فى تحقيق إنجازات كبرى.

يقرا المؤلف تاريخ هذا التنظيم من خلال مذكرات ثلاثة من أبطاله: عبد العزيز على وعبد الفتاح عناية وأحمد رمضان زيان، ويعد المؤلف كتابه هذا بداية أو كتاباً أول قد يتلوه آخر من مذكرات رجال العمل الوطنى السرى المنتمين إلى الوفد المصرى، إذ يلاحظ أن هناك تداخلاً كبيراً بين كثير من الأحداث التى تناولها الفدائيون الثلاثة المنتمون إلى الحزب الوطنى، وإن كان هناك اختلافات فى الرؤية بين الطرفين، وإن لم يغيب ذلك من الحقائق الكبرى المتعلقة بوجه التصادم العدلى والعمل السرى.

ويشبع المؤلف طريقة جديدة ولافتة فى عرضه للمذكرات، فهو يبرز شخصاً لتأويث الثلاثة التى يتحدث فى كل واحد منها عن واحد من هؤلاء الأبطال، وهو يسمى عبد العزيز على مثلاً التناثر الصامت، والمخلص الذى يقدمه المؤلف يشبه الأبطال الذى يسهل القارئ على هوائى كتاب يمجبه، نقرأ مثلاً عبارات متجاوزة من هذا النوع، يجيد تحليل العوامل التى أدت إلى تفرقه الدراسى وفى ممارسة الحياتين العامة والسياسية فيما بعد، يتحدث عن فضل أستاذ أحمد عبد الوهاب فى إلحاقه بالعمل فى بلكه مصر، يحدثنا عن استقالته من البلكه بسبب تخوف طمعت حرب غير أياض من نشاطه الفدائى ومحاولة حمايته وحمايته البلكه من متابعة البوليس، لا نراه متيناً مانعاً من إنجازه كبرى أو كمعبر أو كوظف صغير، إنما هو رجل مجد مجيد يدل كل جوده من أجل النجاة والتفوق وحسب يتحدث عن بعض العوامل المبكرة التى كانت سبباً فى نمو عقيدة الحرب الوطنى فى نفسه، يشير مكل وضوح إلى علاقة هذه التنظيمات السرية الفدائية بالحزب الوطنى، يروى لنا كيف أخذ مسئولو جمعية التضامن الأخرى البيعة منه، فشرى إزهاصاً شديد الشبه ببيعة الإخوان المسلمين التى اشتهر أمرها بعد ذلك، وهى البيعة التى دللتا على أنها كانت تبنى ببعض الطلال الماسونية فى فكر العمل السرى.

بهذه الطريقة يسكن أن نقرأ الملاحظات وننتقل منها إلى الأسلوب الثلاثة إن شئت أو نكتفى بها.

■

## كتاب السراوية



### القدس الجنة

محمود درويش

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفاً من الشجاعة.

حدث مرة واحدة فى حياتى أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صغرة ولم يحدث أيضاً أن تحول صغرة إلى جندى.

حدث ذلك فى القدس. وكنت أنا الصغرة والإنسان

الجندى.

ومنذ الآن.. منذ هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانتة.

من علمنى هذا الصمت؟ ومن علم القدس مرافقة هذا المساء الذى لا ينتهى؟

من علمنى كل هذه الشجاعة؟ ومن علم القدس كل هذه السخريفة؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى الغمد، كلا ليس الوطن علاقة قريبي ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب الذى يفترسك فى القدس. ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

### فى ضوء القمر

محمد الحادى

القاهرة - مكتبة الشرق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٦٦ صفحة



يقدم هذا الكتاب قراءة فى مذكرات عدد من رجال العمل الوطنى الفدائى



## كتاب الزاوية



### تريد أن تزور أمك في العيد؟

محمود درويش

من شهر طويل لم تزر أمك وآباك وإخوتك في قرية لا تبعد عنك أكثر من ساعة. تجتهد في اختيار الكلمات التي تتضمنها رسالتك إلى ابوليس هذه المرة. تكتب: «أتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الخالصة التي أمل أن أراها فيها، هذه المرة، تصادماً مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور. وأرجو بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلي في العيد. أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضاً للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس».

يفادر أصدقاؤك المدينة. وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقل أن تقفح بيت أحد. وتبقى وحدك. الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك وتطفئ نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تميدك. عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا يتكسر الموجة الشمس كثيرة والرمال كثيرة ولماذا كثير. ويتكلمون حولك بلغة تنهمم حزنًا ووحدة واغترابًا. تتناوب رغبة في وصف البحر لصديقك، ولكلك وحدك. بمناسبة. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بأثار شعبك. حتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القيل يشتمون شعبك. ليس بوسع البحر أن يمنحك لحظة صفاء وحب، فينسونك قليلاً؟

العلمية الطبية المتخصصة وكان بعضها باللغة الإنجليزية.

بعد التخرج جاءت الخطوة الأولى في الحياة العملية مشعبة لآماله، إذ افتتح بالتعاون مع صديقه الدكتور عبد المجيد محمود عيادة في إحدى المناطق الشعبية لكنهما اضطررا إلى إغلاقها بعد شهر لظلال لأن الإقبال آنذاك كان على الأطباء الأجانب فقط، بعدها توجه على إبراهيم للعمل في مصلحة الصحة، وتصادف أن وقعت حادثتان كلفتنا عن ذبوه اللافت في مجال تشخيص الأمراض؛ إذ ظهر بواء جديد في قرية بوشا بالقرب من مدينة أسبوط احتار في وصفه الأطباء واشتب على إبراهيم إلى هناك، حيث شخّص المرض باعتباره كبرياء أسبوية.

تعددت بعد ذلك إجراءات على إبراهيم الطبية، وكانت أولى العمليات الجراحية التي أجراها عملية استئصال كلية، وهي عملية كبيرة في ذلك الوقت إذ وضعت في الاعتبار تخلف التجهيزات الطبية التي تحتاجها عملية من هذا النوع، ثم أجرى عملية فكتفت حوصلة في المثانة دون جراحة كبيرة وكان ذلك أيضا أسلوا غير متعارف شورة على إبراهيم في القصر المصري وانتقل هو من نجاح إلى آخر، إلا أن الخطوة الكبرى في مسيرته كانت نجاحه في علاج السلطان حسين كامل من مرض عضال ألم به وقتل في علاجه الأطباء الأجانب فأشار مستشارو السلطان عليه بالطبيب المصري على إبراهيم الذي أجرى له عملية جراحية ناجحة النعم بعدها السلطان عليه يلتقي جراح استشاري الحصة الطبية السلطانية.

التحق بعد ذلك على إبراهيم عضوية مجلس النواب، واختير عميدا لكلية الطب عام ١٩٢٦ وكان أول عميد مصري لها. وفي عهده تطورت المستشفى تطورا كبيرا واتسعت مساحته وإقامته. وازدادت البعثات العلمية المؤلفة منه إلى الخارج، وفتح الباب لمراسم الفعاليات للطب. وفي وزارة حسين صبري (بوليو ١٩٤٠) عين على إبراهيم وزيرا للصحة، وحين خرج من الوزارة عاد مدير الجامعة طراد الأول في ديسمبر ١٩٤١، وتحدثت إيديولوجية البعثات على الطب في مصر والعالم العربي، فأسس نقابة الأطباء والجمعية الطبية المصرية وأسهم في تأسيس جامعة الإسكندرية ومستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية ومجتمعات أخرى لتنمية الريف وإنقاذ الطفولة الشريفة.

هذه نظرة خاطرة على مسيرة واحد من رجالات مصر الكبار في بدايات القرن الماضي، يضمها مجلد فخم وتشتمل أيضا على صور نادرة وتوثيق نشر للمرة الأولى. يكشف بعضها عن أن صاحبها لم يكن فحسب رائدا في مجاله، إنما كان علما في الآثار والفنون الإسلامية.

على باشا ابراهيم

تحرير: خالد عزب وسوزان عابد  
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٨،  
٣٠٢ صفحة (٢ أعمة)



والد الشهنة الطبية في مصر الحديثة. ولد الدكتور على باشا ابراهيم في الإسكندرية في ١٠ أكتوبر من عام ١٨٨٠، كان والده ابراهيم عطا فلاحا من إحدى قرى مدينة مطوس التي تتبع محافظة كفر الشيخ حاليا وكانت تتبع محافظة الغربية، أما الأم فهي البطل الحقيشي في مسيرة هذه الشخصية الفذة، اسمها مبركة خناجي، فلاح من مطوس، طفلتها زوجها ابراهيم بعد شهرين من الزواج فحملت إلى الإسكندرية وهناك وضعت ابنها على.

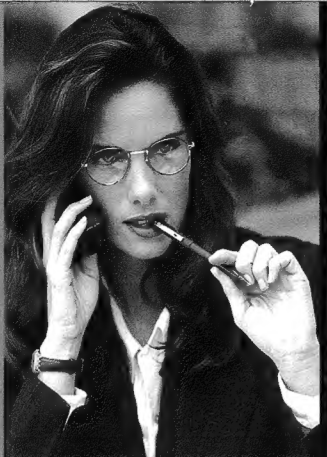
اضطرت الأم تحت ضغط الحاجة لأن تعمل فاعيلة، وكان هاجسها الخوف هو كيف توفر لابنها فرصة التعليم كي يتجنب ما لاقته هي ولأخيه في حياتها. وكان الطفل الصغير موضع إعجاب مدرسيه بدمرسة رأس النين الابتدائية وحصد جوائز عديدة في سنن حياته المبكرة وهو ما طمأن على حسن اختيارها.

كان قريب، على، الأول على مدرسته في الشهادة الابتدائية التي حصل عليها عام ١٨٩٢، وراد الأب حينذاك أن يضمه إلى حضائنه فراوحت الأم خشية أن يتوقف مسار ابنها التعليمي عند هذا الحد، خصوصا أن الحصول على الشهادة الابتدائية في ذلك الوقت كان يضمن لصاحبها وظيفة محترمة.

منحت ابنها أكل ما لديها من نفوذ، وهرت عبر أسطح الجدران قاصدا أسرة السمالوطي بالإسكندرية وهي إحدى الأسر الكبيرة التي كانت لها فروع في القاهرة، وفي فجر اليوم التالي كان على، يقصد محطة القطار إلى القاهرة حيث تولته هناك أسرة السمالوطي بالبرعاية فالتحق بالنقسم الداخلي في المدرسة الخبوية يدرب الجواميز ليستكمل دراسته الثانوية، وينال شهادة البكالوريا بشفق في عام ١٨٩٧ ومجتمعت بدمرسة الطب بالقصر العيني وتخرج منها عام ١٩٠١، وكان طالب الطب يلتقي آنذاك ثلاثة جنهات شهريا تشجعه لى على مواصلة الدراسة، وصرفا من «على، بفضل والدته، اعتاد أن يرسل الجنهات الثلاثة إليها، أما هو فقد كان يمتشج بها يحمله من قراة لقرآن على القابر في أيام الجمع.

أظهر على ابراهيم ذبوه واضحا أثناء الدراسة، ولم يكن يقتنى بالناجح الدراسي فأقبل على قراءة المجلات





# تعاقد على خدمة ال PRI

٣.

خط تليفون  
ارسال و استقبال  
بنفس الرقم

كفاءة أعمالك .. مسئوليتنا

## واحصل على...

■ خصم ٢٠% على مصاريف التركيب

■ ADSL بسرعة 1 ميجا لمدة ٣ شهور مجاناً

■ العرض ساري حتى ٢٠٠٨/٥/٣١

■ لمزيد من المعلومات اتصل برقم ١١١ بسعر المكالمات العادية



المصرية للاتصالات  
Telecom Egypt

شبكة واحدة..  
..بتقربنا كلنا

أحدث إصدارات

# دار الشروق



مدينة نصر، سيتي ستارز مول، ت. ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ١٦٥٥٤٧٩٩  
 الجيزة، فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة، ت. ٣٥٦٨١١٧ - ٣٥٦٨١١٧  
 الإدارة، ٨ شارع سيدي بكرة - مدينة نصر، ت. ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com email: dar@shorouk.com

وسط البلد، ١ ميدان طلعت حرب، ت. ٢٣٩٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠  
 مصر الجديدة، ١٥ شارع بغداد - الكوربة، ت. ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤  
 الإسكندرية، سان ستيفانو مول، ت. ٣٧٠٤٦٩٠ - ٣٧٠٤٦٩٠